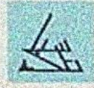
ابراهيم الكوني

# الخسوف 4

# نداء الوقواق

علي مولا





ابراهيم الكوني

# الخسوف

رباعية روائية

4

# نداء الوقواق

طبعة مقومة



استخدمت في تصميم الأغلفة لوحات فنّاني ما قبل التاريخ
المكتشفة بمنطقة تاسيلي - نآزجر (ليبيا).

* ابراهيم الكوني: **الخسوف ٤ .**
**(نداء الوقواق).**
* **الطبعة الثانية، ١٩٩١ .**

* **الناشر: تاسيلي للنشر والاعلام** دار التنوير للطباعة والنشر.

133 Makarios Avenue
Classic House Building - Office No. 4
Tel.: (357 -5) 387463
Fax: (357 - 5) 387464
Limassol - Cyprus

«الى القديس:

أوفنايت الكوني

العفيف، المسالم، المعتزل..

إعجاباً بشجاعته في نبذ التمرد،

تقديراً لتوفيقه في ترويض النفس على السكينة».

«تأمل نفسك. إعرف نفسك. حصّن نفسك داخل نفسك. تحكّم في عقلك وإرادتك التي هدرتها خارج نفسك. وجّهها داخل نفسك. أنت موزع. أنت مشتت. لملم نفسك. ركّز نفسك. إنهم يخدعونك، إنهم يشتتونك، إنهم يتعمدون أن يسرقوك من نفسك. ألا ترى ان هذا العالم لا ينظر إلا في نفسه، وعيونه لا تحدّق الا في داخلها؟ الباطل هو قدرك سواء داخل نفسك او خارجها. ولكن ستقهره ويصبح أقل بطلاناً فقط عندما تضيّق عليه وتحبسه داخل الحدود. أوه، ايها الانسان، إن كل الكائنات تبدأ بمعرفة نفسها وتضع حدود الجهد وحدود الرغبات طبقاً لهذه الحاجات. ليس هناك كائن واحد اكثر بؤساً وخضوعاً لسلطان الرغبات يمكن ان يعادل الانسان المتعطش لامتلاك الكون. إنك، ايها الانسان، باحث بدون علم، آمر بدون حق، وفي النهاية، لا تعدو ان تكون بهلواناً في مهزلة!».

**تعاليم إله دلفي**

«.. لا تولد الذبابة مباشرة على هذا الحال، وإنما تجيء كدودة من جثث البشر والحيوانات. لا يمضي وقت قصير حتى تنمو لها أرجل، وتقوى أجنحتها وتستعد للطيران. تحبل، تلد دودة صغيرة ـ الذبابة المقبلة...».

**لوكيان**
**«تمجيد الذبابة»**
**القرن الثاني للميلاد**

# القسم الأول

# 1 ـ الغيب

لم يلحظ الشيخ غوما كيف اجتاز كوخ آجّار الملقّب بـ«قاتل أمّه» وهو يمشي بمحاذاة الطريق العام بحثاً عن سيارة عابرة متجهة نحو عاصمة الواحات.

في وادي الآجال ينطلق الطريق العام المترب المرسوم بالتجاعيد، متتبعاً أثر الوادي، مقتفياً خطاه الملتوية، المتعرجة، الممتدة من الجنوب نحو الشمال. يلتصق بالسلسلة الجبلية الشرقية المهيبة ذات الرؤوس المتساوية حيناً، وينحرف ويقترب من عمق الوادي حيناً آخر، محاذراً أن يتوغل شرقاً حيث تنتصب سلسلة جبلية أخرى، رملية، تتوعده - دائماً - بالانتقام!

هبت نسمة شمالية باردة. بداية الشتاء في الصحراء. ولكن الرياح الشمالية، المشبعة برطوبة البحر، استمرت تهب على الواحات بسخاء هذا العام، حتى أن هذه الظاهرة استولت على اهتمام الأهالي، ورأوا فيها مؤشراً غيبياً يعد بالفرج وتغيّر المناخ في الصحراء. الأهالي لا يفقدون الأمل أبداً. ويصرّون على انتظار ذلك اليوم الذي ستعود فيه الصحراء خضراء تكسوها الغابات وتخترقها الأنهار. وهم يرون في التغيرات الطارئة مؤشراً لصدق النبوءة، فيراودهم الأمل ويفركون أيديهم كالاطفال، بل ويذهب الانفعال بالمتطرفين منهم فينحرون الذبائح ويسيلون دماء القرابين تعجيلاً بالفرج المنتظر.

أزاح الشيخ غوما لثامه عن وجهه وكشف عن فمه وسحب نفساً عميقاً من موجة الرطوبة السخية القادمة من البحار النائية. أحس بالارتياح برغم التعب. انتصف النهار. ولكن موجات الهواء الشمالية استمرت تخفف من حدّة الشمس.

يوم نادر في الصحراء.

التفت غوما خلفه متفقداً السيارات العابرة. لم تمر سيارة واحدة منذ الصباح، وها هو يجتاز كوخ آجّار ويقترب من أنقاض جرمة دون أن يُرزق بسيارة عابرة.

من طرف الوادي الشرقي، في السهل حيث تتناثر اشجار الطلح، عند سفح الجبل، أبصر شبح آجّار ينزل المنحدر في طريقه الى الكوخ يحمل على منكبه كوماً من حطب الطلح. توقف ومسح حبّات العرق عن جبينه بكمّ الثوب الفضفاض. تابع آجّار وهو ينزل المنحدر. عاد على أعقابه باتجاه الكوخ. قرر أن يلتقط أنفاسه ويشرب جرعة ماء قبل أن يواصل طريقه.

تقابلا عند الكوخ، رحّب به آجّار وسارع يوقد نار الشاي. كانت بعض أعواد الحطب التي جاء بها ما زالت خضراء، فحاول طويلاً قبل ان يوفق في إطعامها للنار. ظلّ منكباً على ركبتيه وهو ينفخ النار، فقال غوما في نفسه إنّ الرجل يشعر الآن بالغثيان والدوار في حين يمنعه الكبرياء من التسليم أمام عناد النار ورفضها التهام الحطب الاخضر. أحس نحوه بالشفقة. نجح أخيراً في إجبار النار على تناول الحطب الرطب.

تصاعدت كتل الدخان في مدخل الكوخ والتفت آجّار نحو ضيفه جاحظ العينين. قال وهو يمسح الدموع بلثامه:

- هل صحيح ما سمعت؟ يقال أن المملكة تشتعل...

قال غوما في نفسه أنّ آجّار يريد أن يخفي الحرج الناتج عن محاولته الطويلة في إشعال النار، فوجد مفتاحاً موفقاً للحديث. شعر نحوه بالاعجاب قبل أن يعلّق:

- نعم. تشتعل. تشتعل منذ شهور ولا أحد يعلم الى أين ستؤدي الاضطرابات.

انطفأت النار وتكاثفت كتل الدخان وتزاحمت. تناول آجّار مروحة السعف واستمر في حديثه عن الأحداث الاخيرة. قال دون ان يلتفت نحو غوما:

- عزلتي تمنعني من معرفة التفاصيل ولكن هذا لم يمنعني من الالمام بآخر الاخبار. سمعت أن السلطات اعتقلت حفيدكم، فهل صحيح ما سمعت؟

دهش الشيخ. هو نفسه لم يبلغه الخبر سوى البارحة فكيف استطاع «قاتل امه» المهجور، المعزول في كوخه، عند أسفل الجبل، بالقرب من جرمة، ان يسمع بالخبر بهذه السرعة.

حبس انفعاله وهو يقول:

- انا نفسي لم أسمع بالخبر إلاّ البارحة. وها أنا اتصيّد السيارات منذ الفجر. لم تمر سيارة واحدة. كأن الحظ يسخر منّي.

اغتصب ضحكة عصبية فهز آجّار رأسه وواصل تحريك مروحة النار. انبثقت الشعلة فتنفس الرجل بارتياح. نهض ودخل الكوخ ثم عاد بطبق نحاسي مزدحم بمعدات الشاي. بدأ يغسل الأدوات وهو يقول:

- يقال أيضاً أنّ ثمة ضحايا...

انقبض قلب الشيخ. قال:

- لم اسمع بوجود ضحايا في أحداث «الجوهرة» ولكن الضحايا كثيرة في طرابلس وبنغازي. هذا ما سمعته..

- المرسوم الملكي جرّد المسؤولين عن إراقة الدماء من رتبهم العسكرية وعزل البعض الآخر. صاحب الجلالة يبرىء ذمته أمام الناس. هيء - هيء - هيء..

رمقه غوما بدهشة. فأضاف «قاتل امه»:

- يا له من داهية!

تابعه غوما بفضول فواصل آجّار آراءه الجسورة:

- صاحب الجلالة يجد الوسيلة دائماً كي يخرج من اللعبة مثل الشعرة من العجين، وها هو ينزل العقاب بالضباط الذين اجرموا وسفحوا دماء أبنائه! اخطأوا وشاغبوا ولكن ليس الى الحد الذي يبيح إراقة دمائهم! هه - هه - هه...

استغرب غوما من أين جاء الرجل بهذه التفاصيل؛ ويبدو ان جليسه قرأ التساؤل في عينيه، فقال وهو يحدجه من تحت لثامه الاسود:

ـ سمعت ذلك في الراديو عند الفلاحين في الغابة. الفلاحون ايضاً يتابعون الاحداث...

صالب الشيخ يديه حول صدره وغطى وجهه بلثامه حتى اختفت عيناه. رفع رأسه نحو رؤوس الجبال الكئيبة الصلعاء وقال بهدوء:

ـ لا اشجعك على ترديد مثل هذه الآراء. للصحراء آذان تسمع والناس متعطشون لترديد ما يقال.

ـ معك حق. اذا تجرأت وفلت الحرف من شفتيك فسوف تجد صداه في اليوم التالي عند الجبل. هيء ـ هيء ـ هيء...

في تلك اللحظة هاجمته النوبة فرأى غوما أمام عينيه سحابة الذباب وهي تزحف نحو وجهه؛ وكي يتحاشاها لا بد ان ينحني الى الخلف. طارت وطاردته حتى وجد نفسه يستند بمرفقيه على الارض، راقداً على قفاه. هنا اضطر أن يأتي بتلك الحركة التي حاول ان يمنع نفسه عنها جاهداً، فلوّح بيده في الهواء كي يطرد الذباب ويمنع السحابة من الاصطدام بوجهه. أغمض عينيه فاختفت السحابة. اعتدل في جلسته وجاهد كي يمنع بصره من السقوط على الارض. ولكن نظره سقط على الارض تلقائياً فشاهد طوابير النمل وهي تتجول في الرمل. تابعها وهي تدخل جحوراً وتحمل فتاتاً وطعاماً وتنوء تحت ثقل الخنافس الميتة السوداء. بعضها يحمل جنادب ايضاً ما زالت حية. ثم... انفتح الطريق نحو المدن الوهمية. فوجد نفسه يدخل الأبواب الاسطورية ويغيب هناك دهراً. وعندما عاد من رحلته المدهشة وجد آجّار يرمقه بفضول، ترفرف على شفتيه ـ اللتين انحسر عنهما اللثام ـ ابتسامة غامضة، يده ممدودة بكوب الشاي الاخضر الحاسر من الرغوة.

# 2 ـ الغياب

متى احترف الشيخ غوما الغياب في تلك المدن؟ متى بدأت اسراب الذباب وجيوش النمل الوهمية تهاجمه وتفتح أمامه الابواب السحرية الى تلك المدن الاسطورية؟ الشيخ آهر يؤكد أنه لاحظ على الشيخ حالات الوجوم بعد نزول أدرار مباشرة. ويضيف ان غوما لم يوغل في وجومه إلا في الأيام الاخيرة التي سبقت غرق الواحة المنكوبة. ولم يخجل من ترديد تأكيداته في مجمع الاعيان والوجهاء مما اثار حزن الشيخ خليل ففاتح آهر بمخاوفه في ان تنال التصريحات من سمعة الشيخ وتنزل من مكانته في اعين القبيلة ولكنه فوجىء بالشيخ آهر يعلن: «أنتم تبالغون في الحذر. مثلك مثل الشيخ نفسه. تقيسون كل كبيرة وصغيرة وتحسبون علينا حتى انفاسنا. فمتى تكفّان بالله عن حشر أنوفكم في نفوسنا؟».

هذه الاجابة الخشنة لم تدهش الشيخ خليل. آهر ليس غشيماً فحسب ولكنه يتمتع بطبيعة خفية. آهر غريب الأطوار. وكي يعرف مدى تطابق هذا الحكم مع الواقع قرر ان يلجأ الى الشيخ غوما لجس النبض والتشاور. جاءه بعد عام من نكبة أدرار ونزوحهم الى وادي الآجال فوجده يهجع خلف الكوخ محتمياً بظل العشية يداعب آميس ابن أمود. لم يصبر حتى تبدأ طقوس الشاي الاخضر فقال بلهجة كشفت لهفته في البوح بما حاول ان يخفيه:

- اصبح سلوك الشيخ آهر يقلقني. يتحدث عن وجومك في السنوات الاخيرة قدّام كل من هبَّ ودبَّ...

انقبض قلبه وأنّب نفسه على تسرعه وهو يلحظ عيني الشيخ تعلنان عن

ابتسامة ساخرة. قال إنه لا بد مما ليس منه بد فأطلق الزمام للسانه:

ـ يتحدث عن الوجوم وكأنه مرض خبيث.

صمت في ضيق ثم وجد نفسه يواصل بلا وعي:

ـ سُمعَتك! سَمعَتنا! والشائعات تهدد وحدة القبيلة.

نهض غوما وقال دون ان تفارقه الابتسامة الساخرة:

ـ الحمد للّه ان الغشامة لم تبلغ به حداً يصفني فيه بخفة العقل. آهر غشيم. هذا بسبب الغشامة.

طأطأ خليل رأسه فانحسر اللثام عن خدّه فبدت آثار القروح الناجمة عن حروق النار. قال بنفس الحماس:

ـ الحق أن ما يتردد في القبيلة لا يقل خطورة عن خفة العقل!

طفت عينا غوما بحزن مفاجىء فسكت خليل. جاء آميس بكوم من الحطب. كدّسه بينهما واختفى داخل الكوخ. قال غوما وهو يتناول عودا ويخطط لاقامة مشروع المدن الوهمية:

ـ هل يريد آهر ان يتولى المشيخة؟

رفع خليل رأسه فالتقت نظراتهما لأول مرة. توقف غوما عن التخطيط وقفزت الدهشة في عيني خليل. تصريح غوما كان مفاجأة. لم يتوقع ابدا ان يكون غوما بهذه القسوة.

هذا ليس غريباً. يروق لغوما أن يصرع بالمفاجآت. قال خليل بخجل:

ـ أستغفر الله. لا اعتقد أن الأمر قد بلغ هذا الحد.

ـ ولماذا تستغفر؟ هل في هذا ما يعيب؟

ـ لا يجرؤ احد في القبيلة على تسلّم المشيخة وأنت على قيد الحياة.

ولكن غوما قاطعه في خشونة:

ـ دعنا من المجاملة. أنت تعلم وأنا اعلم. آهر يسعى للمشيخة منذ زمن بعيد.

صمت خليل غطّى وجهه بطرف عمامته؛ فاستمر غوما:

ـ .. زمن سبق «اجتماع الزريبة» الذي نظمته المرحومة باتا بفترة طويلة. وسوف أكون سعيداً جداً لو أعتقتموني لوجه الله وسلمتموه المشيخة غداً!

ـ لم نألف ان يطمع أحدنا في منصب يتقلده رجل آخر.

ـ هذه تقاليد النبلاء. هذه تقاليد ايام زمان. أمّا اليوم، في ظل الواحات، فعليك ان تتوقع مفاجآت لم تألفها.

ـ هل تتغير الناس بهذه السرعة؟

ـ ربنا يهدي من خلق. العطش الى الحكم يلازم الاستقرار. لا يمكن ان تكون السلطة مرادفة لقوم يحترفون التنقل والترحال. إنهم يمارسون الحرية طالما استمروا يتنقلون ويهاجرون. ولكن لا يلبثون ان يضعوا القيد في اعناقهم بمجرد أن يرتضوا الاستقرار ويبدأوا في اقتناء الاشياء. هنا لا بد ان يبحثوا عن حاكم يحكمهم حتى لو لم يوجد. العبودية تتسلل مع المقتنيات.. هه ـ هه ـ هه...

خليل لم يشاركه ضحكته العصبية. التفت الى كوم الحطب المكدس وتلهّى في اشعال النار. أدهشه أن يحس بما يوسوس في صدور الناس. لا يشك في ان آهر يطمع في المشيخة ولكن لن يجرؤ ان يفكر في توليها وغوما على قيد الحياة.

بدأ يدلق النار على معدات الشاي فقال غوما بلهجة سخرية:

ـ لم تكن المشيخة لا جاها ولا مالا في يوم من الايام، كما لم تكن منصبا يمكن ان يفاخر به. وهي لا تجلب النبل ولا الصيت واذا كان آهر يعتقد غير ذلك فهو واهم.

ـ نحن نعلم جميعا أنك لم تقبلها في الماضي إلا بعد جهد. فرضت عليك. أجبروك على قبولها. فكيف بوسع آهر او غير آهر أن يتجاسر ويفكر في أخذها من يديك؟

ـ ربما اعتقد أنها تجلب الوجاهة. او فلنقل النَبل.. النَبل هو العملة الضائعة هذه

الايام. يا حسرتي على النبل في وادي الآجال!

ـ نحن نعلم ايضاً، الصحراء كلها تعلم، أنها لم تهبك فضيلة واحدة لم تكن فيك. انت الذي وهبتها شأناً جديداً لم تتمتع به عندما تولاها آخرون من قبلك.

ـ قل هذا للشيخ آهر. إنه يعتقد أن الهيبة تأتي من المنصب. يرى ان الحكمة تأتي من الوجاهة. إنني اشفق عليه. مسكين آهر..

صمت وعاد يخطط مدنه على الارض. أضاف:

ـ وتريدني بعد كل هذا ألاّ أصفه بالغشامة؟

اغتصب ضحكة عصبية قصيرة قبل ان يضيف:

ـ .. سيقدم لي خدمة جليلة من حيث لا يعلم..

ثم تابع وهو ينكبّ على الارض:

ـ لا هدف لي الآن سوى التحايل على الشيخوخة. ولا أرى قيمة لحياة تغيب فيها البطولة وتخلو من النبل.

استمر وهو ينكش الارض بعود الطلح:

ـ لقد لقّنني جبّور درساً في احتقار الموت. من يومها وأنا لم اتوقف عن احتقار نفسي لأني لم أنل مرتبته في البطولة. ثم.. ثم يشاء الحظ ان يصفعني بدرس آخر قبل ان يمضي شهر. مات آخوّاد عطشاً دون ان يتخلى عن البندقية. تجرّد حتى من اللباس، ولكنه تشبث بالبندقية. فعل ذلك اخلاصاً لي. احتفظ بها كرمز لصداقتنا حتى آخر لحظة. فهل رأيت نبلاً كهذا؟ هل رأيت بطولة تفوق هذه البطولة؟

ضحك بمرارة واضاف:

ـ ثم قدّم لي مهمدو هدية نفيسة قبل غرق آدرار بقليل. كان يضحك ولا يتوقف عن المزاح. قال أن على المرء ان يستقبل قدره ضاحكاً. استطعت ان اقنعه بترك المغارة في البداية ولكنه ما لبث ان سخر من نفسه وعاد على عقبيه يتأبط جمجمته التي ورثها عن معلمه الشنقيطي. قال: «من المضحك ان يهرب الانسان من قدره». ودّعني ضاحكاً بعينين دامعتين. رحمه الله. كان يخفي حزن الوداع

بالمرح...

صمت فرأى خليل في عينيه بريقاً غامضاً. توقع ان يتحول الى دمعة ولكن عيني الشيخ ظلتا جافتين. تساءل فجأة:

ـ وتريدني بعد كل هذا ان أتذوق الحياة وأسترخي مثل الفلاحين وأسعد بالمشيخة في وادي الآجال؟

ثم غاب في الوجوم قبل أن تهاجمه النوبة. أقبلت اسراب الذباب وتظاهرت فاستجابت لها طوابير النمل على الارض. دبت في مسارب متقاطعة تحمل الخنافس الميتة وتجر جنادب تعاني سكرات الموت، تدخل جحوراً وتخرج من مسارب حفرتها في التراب. فتحت السماء أبوابها السحرية فلاحت المدن البعيدة... استلقى الى الوراء حتى اسنده جريد الكوخ.

ظل الشيخ خليل يتابعه بنظرة حزينة.

# 3 ـ الحفيد

آيس التحق بمعهد المعلمين بعاصمة الواحات. ولدهشته وجد فضل الله درهوب قد سبقه الى مقاعد الدراسة. عرف منه أنه نجا بالصدفة. التحق بوالده الذي هاجر الى واحات الشمال قبل حلول الكارثة بأيام فقط. التقيا في القسم الداخلي. تسكعا في السوق وقضيا الامسيات في سينما «الاتحاد». طافا شوارع الاحياء الخلفية المتربة حيث تتكوم القاذورات وكتل القمامة ويغير الذباب في أسراب شرسة. هناك يروق للاطفال الحفاة ان يتراشقوا بالحجارة ويتنابزوا بالألقاب البذيئة. تجوّلا في ضواحي العاصمة وأطرافها المستلقية من الناحيتين الغربية والجنوبية للصحراء الرملية. وتمتعا في الليالي المقمرة بسحر الخلاء وجمال لقاء الصحراوين العظيمتين ـ الرملية والجبلية ـ الخالدتين في العشق والخصام.

اقام آيس في العنبر المجاور للطريق العام المتجه نحو القلعة القديمة وكان نصيب فضل الله العنبر الثالث المجاور لفصول الدراسة عند نهاية سور القسم الداخلي.

التقيا كثيراً داخل جدران سور القسم واستعادا ذكرياتهما الدموية في آدرار المجيدة قبل ان تحل عليها اللعنة. وعلى عكس آدرار فإن الايام في جوهرة الواحات مضت متثائبة، كسولة، بل ومملة حتى اشتعلت احداث الشمال فاستيقظت الجوهرة.

الشتاء.

يناير.

١٤ يناير.

اندلعت مظاهرات طلبة الجامعات في طرابلس وبنغازي احتجاجاً على القواعد الاجنبية. تصاعدت بعد يومين بانضمام طلبة المعاهد والمدارس. وفي الايام التالية تمتعت بتأييد الاهالي وتضامنت معها المدارس والمعاهد في الدواخل. تطرف بعض ضباط القوات المتحركة فأمروا بإطلاق النار على المتظاهرين. تساقط الشهداء وامتصت الارض العطشى دم الضحايا والمغدورين. تصاعد الغضب وجُنَّ الناس فارتفعت الاصوات تنادي بالثأر والقصاص.

المملكة تغلي. والغضب بلغ مداه. الناس تعودت ان ترى الدماء تراق من قبل الغزاة، فلم يصدق احد ان يتجاسر ليبي ويأمر بإراقة دم اخيه الليبي مهما كان السبب. حتى لو كان السبب «ردع التمرد والمحافظة على النظام». المملكة ما زالت تغلي، والغضبة تتضاعف برغم المراسيم الملكية القاضية بتجريد المجرمين من رتبهم ومناصبهم فرأى الناس في هذا الاجراء مجرد حيلة بائسة لامتصاص الغضبة وذر الرماد في العيون.

في الجوهرة تابع الناس أحداث الشمال بأعصاب مشدودة. وفي الليلة السابقة على اندلاع المظاهرات تجاوبت الطبيعة وتعاطفت مع الاهالي. تجهمت السماء بسحب غابت سنوات وسنوات وفقد فيها الناس الأمل منذ زمان بعيد. ومع حلول عتمة المساء توقفت الرياح الشمالية عن العواء وأفسحت المجال لسقوط زخات نادرة من المطر. انتهز عياش الدَّوس وزميله زيد كركوبه الفرصة وتسترا بالليلة المشحونة بتوتر الطبيعة وأعصاب الناس وتسللا الى القسم الداخلي. تمكنا من تسلق جدار السور الخلفي المفضي الى الخلاء الشمالي غفلاً عن اعين رجال البوليس الذين شددوا الحراسة وطوقوا القسم الداخلي منذ تدهور الاحداث في مدن الشمال.

قادهما آيس الى العنبر الثالث عبر المخازن المفضية الى المطبخ وعقدوا هناك، على ضوء مصباح الكيروسين، اجتماعاً انضم اليه فضل الله ومندوبو المدارس والمعاهد. درسوا وسيلة التضامن مع الزملاء المغدورين في الشمال. أعدوا الخطة واللافتات وحددوا مكان وزمان التجمع للانطلاق الى رئاسة البوليس. وعندما تفرقوا عند انشطار العتمة عن ضوء الفجر لتنفيذ الادوار ـ التي تولى عياش الدوس توزيعها ـ فوجئوا بأن جدران القسم الداخلي لم تتأخر عن الغدر بهم

فوشت بهم الى حكمدار البوليس. وجدوا فرق القوات المتحركة تطوق الساحة المواجهة للرئاسة وتسد المنافذ المؤدية الى الميدان. ارتبكت الطوابير الطلابية الغاضبة ولكن عيّاش الدّوس اعتلى اكتاف ثلاثة من زملائه وحمّس الجموع الطلابية، واقترح التوجه الى مبنى المحافظة.

هناك ايضاً تربصت الفرق البوليسية المتحركة مدججةً بخوذات مخيفة لم يشهدها احد من قبل. تسلّح البعض بالهراوات واعتلت البنادق مناكب البعض الآخر.

فتر حماس المتظاهرين ولكن الحناجر استمرت ترتفع بالهتافات. لم تمهلهم القوات كثيراً فانطلقت رصاصات في الهواء. ثم تدافع البوليس واقتحم قلب المظاهرة في وحشية لم يحسب لها احد حساباً. تفرق المتظاهرون وأقبلت طوابير سيارات اللاندروفر من القلعة تقل ارتالاً جديدة من الأفراد المسلحين بالبنادق والخوذات والهراوات.

عندها شهدت الجوهرة الصدام الدامي الاول في حياتها الكسولة، منذ مذبحة القارة التي نظمها الطليان ضد المجاهدين في بداية غزو الواحات الجنوبية.

رجموهم بالاحجار وتبادلوا معهم اللكمات بالقبضات وتماسكوا بالأيدي ولكن الغلبة للهراوات. تراجعوا. ورويداً بدأوا يتفرقون ويتشتتون وقد أدهشتهم وحشية البوليس في استعمال السلاح. لم يصدق آيس ان يتمتع الليبيون بقساوة تدفعهم الى سفك دماء أشقائهم دون ان يرف لهم جفن. لم يصدق طوال الايام الماضية المشحونة بالتوجس والتوتر والانتظار والشائعات. ولكنه رأى بعينيه كيف يهوي احدهم بهراوته على رأس عياش الدوس الذي احتمى بشجرة سرو واستمر يحمّس المتظاهرين ويصرخ بالهتافات. سقطت اللافتة المزخرفة بشعارات الاحتجاج وداست عليها الاقدام. تكأكأ عليه ثلاثة رجال شرطة قساة يضربونه بالهراوات ويركلونه بأحذيتهم السوداء التي تلمع في مقدمتها قطع من النحاس.

لم يجد صعوبة في شق الزحام والوصول الى الموقع. دفع العسكري البدين بكلتا يديه وحاول ان يساعد عياش في النهوض. كان ينكفىء على وجهه، يحاول ان يحمي رأسه من ركلاتهم وهراواتهم باليد اليمنى دون ان يتخلى عن الراية بيده اليسرى. طرف الراية البيضاء الآخر تمزق وغمره الغبار والرمل. حبات الرمل تعلو

وجه عياش ايضاً. تلتصق بخيوط الدم المنتشرة على شفتيه ووجنتيه. ولكن الفتى العنيد لم يتوقف عن المقاومة. هوى أحدهم بهراوته على آيس فتحاشاها بأعجوبة. حاول العسكري الثاني ان يتمكن منه بهراوته فتلقاه آيس بيده. لحظتها استطاع عياش ان يقف على قدميه. بصق الدم ورفع الراية الممزقة الى أعلى. صرخ بشعاراته وهو يتراجع الى الوراء ويحتمي بكوكبة من الزملاء المسلحين بالاحجار.

«لن يضيع دم شهدائنا هدراً»!

«لن يفلت مجرم واحد هدر الدماء».

«ايها المستعمرون الجدد عودوا الى بلادكم!»

«الجلاء! الجلاء! الجلاء!».

تكأكأ افراد القوات المتحركة على آيس بعد أن أفلت الدوس. تمكنوا منه بعدد من اللكمات والضربات ولكنه لم يفقد التوازن ولم يسقط على الارض. هرع لنجدته زيد كركوبة وعدد من الزملاء. انتزعوه من بين ايديهم وتراجعوا الى الوراء. امطر الطلبة القوات بوابل من الأحجار فتراجعت الى الخلف. وقفوا في صف افقي على طول جدار المحافظة. تفقدوا صفوفهم وجاءت سيارات اللاندروفر وحملت جرحاهم. أقبل الضباط المستشرسون وألقوا ببعض التعليمات.

ساد هدوء مشحون قبل ان ينفجر الموقف من جديد.

رصّ الطلبة صفوفهم ايضاً وتسلحوا بمزيد من الاحجار. اندفع طابور العسكر نحوهم فجأة وهم يطلقون النار.

هل أطلقوا النيران في الهواء؟

خرّ أحد الزملاء. انبثق الدم من رقبته وسال على الرمال العطشى. ذهل التجمع وتقدم منه عياش يجس النبض. رفع رأسه بعد لحظات وقال ببلاهة: «لقد مات يا جماعة».

لم يصدق أحد. فسقطت الاحجار من أيدي البعض تلقائياً وصرخ أحد الطلبة في الصف الخلفي:

«أنظروا! مسعود ايضاً مات».

ولكن القوات المتحركة لم تمهلهم للاعتناء بموتاهم فداهمتهم قبل ان يفيقوا. اندفعوا يشهرون البنادق والهراوات، يحصنون وجوههم من الاحجار بالخوذات المنيعة.

لم تستمر المواجهة طويلاً.

فرّت الاغلبية واعتقل البعض. في تلك المرة كتبت النجاة للاربعة: آيس. الدوس. كركوبة. درهوب. في حين اختلف الامر في المواجهة التالية فلم تكتب النجاة الا لفضل الله درهوب. ساد الحزن الجوهرة بعد سقوط القتلى. وظل الحداد يخيّم اياماً حتى حل ميعاد تشييع الجنازة فانفلت الغضب واشتعلت الأحداث من جديد. في الليلة التي سبقت تشييع الجنازة اجتمع العصاة الأربعة (كما اطلق عليهم مدير القسم الداخلي) في غابة النخيل الواقعة في منتصف المسافة بين مركز الجوهرة والقلعة. حضر عياش الدوس الاجتماع معصوب الوجه واليدين، اما آيس فحضر مضمّد الخد الايسر ووضع على رأسه زمالة مخططة كي يداري الجرح في الرأس. بدأوا في وضع الخطة على ضوء القمر، حتى اذا غاب أشعل عياش فنار الكيروسين الذي جاء به من الكوخ الذي يتخذه مقاماً منذ طرد من القسم الداخلي بتهمة الشغب والتحريض على التمرد في الشهور السابقة. ولم يكن الشغب المزعوم سوى محاولته الفاشلة في تنظيم الاضراب عن الطعام احتجاجاً على رداءة الطعام نفسه. اكتشف عياش ان المسؤولين عن الاعاشة متفقون على نهب المخازن وتزويد بيوتهم بالاغذية واللحوم على حساب الوجبات فتجاسر على الاحتجاج ونظّم الاضراب الفاشل.

وها هو اليوم يضع الخطة للاحتجاج الجديد.

اقترح زيد الانتقال بالاجتماع الى كوخ الدوس تحسباً لآذان الخلاء التي تتجسس.

زيد ايضاً جريح. اصيب في معصمه الايمن. تبادلوا نظرات كئيبة تحت الاضاءة الباهتة قبل ان يسمعوا خطوات القادم الجديد. سعل مرتين قبل ان ينطق بالتحية حسب الاتفاق. السعال مرتين ثمّ التحية هي إشارة كلمة السّر. لم يستطع فضل الله درهوب ان يتمالك نفسه من الضحك وهو يرى زملاءه الثلاثة جرحى، يلفون

رؤوسهم ومعاصمهم بالضمادات والرباطات. درهوب هو الوحيد الذي نجا ولم يصب بجروح. تنقل ببصره بينهم قبل ان يعلن:

ـ الحكومة اكتشفت نوايانا وتنوي تغيير موعد تشييع الجنازة.

تبادلوا نظرات سريعة قبل ان يتساءل عياش الدّوس:

ـ كيف عرفت؟

ـ هذا سري.

ـ أنت متأكد؟

ـ كما انا متأكد من وجودك امامي الآن.

ـ ولكن كيف وصلت تفاصيل خطتنا الى آذان الحكومة؟

كتم درهوب ضحكة وهو يعلق:

ـ وهل يُخفى شيء عن الحكومة؟

احتج الدوس:

ـ ولماذا لا يخفى؟ هل هي إله حتى تعلم بما يوسوس في صدور الناس؟

ضحك فضل الله بخبث. قال بيقين:

ـ الحقيقة هي الحقيقة. لها خصائص لا تختلف عن خصائص الآلهة كثيراً.

عاد يضحك فرمقه آيس باستنكار. قال عياش:

ـ سنضطر الى ادخال تعديل جوهري في خطتنا.

ـ ما هو الموعد الجديد الذي استقرت عليه السلطات حسب معلوماتك السرية؟

ـ غداً مساء. غداً ليلاً. ربما قبل العشاء وربما بعد منتصف الليل. الله اعلم.

ـ بعد منتصف الليل؟

ـ ها ـ ها ـ ها... إنني امزح. لا اعتقد أن بوسع السيد الحكمدار ان يسهر حتى بعد منتصف الليل. انه يأوي الى فراشه مبكراً. ظروفه الصحية لا تسمح.

استلقى الى الوراء في نوبته ولكن لم يشاركه أحد فعاد يعتدل في جلسته ويضيف:

ـ على أي حال ليس بعد منتصف الليل. بوسعكم ان تبنوا خطتكم على هذا الاساس.

رمقه زيد كركوبة بشك وهو يهز رأسه يميناً ويساراً. قال بغضب:

ـ واذا بنينا خطتنا على هذا الأساس اعتماداً على معلوماتك وفاجأنا البوليس بخطة مخالفة. سوف يسفحون دماء جديدة وسأضطر لأن اخنقك بيدي هاتين...

تدخل عياش:

ـ يكفينا افتراضات وتخمين. ليس لدينا وقت. الدقيقة الواحدة في هذه الظروف تساوي دهراً في الظروف العادية. يجب ان نبدأ..

أدخل عياش التعديلات في خطته وتفرق الجماعة. تولى آيس استجواب صديقه القديم وهما عائدان الى القسم الداخلي. تسلقا السور من الجهة المفضية الى الخلاء الشمالي. قال وهو يتحصن بزمالته ويتابع فضل الله عبر الظلمة:

ـ ارجو أن تشبع فضولي وتخبرني الآن بالمصدر الذي استقيت منه معلوماتك؟

رمقه فضل الله في العتمة وكتم ضحكة. قال:

ـ خمّن؟ أنت أكثر من يعرفني. تستطيع أن تثق بأن معلوماتي لن يأتيها الباطل لأن مصدرها اكيد.

ـ أنا لا اشكك في صحة المعلومات ولكني اريد ان اعرف المصدر.

ـ أنا لا استقي المعلومات من أحد ومصادري تعرفها.

ـ من أين لي أن اعرفها؟ انت شيطان رجيم ومن الصعب التنبؤ بمصادرك.

توقف وحدّق في العتمة محاولاً ان يتبين فضل الله في الظلام:

ـ ارجو الآ ... هل عدت الى عادتك القديمة وتلصصت خلف الابواب؟

ـ هيء ـ هيء ـ هيء ... ها قد خمنت. لم اتوقع ان تكون ذاكرتك قوية الى هذا الحد. هه ـ هه ـ هه... كيف عرفت؟ كنت اعتقد ان هذا سري وحدي. ولكن حقاً يقال: لا سر يخفى في رأس انسان!

مسح دموعه وواصلا طريقهما. قال فضل الله:

ـ البارحة تسللت الى بيت الحكمدار وتسلقت السور. غافلت الشرطي. اختبأت داخل الحديقة وراء شجرة السرو. كان يجالس رئيس القوات المتحركة في الحديقة بجوار المدخل يشربان شاي العشاء ويتباحثان حول انجح الاساليب لمواجهتنا. قال الحكمدار ان اطلاق النار لم يكن قراراً حكيماً وتنفيذ تعليمات وزير الداخلية في المحافظات الجنوبية خطأ. الجنوب لا يحتمل العنف، وسفك الدماء سيثير الاهالي. هكذا قال. ولكن رئيس القوات المتحركة يرى ان الواجب يقضي بتنفيذ الأوامر حفاظاً على النظام ومنعاً للتمرد. رئيس القوات المتحركة كان حانقاً وحاقداً على المتظاهرين. بلغ به الحماس حداً جعله يقول إنه على استعداد لذبح نصف المتظاهرين اذا كان ذلك سيضمن الهدوء ويعيد السلام الى المملكة. الشبع يعلّم البدع. الشبع هو الذي دفع الاوباش الى التمرد. هكذا قال.

توقف فجأة وسأل ملتفتاً نحو آيس:

ـ ثم.. ثم استرقت السمع بعد ان غادر رئيس المتحركة.

صمت لحظات وهو واقف. اضاف:

ـ و.. رأيته من شق الباب وهو يداعب زوجته. هه ـ هه ـ هه.. ها ـ ها ـ ها.. لم تكن جميلة ولكنها في الفراش مثالية!

بصق آيس على الارض:

ـ خزاك الله. متى تتوقف عن العادة الرذيلة؟

ـ ها ـ ها ـ ها ... مثالية حقا. الى أبعد حد. ندر أن رأيت خلف الأبواب امرأة مثلها!

ـ هل تعلم على من تلصصت آخر مرة قبل أن أغادر الواحة وتكتب لي النجاة؟

ـ . . .

ـ القاضي! هل تصدق انني ضبطت القاضي ـ خلف الباب ـ متلبساً مع زهرة؟

ـ انت تكذب، متى تتوقف عن الشيطنة والكذب؟

ـ اقسم بالله انني ضبطت القاضي الزبرجداني بصلعته اللامعة تحت ضوء الفنار وهو يئن ويتوجع في فراش زهرة!

ـ انت تكذب! القاضي رجل فاضل!

ـ من منا ليس فاضلاً؟ كلنا فاضلون بطريقتنا. ولكن هل تعتقد ان للفضيلة علاقة بفراش زهرة؟ ها ـ ها ـ ها . . .

ـ . . ثم ان زهرة تزوجت كونسا ونسيت حياتها القديمة . .

ـ هكذا يقال . . .

ـ اخلصت له وربما احبته حتى جاءت زوجته الرومية للمرة الثانية فنكدت عليها وناوشتها بالأظافر. أخرجتها من البيت فقررت زهرة ان تنتقم من كونسا. مسكين كونسا! ماريا انتقمت منه فلجأت الى الفلاحين وزهرة انتقمت منه فلجأت الى القاضي. الرجل دائماً هو الخاسر. الزوج هو الخاسر. تتعارك الضرتان فيأتي الكيد على رأس الزوج. هيء ـ هيء . . . يأتي كيدهن على رأس الزوج . . اسمع هذا التعبير بالله. الا ترى انه تعبير موفق؟ اعترف ايها المكابر . . هيء ـ هيء ـ هيء . . .

ظل آيس صامتاً طوال المسافة الباقية التي فصلتهما عن سور القسم. حاول ان يخفي ضيقه خلف زمالته ولكن درهوب لم يرحمه:

ـ أنا اعرف انك غاضب. لم يعجبك أن أضبط رجلاً وقوراً مثل القاضي في فراش زهرة. انت تريدني ان اضبط هناك رجلاً آخر . .

التفت آيس بحركة خشنة فضحت ضيقه. واصل فضل الله:

ـ أنت مـثل جـدك. انت تتـخـذ نفس الموقف. تعطف على القـاضي وتكره الجاروف. خيبت املك لأني لم اقل لك اني ضبطت الجاروف في فراش زهرة. هيء ـ هيء... بوسعك ان تـفرح. لقد ضبطت الجاروف هناك منذ زمان ـ هه؟ ما رأيك؟ هل انت في حال افضل الآن بعد هذه البشرى؟ آ؟ قل لي بالله: ألا تشعر بالسعادة الآن؟ أراهن انك سعيد. ضبطت الشيخ الجاروف هناك منذ زمان واخفيت عنك الحقيقة. الواقع اني خشيت ان تستغل ذلك في الصراع بينه وبين جدك غوما. تعمدت أن...

طفح الكيل بالفتى فصاح في وجه درهوب:

ـ كف. كف. يكفي الا تستحي؟ توقف حالاً وإلا كسرت رأسك...

في الخلاء عمّ سكون بعد منتصف الليل. لاذا بصمت متوتر حتى بلغا أعتاب السور. بحثا في الظلمة عن كوم الاحجار الذي تعودا ان يستعينا به في الصعود وتسلق الجدار. اختفى. هل اكتشف البوليس وسيلتهم في التسلل الى القسم وأخفى الاحجار؟ تطوع فضل الله واقترح على آيس ان يصعد مستعينا بكتفيه. قفز آيس الى الناحية الاخرى فهوت على رأسه الهراوة. قدحت عيناه الشرر وشاهد موجة من اللهب قبل ان يحس بالسائل اللزج يشق رأسه وخديه. ترنح لحظات وهو يقاوم الغيبوبة. قبل ان يسقط سمع، خلف السور، ضحكة، بل قهقهة جسورة، ماكرة، رذيلة. قهقهة درهوب. انطبعت في نفسه الى حد انه تذكرها مباشرة عندما عاد له الوعي ووجد نفسه بين زملاء البارحة، داخل جدران السجن. رأسه ثقيلة يدقها الصداع ونفسه تطفح بالحقد. في الركن المواجه جلس عياش ممتقع الوجه، موسوما بالخدوش والكدمات. اطرافه ملوثة بالدم والغبار. بجواره تربع زيد كركوبة. شاحباً ايضا، جريحا، ملوثا. من عينيه يقفز الهدوء والاستسلام، عكس عيني الدوس اللتين ظلتا تبرقان بوميض التصميم. طاف ببصره في الحجرة الضيقة المعتمة فلم يجد اثرا لدرهوب. قفزت قهقهته الغريبة الفاجرة الى رأسه حالاً. صعد كوم مقزّز الى حلقه ثم عاد وانزلق الى المعدة مخلفا القشعريرة والاشمئزاز. اول ما نطق به كان السؤال عن مصير فضل الله. مضت فترة صمت قبل ان يجيبه عياش بكلمة مقتضبة: «هرب...». ساد الصمت مرة اخرى قبل ان يضيف الدوس كلمة اخرى: «استطاع ان ينجو...» ولكن الضحكة اللئيمة التي افلتت من فمه الكريه، خلف السور، ما زالت تسد حلقه مع كوم

القيء.

في الزنزانة تفوح الرطوبة والعرق وانفاس الزملاء. لا يبدد حلكة الظلمة سوى اضاءة تنبعث من كوة صغيرة مثبتة في اعالي الجدار بالقرب من السقف. الكوة هي مشروع نافذة عارية يخرقها قضيبان متقاطعان.

بادر عياش بكسر الصمت. تساءل دون ان يرفع رأسه المنكس:

ـ هل تألمت كثيراً؟

حرّك آيس اطرافه وتململ في مرقده قبل ان يجيب:

ـ الحق اني لا ادري. ضربوني على رأسي بمجرد ان قفزت من السور. و..

خطر له ان يقول ان طنين قهقهة درهوب ما زال يصدّع رأسه ولكنه اضاف:

ـ و.. لا ادري ماذا حدث بعدها. ربما ضربوني وانا مغمى عليّ.

لاحظ ان يد الدوس ترقد في الجبس. جبس طازج. ويده الاخرى ملفوفة في الضمادات. لاحظ عياش اهتمام آيس باليد المحطمة فقال يمزح بلهجة ساخرة:

ـ كسروا اليد حتى لا ترفع اللافتات في المستقبل وقالوا انهم سيضطرون لكسر ضلوعي ورأسي وفكي في المرة القادمة اذا لم استوعب الدرس وتجاسرت على اثارة الشغب والهتاف بالشعارات!

تابع آيس خنفسة سوداء تتسلّق الجدار عند النافذة. سأل ببلاهة:

ـ اين نحن الآن؟

بذل عياش جهدا واضحا كي يجبر نفسه على الابتسام. ابتسامة حزينة. تمتم:

ـ اين يمكن ان نكون؟ في دار الضيافة؟

ابتسم زيد ايضا في ركنه. قال متمازحا:

ـ انت تهذي. ما زلت تعاند الحمّى.

استمر مبتسما كاشفا عن شق عميق في صف أسنانه السفلى. أيقن آيس أن

معركتهما مع البوليس كانت أشرس. تساءل:

ـ متى داهموا الغابة؟

تطوع زيد للاجابة وابتسامته الطفولية تتحول بالتدريج الى عبوس:

ـ بمجرد ان خرجتما.

دار المفتاح في الباب الحديدي الصدىء الذي أكلته الرطوبة والاهمال وأطل السجان الزنجي بوجه عابس. تفقدهم بنظرة شاملة ثم اختفى ساحباً ضلفة الباب الحديدي الصدىء وراءه. أغلقه بعنف فاهتزت الحجرة البائسة وتساقطت قشور الجير والطين. تبادلوا النظرات فلاحظ آيس في الزاوية رغيف خبز جاف مشطور الى نصفين ملقى على قطعة قماش بيضاء مبقعة بالدهون مفروشة على الاسمنت المتشقق. جوعان. وعطشان ايضاً.

قرأ زيد افكاره فقدم له الماء في كوب الومونيوم زئبقي اللون تعلوه الدهون والكدمات والانبعاجات من كثرة الاستعمال. ثم جرّ نحوه قطعة القماش ايضاً. هل قرأ زيد العطش والجوع في عينيه؟ ولكن الألم الذي يقرع رأسه ويحرقه بالحمى يكبح جماح شهيته. الألم. ليس هناك غير الألم. من اختار الحياة، عليه ان يتعود طعم الألم. واهم من ينتظر المتع من القدر معتقداً ان الحياة حفل. الحياة ألم. هذه تعاليم مهمدو. هكذا يقول عراف آدرار الحكيم. وهو اول من عرف ان الألم اجود مطهر للتكفير عن الاثم. عرف ذلك عندما قضم التفاحة المحرمة وارتبط بامرأة في عمر أمه قبل ان يبلغ سن الرشد فعاقبه جدّه بالجلد من سوطه المفتول بألسنة النار. انتزع منه السوط الدموي الألم الخفي الذي يرقد بعيداً فتحرر واستطاع ان يرفع رأسه. رفع رأسه برغم آلام الجسد. الألم. فيك الخلاص دائماً ايها الألم! وسوف يشقى من لم ينل رضى الحظ ويكتشف هذه الحقيقة: لن يفوز بالخلاص الا من قايض آلام الجسد بآلام الروح. الا من قدّم الجسد قرباناً لتخليص الروح. بعدها ستشتري السكينة. هل هناك سعادة تضاهي الشعور بالسكينة؟ مهمدو يقول ان السكينة هي النعيم. الفقهاء اتهموه بالتجديف، ولما لم يستطيعوا ان ينالوا منه قالوا انه عرّاف تجاوز المئة عام فبدأ يخرّف. من حق العرّاف ان يخرّف في العرف. قواه العقلية لا تختلف كثيراً عن عقول الاطفال والدراويش. الاهالي يؤمنون سرّاً بتعاليمه وإن أخفوا ذلك عن الفقهاء خوفاً من تهمة التجديف. جده

ايضاً استعار هذه العقيدة واستثمرها في شراء النجاة من وباء العقارب. ضحى بالمال ومقتنيات الدنيا فنجا ونجّى قبيلته من الهلاك. التضحية بالمال تدخل ايضاً في دائرة الألم. وهل هناك ألم يعادل الفقدان الفجائي لمال أفنى الانسان العمر في جمعه واقتنائه؟

الشفاء في الألم! المجد للألم!

جسمه يحترق بالحمى. انفتح الباب الصدئ، وصاح السجان الزنجي البدين باسمه. ردده ثلاث مرات قبل ان يتطوع عياش الدوس ويجيب بعبارة مقتضبة:

- إنه محموم. الا ترى انه محموم؟

تناثر الزبد حول شفتي السجان وهو يندفع:

- محموم أم يتمارض؟ هذا يتطلب رجولة تختلف عن التآمر في الغابة هيا انهض يا فالح!

اقترب من آيس المسجى على ارضية الاسمنت مسنداً ظهره الى الجدار فقفز الدوس وحال بينهما. قال وهو يرتعد:

- إياك أن تلمسه! لا تقترب!

تردد السجان لحظات وهو يضع يديه في خصره ويسدد نحو عياش نظرة غاضبة تحولت تدريجياً الى ابتسامة شريرة ساخرة:

- ما هذا؟ هل تواصلون التمرد حتى داخل السجن؟ هل تعتقدون أنكم بين اقرانكم البلهاء الذين قمتم باستغلال سذاجتهم وحداثة عهدهم بالمدارس وسخرتموهم للعصيان والتخريب؟

دفعه بعنف فترنح الدوس وارتطم بجسد آيس وأسنده الى الجدار. غمغم الزنجي بوحشية:

- هنا سنعلمكم كيف يكون النظام. هنا يسود قانون آخر! قانون الحكومة! قانوننا نحن يا مخرب!

هوى بقبضته على الدوس فتلقاها عياش بيده المربوطة. اشتبكا في عراك غير

متكافىء فتدخل زيد لفصل النزاع.

هرع عساكر البوليس واقتحم ثلاثة أفراد الزنزانة. سحبوا زميلهم بعد ان اشبعوا الجماعة ركلاً وضرباً. احكموا اغلاق باب الحديد خلفهم ثم عاد الباب وانفتح بعد لحظات قليلة واطل منه ضابط برتبة ملازم: نحيف، اشيب الفوذين. تفقدهم بنظرة عامة وهزّ رأسه مرات وفي عينيه تأنيب وغضب.

بصق الدوس الدم على الجدار فقال آيس وهو يقاوم الآلام:

ـ وحوش. انهم وحوش. هل يمكن ان يكون هؤلاء ليبيين؟

انهار زيد على الاسمنت. قال:

ـ لا يعدم وجود الوحوش بين الليبيين ايضاً.

ـ انهم اقسى من الطليان. جدّي حدثني فقال أن الطليان لم يسيئوا معاملته عندما وقع في الأسر.

ـ الرجولة زالت مع الاجيال الزائلة. زالت مع الأجداد الاوائل اما جيلنا فيتقن النذالة. يعرف كيف يكسر فم من يتفوه بكلمة أو رأي ويزج به في السجن ويلحقه الى هناك ليكتم انفاسه وهو على فراش المرض.

قال زيد:

ـ هذه قوانين الحرب. اذا وقع المقاتل الشجاع في الأسر عامله العدو بالتي هي أحسن. الطليان اعداء ولكنهم يراعون قوانين الحرب. اما نحن فنعامل بعضنا كالوحوش. اذا وقع احدنا في قبضة الطرف الآخر رأى الويل.

في الخارج، عبر الممر المظلم، سمع صوت السجّان يتوعد: «العصاة. سأعرف كيف أؤدب هؤلاء الشيوعيين الاوباش!».

تمتم عياش وهو يقتعد الارض:

ـ كانوا ينوون ان تنال «نصيبك». يريدون ان يذيقوك بعض «التمارين التأديبية» التي ابتكروها خصيصاً لردع «العصاة». نحن نلنا نصيبنا أمس.

بصق خلفه وواصل :

ـ قرأت ان روح القسوة تشتد في الحروب الاهلية وتفوق في شراستها الروح التي يتعامل بها الاعداء . الحرب الأهلية قاسية لأن القانون الذي يحكم الحروب يغيب في النزاعات الاهلية .

هتف زيد :

ـ وهل نحن في حرب أهلية؟

ضج الممر المظلم بخطوات أحذية البوليس. كانوا يتمشون بعصبية في الممر .

قال الدوس ردّاً على تساؤل زيد :

ـ نحن في شيء أشبه بذلك. لا أسرى. لا هدنة. لا رحمة.

هدأ ضجيج العقب الحديدية في الممر .

تضاءل بصيص الضوء المتدفق من النافذة في أعلى الزنزانة حتى اختفى تماماً فعمّت العتمة .

حلّ المساء .

# 4 ـ الجدّ

واصل الشيخ طريقه عبر الوادي. يمشي بمحاذاة الطريق العام أحيانا ويأوي احياناً أخرى الى أحراش النخيل المجاورة.

انقضى اليوم الثالث ولم يسعفه الحظ بسيارة واحدة متجهة إلى عاصمة الواحات. كالعادة، يروق للقدر أن يسخر ويداعب ويعبث. اذا بحثت عن سيارة مدّ يده وسحبها بعيداً. علّمته الصحراء ألا ينتظر الهبات والعطايا. وحمد الله الآن على أن الدنيا شتاء والفصل يروض الشمس ويكبح نهمها الصيفي في تعذيب الكائنات. ولو لم يكن الفصل شتاء لما استطاع ان يقطع هذه المسافة مشيا على الاقدام.

لو كان مهمدو حياً لما صدّق أبداً أن الشيخوخة سمحت له بأن يقطع هذه المسافة. الحق أنه لم يكن ليثق بقدرته على قطعها لو فعل ذلك حتى تنفيذا لرهان. ولكن الأمل في العثور على سيارة عابرة شجّعه على المضي. للأمل مفعول السحر. الأمل قهر الشيخوخة. الأرق ساعد أيضا. فاستغل تلك الساعات الليلية التي تعود أن يعاند فيها هذا العدو. ليس الأرق وحده علامة الشيخوخة. كما يؤكد مهمدو. ولكن الوجوم. الوجوم الذي يهجم فجأة ويختطفه ليعبر به حدود الزمان والمكان ليدخل الى مدنه. لا يعرف كيف فات مهمدو. الذي لا يفوته شيء في العادة. علاقة هذا المرض بالشيخوخة. يذكر الآن جيدا جلستهما في مدخل المغارة عندما قال له مازحاً إن الأرق أهم علامات هذا الداء الذي لا دواء له. له دواء واحد هو الاستعداد لاستقبال الموت. ولكن مهمدو الحكيم أغفل الوجوم. كيف فاته أمر الوجوم وهو أهم من كل العلامات التي تصاحب المرض؟ كيف أسقط الغياب

الجميل من الحساب؟ يا ترى.. هل الموت أيضاً يعادل هذا الغياب في جماله؟ كيف غاب عن العرّاف أمر يُرفع فيه الحجاب ويغيب فيه المرء في رحلة الى ما وراء الغيب؟ أليس لذلك علاقة بالعرافين؟ كثيراً ما وجّه لنفسه هذا السؤال في خلوته. وكثيراً ما تحسّر على فراق صديقه القديم. أما الآن فهو وحيد وغريب ومتعب. ليس الأرق العلامة الاولى لحلول الشيخوخة. العلامة الاولى هي الشعور بالعزلة. الانسان العجوز وحيد وغريب، خاصة اذا وجد نفسه فجأة بلا اصدقاء وبلا أقران. فاذا غابوا وجد نفسه وحيداً في صحراء معزولة. وما عليه الا أن يعود الى قوقعته وينتظر أسراب الذباب التي تستجيب لها طوابير النمل على الأرض.

يروق للشيخ آهر أن يسأله بعد كل عودة من الغياب العجيب: «خير ان شاء الله يا شيخنا. الى أين وصلت في رحلتك؟ حاورناك كثيراً فلم تعرنا انتباهاً». واعتاد آهر أيضاً أن يرمق الحاضرين بنظرة ذات معنى قبل أن يشرع في تبرير تهجمه الخفي: «حدثني فقيه في توات فقال إن الانسان الوحيد يرى ما لا يراه الناس، ويسمع ما لا يسمعه الناس. وأكد أن معشر الجن - حفظنا الله من شرها - تطمئن الى الانطوائيين أكثر من غيرهم. تتسامر معهم وتسلّي وحدتهم. واضاف أن ليس بالضرورة ان يكون الانسان درويشاً اذا ضُبط متلبساً بالتحدث الى نفسه بصوت عال. كله بسبب الوحدة كما ترى يا شيخنا. أشعر في السنوات الاخيرة أنك وحيد حتى وأنت تجالسنا».

احتجبت الشمس خلف غلاف من السحب الخاوية. جلس على الرملة ويمم شطر تلال قصيرة القامة تنتشر على امتداد الخلاء المطل على جوهرة الواحات. شرع يتمتع بطقوس الغروب. ساد العراء صمت عميق. أشعة الشمس الذهبية تتدفق الآن فوق البيداء، وتمتد لتربّت على قمم التلال الرملية بحنان امومي. اختفى نصف القرص وانشطر الى نصفين، ولكن الاشعاعات العطوفة استمرت تداعب رأس المرتفعات الرملية.

يمنح السكون قداسة لهذه اللحظة.

هذه هي اللحظة الوحيدة التي تتخلى فيها الشمس عن قسوتها الأبدية وتركع للمكتوب. لحظة الغروب تنزع عنها كبرياءها فتبدو حزينة بائسة ككل الكائنات. الغروب يجردها من سلاحها.

نادرة تلك اللحظات التي تغرب فيها الشمس وهي ما تزال نهمة، صارمة، تعد بالعقاب والنار. وحتى في تلك اللحظات (من أيام الصيف القائظ) فإن غروبها يظل مشوباً بمسحة ندم!

يروق له دائماً أن يراقبها وهي تمارس طقوس الندم كما تفعل الآن. ويرى في ذلك دليلاً على حتميّة التسليم في النهاية. كل شيء يستسلم في النهاية.

القوة والتمرد والشباب. كل شيء ينتهي الى الشيخوخة. هذه اللحظة هي شيخوخة الشمس في رحلتها اليومية الخالدة. الشيخوخة تهزم الشمس وتفرض عليها أن تركع مثل بقية المخلوقات. اذا كانت الهزيمة مكتوبة حتى على الشمس الطاغية فماذا يقال عن الانسان البائس؟ بأي حق يكفر ويتكبر ويتجبر ويعتقد أنه خالد؟ ولماذا يستنكر أن تزحف الشيخوخة وتضع الحد العادل لطموحاته الباطلة؟ نعم. انها حل عادل. وعليه أن يتآلف ويستسلم للصمت والوجوم. ينتظر عجلة الجن عندما تأتي، تسبقها أسراب الذباب وطوابير النمل، لتقلّه في تلك الرحلة العجيبة الى بلاد المجهول. الانسان جاء الى الدنيا وحيداً، بائساً، عارياً، من قوقعة الأم، ويغادرها وحيداً، بائساً، عارياً، الى قوقعة القبر. فلماذا يستنكر الشيخ آهر في تلميحاته وايحاءاته أن يتقوقع داخل نفسه طالما كانت الوحدة مصير الانسان سواء عند الأزل وسواء عند الزوال؟ لماذا يريد هذا الغشيم أن يحرمه من متعة تفقد بلاد الله حتى لو كانت من صنع الجن؟

أسلمت الشعاعات الذهبية أنفاسها الأخيرة وبقي يراقب عبادات الطبيعة وصلواتها في خشوع. بعد لحظات نهض ليؤدي صلاة المغرب.

لم يلحظ أنوار القلعة إلا بعد هجوم الظلام.

في افق الخلاء تلامعت الاضواء وهب نسيم المساء البارد.

آثر أن يقضي ليلته في فضاء الرملة على أن يبكر في دخول الجوهرة مع الصباح. دخلها مع الشروق واتجه مباشرة الى قصر المحافظة الذي تعلو قمّته قبة ذهبية. مقر المحافظة أحدث بناء في الجوهرة. رصد له الوالي المرحوم اموالاً سخيّة وأنفق على انجازه نصف ميزانية الولاية السنوية حتى أن شائعات ترددت بين الاهالي تفيد بأن الوالي تعرض لنقد الحكومة المركزية في طرابلس وتلقى توبيخاً ملطفاً من الذات الملكية نفسها قبل أن يقضي الله الأمر ويأخذه الى جواره بشهور

قليلة.

ويشاء الحظ ألا يتمتع الوالي بقصره المهيب يوماً واحداً فكان من نصيب ابن أخيه الذي انتقلت له الولاية مع القصر ومع بقية السلطات التي تحولت بعد الغاء النظام الولائي الى يد المحافظ اليافع. وها هي القبة الذهبية التي نسجت حولها الاساطير وكلّفت أموال قارون تلمع تحت شعاعات الشمس الصباحية دون أن يوحي شكلها أنها تنعي بانيها المغبون الذي لم يبخل بالجهد والمال بل وضحّى بسمعته في سبيل تشييدها لتكون رمزاً لعظمة ولايته. ها هي تقف الآن شهادة لفناء الانسان وبطلان محاولاته الطفولية في الخلود. جلس على دكة خشبية في الحديقة الانيقة المرسومة في الفناء المواجه للقصر. راقب وجوه المارة: موظفون وطلبة وباعة جوالون وتجار. وجوههم متجهمة، شاحبة. يهرعون الى الدوائر الرسمية، والمدارس والدكاكين المنتشرة على طول الطريق الرئيسي الصاعد باتجاه قلعة القارة المكابرة. بعضهم يسرع مترجلاً وآخرون يمرقون بالسيارات والبعض يركب الدراجات الهوائية. ولكن ملامحهم تفضح توتراً مكبوتاً وكآبة لم يعهدها فيهم في زياراته الماضية. لا شك أن الأحداث الأخيرة أربكتهم وتركت في نفوسهم أثراً.

نهض فجأة واتجه الى رئاسة البوليس. قرر أن يؤجل مقابلته للمحافظ ويجس النبض عند الحكمدار أولاً.

في ممرات الحكمدارية الطويلة ينطلق العساكر في حركة دؤوبة، متوترة، يحملون الملفات والاوراق بين المكاتب ويخرقون الصمت بضجيج أحذيتهم الثقيلة وهي ترتطم بإسمنت الممرات الذي تعلوه حبيبات الحصى والغبار.

الصمت يخفي قلقاً تنطق به عيون العساكر وتصرفاتهم وحركاتهم وطريقة معاملتهم. الحكمدار أيضاً متوتر وشاحب. استقبله في باب مكتبه وحاول جاهداً أن يخفي بابتسامته توتّراً مكبوتاً.

الحكمدار في منتصف العقد الخامس. مكتنز. متوسط القامة. يغزو الشيب المبكر شعر رأسه وفوذيه بل ويتسلل حتى الى شنبه الخفيف. الشيخ غوما لاحظ بدهشة أن الشعر الابيض يغزو يديه ايضاً. قال في نفسه ان شيب الرجل وراثي. إنه وراثي. فلم يبلغ الرجل عمراً يستحق هذه الغزوة الشاملة من الشيب.

ظلت ابتسامته الخجولة، المترددة، البلهاء، مرسومة على شفتيه وهو يغدق على الشيخ بعبارات الترحيب. استطاع ان يسأله حتى عن الشيخين آهر وخليل اللذين تعرف اليهما اثناء زيارتهم للوالي في السنوات الماضية. كلفه الوالي المرحوم وقتها بالاشراف على راحتهم وتوفير الخدمات والمواصلات. قام بمرافقتهم اثناء تأدية الزيارات الى اعضاء المجلسين التشريعي والتنفيذي. لم يقصّر - وقتها - في شيء. وها هو اليوم يتولى الاشراف على الأمن ويقف على رأس الحكمدارية ولا يتخذ المحافظ قراراً واحداً بشأن الاهالي والواحات الا اذا استشاره وأخذ رأيه في عين الاعتبار. تمتع الحكمدار باحترام الأهالي طوال السنوات الماضية، ولكن الاحداث الاخيرة زعزعت ثقتهم، ووجهت الى شعبيته ضربة موجعة. ربما كان هذا سبباً في ربكته الآن، وربما ساهم سخط الناس في زيادة الشيب حول فوذيه ويديه وحتى رموش عينيه. دهش الشيخ غوما أكثر عندما لاحظ ان رموش الحكمدار ايضاً بيضاء!

في النهاية سحب الحكمدار ابتسامته البلهاء وتجهم عندما جاء ذكر آيس. نهض من كرسيه وتمشى في مكتبه الكبير وقال وقد تغيرت لهجته الودية وكذلك نبرات صوته:

- الحق اننا لم نتوقع ابداً ان يكون حفيد المجاهد الكبير الشيخ غوما داعية للتمرد ومنظماً للمظاهرات...

- ....

- حقاً ما يقال: ان النار تخلّف الرماد. لا يبقى من النار الا الرماد.

- النار تخلف الجمر، والجمر هو الذي يخلف الرماد يا سي الحكمدار. لا تنس ان والده استشهد في معركة محروقة.

- حاشا الله أن أنسى. مات بين يديك. المرحوم الوالي حكى لي القصة كاملة. ما يدهشني أنه لم يحترم رفات ابيه الذي سقط دفاعاً عن الوطن. وها هو يخطط مع اصدقاء السوء في الظلام ويتآمر على الوطن. نفس الوطن الذي استشهد والده دفاعاً عنه.

- الطيش. الطيش وأصدقاء السوء كما قلت. علينا أن نسمي الأشياء

بأسمائها اذا قررنا ان ننصف الآخرين.

ـ من اين جاء بروح التمرد وهو الذي تربى بين يديك؟

ـ تربى بين يدي في الماضي وهو في القسم الداخلي منذ أعوام بين يدي الحكومة.

خطر له ان يضيف: «وعاش في بيت باتا ايضاً في الماضي»، ولكنه ابتلع الجملة في آخر لحظة.

جاء النادل يحمل طبقاً نحاسياً مطفأ اللون. قدّم لهما كوبين من القهوة ووقف ينتظر في الزاوية. النادل شيخ طاعن ولكن حركاته تنم عن حيوية لا تتناسب مع التجاعيد العميقة التي تنتشر على وجهه وجبينه والجزء البارز من رقبته. يرتدي اللباس المدني في حين تفضح نظرته المنكسرة في حضرة الحكمدار تقديساً واضحاً للرتبة العسكرية واحتراماً للرئاسة والمنصب. لا شك انه عريف او نائب عريف متقاعد. نظرته تنطق بخبرة طويلة في المجال العسكري.

تكلم الشيخ قبل ان يرشف من القهوة:

ـ ثم ان التمرد تهمة خطيرة لا تتناسب مع مطالب الطلبة في طرد القواعد الاجنبية.

رمقه الحكمدار بفضول. ثم قفز الشك ورفع حاجبيه متسائلاً:

ـ أرى ان شيخنا يرى رأياً آخر. أم أني لست على صواب يا ترى؟

ـ لا أرى أي رأي. ما زلت أسمع من طرف واحد. وتلاحق الاحداث لم يمهلني في وادي الآجال، حتى اني قطعت المسافة إلى هنا مشياً.

مضت لحظة صمت قبل أن يتساءل الحكمدار مندهشاً:

ـ على قدميك؟

ـ نعم.

ـ يا رسول الله. ولماذا لم تعطنا خبراً؟ كنت ارسلت لك باللاندروفر. كنت

سأبعث في طلبك عاجلاً أم آجلاً. تلاحق الاحداث كما قلت اربكنا ايضاً. ولكن أؤكد لك أن في نيتي أن أرسل في طلبك لأبحث أمر الحفيد. وها هو مجيئك يوفر عليّ الوقت والجهد وإن كلّفك كل هذا التعب.

هجم على القهوة ورشف منها مرتين متتاليتين. فتح ملفاً أحمر الغلاف وقلّب الاوراق ساهماً:

ـ دعنا من التمرد. دعنا من التآمر ضد نظام الحكم. ما رأيك في الشيوعية؟ هل تنفي ان حفيدك عضو في تنظيم الشيوعية الهدّامة؟

ـ الشيوعية؟

ـ نعم. نعم. يؤسفني أن أقولها بالفم المليان. هكذا.. الـ..

ـ وما معنى الشيوعية؟ إني لا أفهم.

ـ مذهب هدّام يشجع على التمرد ويبيح الإباحية والارهاب ويدعو الى الزندقة والكفر بالواحد الأحد.

ـ يا حفيظ!

ـ .. يبيح حتى معاشرة الأخ لأخته والابن لـ...

ـ أعوذ بالله من الشيطان. اللهم أجرنا.

ـ .. اللهم أجرنا جميعاً.

أحكم الشيخ لثامه حول وجهه بحركة مفاجئة ورمق كوب القهوة. تذكّر إنه صائم منذ ثلاثة أيام ولكنه لا يحس بالجوع. التفت نحو الحكمدار وسأل بهدوء:

ـ وهل تعتقد أنّ بوسع آيس أن يعتنق مذهباً همجياً كهذا؟

ـ ما حصل حصل والواقع هو الواقع. الوثائق والتقارير التي أمامي تؤكد ذلك.

استند بيديه على الطاولة وهم بالوقوف عندما وقع بصره على النادل الكهل الذي يقف في الزاوية في خشوع ينتظر امراً ما. أمر بالخروج او بتأدية خدمة ما. أومأ له الحكمدار بحركة من رأسه فتحرك المسكين نحو الباب. عاد الحكمدار

وجلس خلف الطاولة.

انتهز غوما الفرصة فقرر الهجوم:

- برغم ذلك فلا شيء يبرر الوحشية. لم أتوقع في يوم من الأيام أن تبلغ القسوة بالليبيين كي يريقوا دماء الفتيان ثم يلاحقوا الجرحى في السجون.

لاذ بالصمت ثم واصل:

- بلغني أن آيس وزملاءه تعرضوا للضرب داخل الحبس فهل هذا صحيح؟

التفت نحو الحكمدار وحدّق في عينيه لأول مرة. مرت لحظات صمت على المواجهة. عادت الابتسامة البلهاء تعلو ملامح الحكمدار. كان يداري خجلاً. قال غوما في نفسه: «طالما يداري خجله فما زالت فيه بقية من نبل قديم» فقرر أن يستمر في محاورته. في لحظة من اللحظات خيّل له أنّه أخطأ الطريق. اخطأ في اللجوء الى الحكمدار مباشرة قبل أن يطرق باب المحافظ. المحافظ وريث الوالي المرحوم وهو مؤهل أكثر من غيره لأن يفهم الوضع. يملك سلطة القرار وفي إمكانه التأثير على الجميع. ولكن الابتسامة البلهاء أعادت له الثقة في نفسه فقرر أن يواصل الهجوم.

- حتى الطليان لم يفعلوا بنا ذلك فكيف يتجاسر رجال مسلحون على أن يطلقوا النار على حفنة من الفتية الطائشين بدعوى أنهم يهددون الحكومة؟ أي حكومة هذه التي تخشى على نفسها من الصبية؟

نهض الحكمدار ليتمشى في صالة المكتب دون أن يخفي عصبيته وخجله فلاحقه غوما:

- لا شيء يمكن ان يبرر سفك الدم.

سحب نفساً عميقاً ثم اعلن كلمته الاخيرة:

- إني أرثي لحالكم. أشعر بالخجل نيابة عنكم. عليك ان تعلم أني لم اقطع هذه المسافة من وادي الآجال حتى هنا كي انقذ حفيدي فقط ولكني جئت كي أقف على الأمر. ويؤسفني يا حضرة الحكمدار ان اقول انكم سفّهتم كل عملنا في الماضي. لم نبخل بشيء عندما قاومنا الغزاة ونحن عراة وحفاة وجوعى وأيادينا عزلاء من

السلاح. قُتل من قُتل وجُرح من جُرح، وأسر من أُسر ونجا من نجا ولكنا لم نفعل كل ذلك كي تأتوا اليوم لتطلقوا النار على أولادنا واحفادنا. فهل يؤلمك ما اقول؟ هل يؤلمك الحق يا سي الحكمدار؟

تمتم الحكمدار:

ـ ولكنك لم تنكر عليهم ورطتهم. لقد اعترفت منذ قليل ووصفتهم بالطيش.

ـ هل تحصي عليَّ زلل اللسان يا سي الحكمدار؟ هل تتصيدني في اللغة؟ لقد قلت ذلك من باب المجاملة اذا كنت تريد ان تعرف. نعم. من باب المجاملة.

ملأ رئتيه بالهواء قبل ان يقول:

ـ اسمعني يا سي الحكمدار. اريدك ان تسمعني. لم آت للمشاحنة، ولم اقطع وادي الآجال مشياً للمجادلة. أستطيع ان افهم موقفك دون ان اضطر لتبرير سفك الدماء. وانت لا تستطيع ان تقنعني بأن المطالبة بجلاء الاجنبي هو خيانة وتمرد وشغب. انا عجوز ومريض. نعم. الاعتراف بالحق فضيلة. إني أعاني العجز وأتفرغ للعناية بمرضي منذ سنوات. وصحتي تتردّى يوماً عن آخر. ولولا ذلك لما ترددت لحظة واحدة لأعلن رأيي في عملكم بكل صراحة..

تابع الحكمدار الانفعالات في عيني الشيخ وفي وجنتيه البارزتين من خلف اللثام. تابعها بفضول ثم تساءل تلقائيا:

ـ ماذا تقصد يا حضرة الشيخ؟ اقصد كيف تريد ان تعبر لنا عن هذا الرأي؟

التفت الشيخ وحدّق في وجه الحكمدار. اقترب بوجهه من وجهه وقال بهدوء دون ان تتغير نبرة صوته:

ـ وكيف سأعبر عن ذلك؟ سأرفع السلاح..

ساد صمت مشحون. اضاف:

ـ عندما يختلف الرجال فلا بد ان يحتكموا الى السلاح. هذا أقدم تقليد في الصحراء الكبرى.

انتفض الحكمدار:

ـ هل تهددنا يا سي الشيخ؟ هل جئت كي تهددني؟

ولكن غوما استمر دون ان ينتبه لتساؤلات الحكمدار:

ـ النساء فقط تفض العراك بالسِّباب. الرجال لا بد ان يحتكموا الى السلاح اذا شاؤوا ان يقنعوا بعضهم بعضاً، خاصة عندما يبلغ الخلاف حد التنابز بالألقاب كما تفعل الآن يا سي الحكمدار.

ثار الرجل. نهض واقفاً:

ـ أنا لم أتنابز بالألقاب. التنابز لم يكن من شيمي في يوم من الأيام. انت الذي هددتني. تريد استفزازي. نعم. سمعت كثيراً عن براعتك في الاستفزاز..

ولكن الشيخ غوما خرج وتركه واقفاً. عاد الى مأواه في الخلاء الرملي المواجه للقلعة العثمانية.

تربع على الارض تحت أثلة هرمة وراقب التجاعيد البديعة التي برعت الطبيعة في رسمها على وجه الرملة.

مال قرص الشمس نحو الأفول فجاءت لحظة الاستشهاد المشحونة بالقداسة والكآبة معاً. غرق القرص الذهبي في غلالة شفافة من سحب هلامية قبل ان يركع ويلثم حافة الأفق الرملي البعيد. خُيِّل له ان القرص تعطّل طويلاً في ملامسته حافة الأفق على غير عادته. ثم تسلل ببطء وانحدر وراء التلة الرميلة. حلّ الغياب. ظل الشفق مزوقاً باللون الارجواني. اللحظة التي تعقب الغياب تعمق الشعور بالرهبة وتثير مزيداً من القداسة والحزن. ثم...

انفتحت ابواب السماء واقبلت سحب الذباب. تراكض جيش النمل ودب على الارض. غاب في الغيب حتى رأى البوابة المهيبة التي أعدت من نور. انفتحت أمامه فدخل..

عندما عاد حمد الله على ان النوبة لم تهاجمه هناك، بين المسؤولين. لو حدث ذلك لوجدوها فرصة للطعن في قواه العقلية. في الليل تهيأ لمعاندة الأرق.

استلقى على الرمال التي دبت فيها البرودة مع توغل الليل. هبت نسمة شمالية رطبة وأطل قمر باهت، شاحب النور. عمّ السكون الذي يهمس بسرّ

الوجود وينطق بحكمة خفية. سكون الصحراء، يزيده الليل المقمر سرّاً وسحراً وعمقاً.

لا يدري كم مضى من الوقت قبل ان يسمع هدير السيارة وتعميه الاضواء المبهرة. طردت بضجيج محركها القداسة في هدوء الصحراء وانتزعت اضواؤها الشيطانية السحر في الليل الوديع.

نزل الشيخ آهر وتبادل حديثاً قصيراً مع السائق. انطلقت السيارة بعدها مخلفة رائحة البنزين. استنشق الغبار الممزوج برائحة البنزين. حصّن أنفه بلثامه واعتدل في جلسته. آهر لم يتحدث عن الطقس ولم يأت على ذكر الطبيعة. اطلق تحية مقتضبة وأخرج من كمّه جراباً جلدياً مطرزاً بعناية (استطاع ان يتبيّن النقوش على ضوء القمر) أخرج قطعة من التمر المعجون ووعاء شاي وكأساً زجاجياً وصرّة صغيرة أفرغ محتواها في وعاء الشاي وعبأه بالماء من غالون متوسط الحجم، مشدود بقماط من قماش الخيش. ظل يراقب الشيخ من طرف عمامته الرمادية، دون ان ينطق باللوم او يخوض في مزاج الصحراء. نهض وسرح في الخلاء بحثاً عن الحطب. لم يكن العثور على الحطب في تلك الرقعة الرملية سهلاً، الشيخ يعرف ذلك فلم ينتظر ان يعود آهر في الوقت القريب. استلقى على قفاه على الرمال الحريرية وتابع السماء المغمورة بشعاع القمر. أنصت للسكون.

لا يدري كم مضى من الوقت عندما عاد آهر بأعواد السرو. تنازل عن الكبرياء وتكلم لأول مرة:

- يبدو أن غرابة اطوارك في السنوات الاخيرة أنستك أن تتزوّد برحيق الحياة.

لم يعلق غوما فاستمر آهر:

- كيف استطعت ان تصبر على الشاي؟

- الشيخوخة. السر في الشيخوخة. أن تصبر وتنسى، تصوم وتعزف عن العادات. تقلع عن الادمان. هذا يجعلني أقلع حتى عن الشاي؟

- لا اصدق. هذا لا يُصدّق.

- صدّق أو لا تصدّق. مضت عدة أيام عن آخر مرة تناولت فيها كأساً. منذ

ثلاثة أيام. عند آجّار.

ـ هذا لا يُصدّق. الشيخ غوما يقلع عن الشاي. هذا خلل في الطبيعة. تتمخض الطبيعة عن معجزة.

ـ لا تدمن حتى على مخدع زوجتك. هذا مبدأ المرحوم آخوّاد. هذا مبدأ الصحراء. الرجل النبيل يتحرر من كل قيد.

ـ كل انسان هو عبد لشيء ما. الآلهة والملائكة فقط منزّهون عن الضعف والعبوديّة.

ـ لا اخفي عليك؛ طوال السنوات الماضية كنت اعاند الادمان وأجاهد للتخلص من العادة.

دهش آهر. توقف عن تحطيم اعواد الحطب وتساءل:

ـ حقاً؟

ـ هذا سرّي. بدأت أجرّب في الواحة. وأخفيت الأمر حتى عن مهمدو. ولكنه بدأ يحدس. هذا الشيطان لا تخفى عليه خافية. ماذا اقول: من يمكنه أن يعرف غير العرّاف؟

ـ ولكنه لم يخبرني بذلك أبداً.

ـ ومتى كان يخبر أحداً بما يعرف. قرأت في عينيه أنه يعرف وكفى.

ـ ...

ـ للشيخوخة أحكامها. العجز يصيب الجسد ولكن الخبرة تعطي الروح المقاومة.

ـ صحتك جيدة ولا أرى ان العجز يهددك فلا تبالغ.

ـ هذه تعزية موفقة.

ـ حاشا الله. لديّ الدليل الذي لا يأتيه الباطل. قطعت وادي الآجال مشياً على الأقدام فتفوقت على الشباب...

ـ فعلت ذلك مضطراً. لم يكن في نيتي أن افعل. مشيت على أمل العثور على السيارات العابرة.

ـ العبرة بالنتيجة.

حشرجت النار في الحطب الاخضر وأربكت ضوء القمر. تمتم غوما:

ـ أنفاس اخيرة. إنها الأنفاس الاخيرة. يقال إن الموت ايضاً يعطي راحة. قبل ان تجهز على المريض تتراجع حتى يظن أهل المريض أن مريضهم قد فاز بالشفاء فتهجم وتضرب ضربتها الأخيرة الشيخوخة منحتني مهلة فلا توهمني بالبطولة.

انهمك آهر في الاعتناء بعدّة الشاي. علّق بحزن:

ـ لم أقل سوى الحق وصحتك على أحسن حال.

ولكن غوما مضى بعيداً كأنه يواصل حديثاً آخر بدأه مع نفسه اثناء وحدته:

ـ .. هي سيئة في اشياء ولكنها حسنة في شيء واحد: تمنح الزهد في متاع الدنيا.

رمقه آهر ولاذ بالصمت.

غوما استمر:

ـ ساعدتني في التنازل عن الملذات كالشاي الاخضر وها أنا على استعداد للتنازل عن المشيخة.

رفع آهر رأسه المتوج بالعمامة الرمادية واستمر يتشبث بالصمت.

ـ من زمان وأنا انتظر الفرصة كي أبوح لك بقراري..

ـ ...

ـ يجب ان تتولّى المشيخة.

ـ ماذا تقول يا شيخنا؟ البركة فيك. لم تسمح تقاليدنا في الماضي ان نستلم حكماً يتقلده انسان ما زال على قيد الحياة.

ـ لا انكر ان هذا تقليد نبيل ولا أريد أن اطعن في حكمته ايضاً ولكن مرضي يتفاقم ولا يمر يوم دون ان تنتابني نوبة غياب.

ـ حاشا الله.

ـ للشيخوخة أحكامها.

ساد الهدوء. استمرت ألسنة النار تطحن أعواد السرو الخضراء وتطلق فرقعة تخدش حياء السكون قال الشيخ:

ـ لا اطلب إلاّ السكينة.

ـ تتحدث عن الشيخوخة كأنك بلغت المائة.

قال بنبرة حزينة ادهشت الشيخ آهر:

ـ لم أبلغ المائة ولكني اشعر بالتعب. هل يخجل المرء في أن يعترف بالتّعب؟

ـ لا أرى مبرراً لليأس.

ـ لا اتهيأ للدخول في معركة حتى أيأس. لست يائساً ولكني أريد ان اجنح الى السلم. ألا ترى أني اقترب من نهاية المطاف؟

ـ البركة فيك. هذه لهجة لا تليق.

ـ ولماذا لا تليق؟ الاعتراف بالحق رجولة وفضيلة. اذا استبد الأرق واضطر المرء ان يقلع عن الإدمان وزحف الذباب واقتحمت الأشباح وحدته فهذه علامة على ان الغروب قريب.

ـ أستغفر الله. الأعمار بيد الله.

ـ ولكن لكل شيء علامة. لكل نهاية علامة. لماذا ننكر المكتوب على جبين المخلوق منذ المهد؟ احمد الله الذي امهلني فعشت حياتي. تمتعت بالعافية. الصحة مكافأة الأخيار. وقد عرفت الان ان الله كان رحيماً بي عندما قلّدني ذلك الوسام النفيس طوال حياتي الماضية.

ـ نعم. الصحة وحدها متعة لا تقارن بشيء.

ـ لا تقارن الا بالحرية. من الإنصاف ألاّ نغفل دور الصحراء. هي وليّة نعمتنا في الحرية وفي العافيّة.

أنصت لعراك النار وهي تفتت الاعواد الخضراء. غمغم:

ـ الصحراء رحيمة برغم ما يقوله الأغراب عن قسوتها وغدرها.

ـ يقصون الاساطير عن قسوتها لأنهم يجهلون أخلاقها.

امتدت يده ودفعت بالاعواد المحترقة حتى منتصفها في قلب الجحيم.

بدأ آهر يخلط السائل السحري بين وعائين فتناثر رذاذ الرغوة حول النار ووقع على الجمر.

أنصت لأزيز سيارة تعبر البرية متجهة الى وادي الآجال. ثم عاد السكون. تناول غوما كأس الشاي الاخضر المتوج بطربوش جليل من الرغوة. لم يرشف من الكأس. وضعها بجوار النار. قال:

ـ يرجع لها الفضل في ان أعادتني الى صوابي. طوال سنوات العطش كنت ابحث عن شيء يلمع كالسراب في الأفق اكتشفت اني كنت اهرب من نفسي.

ابتسم بمرارة واضاف وهو يدق على صدره بقبضة يده:

ـ كنت مغفلاً فظننت أنّ بالامكان أن يوجد شيء خارج هذه الجدران.

لم يعلق آهر فاضطر ان يضع الاستنتاج:

ـ لا يوجد شيء خارج هذه الجدران. تعيش مائة عام من الشقاء والبحث لتعود الى نفس النقطة التي انطلقت منها. لا يوجد شيء في الصحراء. لا يوجد شيء في الدنيا كلها. كل شيء يقبع داخل هذا القفص اللعين. مهمة الصحراء انها تلمح. كسبنا صداقتها بعد جهد جهيد وعندما تم العناق تخلينا عنها.

ـ ولماذا لا تقول أنها هي التي تخلت عنا بعد ان جفّت ينابيع الماء في جوف الوادي؟

ـ لم تعدنا بالماء ولم تعاهدنا بالسيول في يوم من الأيام. الاعتماد على النفس

أوّل الشروط. هذا شرط الحرية. تريد ان تهيم طليقاً في الصحراء، تتمتع بالحرية ولا تريد ان تعيش مهدداً بالعطش. شبح الموت عطشاً شرط يتوعد كل من يجرؤ على اختيار الصحراء. هي لم تخدعنا، لأنها حذرتنا منذ البداية عندما نادتنا قائلة: «تعال اذا اردت الحرية ولكن عليك ان تتحمّل تَبِعَة الاختيار».

عاد يصغي للصمت ثم غرس مرفقه في الرمل وتنهد بعمق:

- بدأنا بالشيخوخة وها نحن ننتهي بالصحراء. ما زلت أنتظر جوابك على اقتراحي.

- موقفي واضح. قلت لك أن اخلاقنا لا تسمح بتناول المنصب من يد انسان طالما لم يزل يتنفس الهواء.

- ولكني اتنازل طائعاً. أنا عاجز ومريض.

رمق آهر بنظرة غامضة قبل ان يضيف:

- لا تنس إنني أنفذ رغبة المرحومة باتا.

التقت نظراتهما في ضوء القمر لحظات. نكّس آهر رأسه وسارع يعتني بعدّة الشاي. استمر غوما:

- «اجتماع الحظيرة». أتذكر «اجتماع الحظيرة»؟

هز آهر رأسه بالموافقة فواصل غوما:

- كانت هذه رغبتها. لقد رشّحتك وها أنا ذا أنفذ وصيتها طائعاً. لا شك أنها كانت ستفرح كثيراً لو عاشت وشاهدتك شيخاً على القبيلة.

تساءل آهر فجأة:

- قل يا شيخ غوما: هل كنت تحبّها؟

التقت نظراتهما مرة اخرى قبل ان يعترف الشيخ:

- نعم. لا أخجل في أن اعترف. أخفيت ذلك عن الجميع طوال السنوات الماضية، والوحيد الذي اكتشف السر كان مهمدو. هل حدثك مهمدو بسري؟ قل

الحقيقة!

لم يجب آهر. انشغل بخلط الدور الثاني من الشاي فرفع غوما صوته:

ـ قل الحقيقة! أريد أن أعرف من فضح سري؟

ـ سبحان الله. أنت كالطفل. وما الفرق؟ حدست والسلام.

ـ لا. لست أنت الذي حدست. من الذي اخبرك؟ قل لي الآن.

اضطر آهر ان يعترف:

ـ تريد الحق. هو. مهمدو. لم يقل لي بصريح العبارة ولكنه لَمح لي.

كان غوما منفعلاً، أنفاسه تتتابع. قال:

ـ هذا أقرب الى الصواب. تقديراتي لم تخطىء. غشامتك لن تسمح باكتشاف سري دون مساعدة العرّاف. سأنام هانىء البال الليلة. انت غشيم يا شيخ آهر. هىء ـ هىء ـ هىء... منذ زمان وأنا أريد أن أصارحك برأيي فيك. خذه إذن. هذا هو: انت غشيم ولا شيء غير ذلك. هىء ـ هىء... لست مؤهلاً لاكتشاف سري لأنك غشيم. ولولا مساعدة العرّاف لما تجاسرت على ان تحدس.

ـ يا شيخنا هذا لا يجوز.

ـ يجوز. يجوز. لماذا لا يجوز؟ قول الحق جائز دائماً. تتظاهر بالزهد في المشيخة وأنت تتوق لليوم الذي تتربع فيه على رأس القبيلة المسكينة. تعتقد ان المشيخة هي التي خلقت غوما. عليك ان تعرف ان غوما هو الذي صنع المشيخة وليس العكس. انت مسكين ولا أشك في إخلاصك اليوم كما لم أشك فيه طوال السنين الماضية ولكنك غشيم ولعابك يسيل للمشيخة فخذه إنه لك! لا شيء يمكن ان يجبرني على التراجع عن قراري!

ـ يا شيخ غوما.. يا شيخ..

ـ هه ـ هه.. قل إن الشيخ قد جنّ. هيا قل إن الخبل قد سيطر على عقلي. هذا لن يكون في صالحك على اي حال. ربما فاز غيرك بالمشيخة اذا ثبتت خفة عقلي. ها ـ ها.. لا تخف فأنا في كامل قواي العقلية. اني اتنازل لك عنها وأنا في كامل قواي

العقلية. يجدر بك أن تسرع بإحضار الشهود قبل فوات الأوان. هيا. لماذا لا تسارع باحضار الشهود قبل ان يتدخل الجن ويطير البقية الباقية من عقلي؟ ها - ها...

استلقى على قفاه وغرق في ضحكة عصبية انتفض لها آهر. حاول آهر ان ينهض وما لبث ان انهار على الارض. حاول ان يتناول غالون الماء كي يرش رفيقه بالماء لإبعاد الجن ولكن الغالون انكفأ واندلق الماء في النار الخابية فتأوه الجمر وأصدر حشرجة مكتومة. ارتبك آهر تماماً ولم يعرف ماذا يفعل بيديه المرتعدتين. اهتدى في النهاية الى العمامة. انتزع عمامته الرمادية بحركة عنيفة وألقى بها على الارض. ثم تناولها وانكب يلويها على رأسه مرة اخرى ممسكاً طرفها الآخر بأسنانه. همهم وقد بدأت اسنانه تصطك:

- هذا لا يليق. هذا لا يليق...

لاحظ غوما توتره فأحس نحوه بشفقة مفاجئة. قطع ضحكته وقال معتذراً:

- هذه مزحة. هذه دعابة. لماذا تأخذ كل شيء بالجد؟ ألا يحق لنا ان نرفّه عن أنفسنا ونتبادل الدعابات؟ لماذا لا يحق لنا ان نتسلى؟ بوسعك ان تنسى الأمر كله اذا شئت باستثناء الجزء الخاص بالمشيخة. المشيخة تليق بك وأنت أحسن من يصلح لها. لن أتراجع. ستظل شيخاً وقوراً على القبيلة الى يوم الدين. الى الابد.. ما رأيك؟ هه - هه...

عاد الى «الدعابة» ولكن النوبة لم تمهله طويلاً. أغارت اسراب الذباب ودبّت جيوش النمل على الرمل. أقبل نفر من الجن يركبون دوّامة من عجاج واختطفوه الى جوارهم، قادوه الى البوابة السحرية ودخلوا به الى المدن.

في الصباح نهضا قبل الشروق بقليل. أخفيا مشاعرهما بشدّ قناعيهما على وجهيهما ولم يتبادلا كلمة واحدة. انكب آهر يلملم بقايا حطب البارحة ويكومها في الموقد. رأى غوما في مقلتيه الشحوب والسهر والقلق الخفي. ما زالت يداه ترتعدان. أوقد عود الثّقاب بأصابع مرتعشة. استرق نحو غوما نظرة خاطفة قبل ان يقول:

- أنت طفل كبير يا شيخ غوما؟ أنت طفل كبير!

تلقى الشيخ النقد بابتسامة بريئة. ابتسامة طفولية. قال في لهجة مرحة كأنه نسي حديث البارحة نهائياً:

ـ وماذا في ذلك؟ لا أرى في ذلك رذيلة. كل الرجال أطفال كبار. اقصد الرجال الحقيقيين...

من عيني آهر قفز غضب مكتوم:

ـ تتهمني بالطمع في السلطة في الليل وتفرك يديك في الصباح كأن شيئاً لم يكن.

ـ لم يكن حقاً. اتفقنا ان ننسى الجزء الخاص بـ... بماذا؟ اتفقنا ان ننسى كل شيء باستثناء نيتي في ان اتنازل لك عن المشيخة.. لا مفر من هذا الفخ.. وسنرى عما اذا كانت المشيخة سلطة أم مصيدة صنعها ابليس للايقاع بالعباد.. اريد ان اراك يا شيخ آهر وانت تتربع على عرش الحكم قبل أن اتوارى خلف التراب..

ـ بعد عمر طويل إن شاء الله.

ـ بل قريباً. ولكن ليس قبل ان اراك وأنت تعاند عرش ابليس الملعون...

ـ ها نحن نعود الى الاهانات...

ـ لماذا ترى في ذلك إهانات؟ حتى لو افترضنا انها إهانات فهي ليست موجهة لك على اي حال. هي موجهة الى العرش الشيطاني الذي يروق للبشر الاغبياء ان ينفقوا العمر في طلبه بل ويتقاتلوا في سبيله. أم أنك ترى رأياً آخر؟ اضف الى رأيي رأيك ودعنا نتفق بشأن العرش المنشود...

ـ لا أرى رأياً. أنت ادرى. ليس من جرّب كمن رأى. وليس من رأى كمن سمع..

ـ صدقت. هذا ما أردتك ان تقوله. أنا أتكلم لأن النار سبق وأن حرقت أصابعي في محرقة العرش. وأنت سوف تتكلم عندما تتولى العرش وتحرق أصابعك أيضاً. عندها سأستمع اليك باهتمام لأن رأيك سيكتسب الشرعية والحكمة. أما الآن فمن حقي أن أدلي بملاحظاتي مهما كانت قاسية. ومن حقي عليك ان تصغي دون ان ترى في ذلك إهانات موجهة الى شخصك. أليس هذا من حقي؟ هل

تبخلون علي حتى بالإدلاء برأيي؟ ولكنني سأمضي في طريقي الجديد شئتم أم أبيتم. وسأقول رأيي في الجميع. بما في ذلك انت يا شيخ آهر. فما الداعي الى الغضب؟ ألا ترى أني أسلّم بكل شيء، بمقاليد المشيخة وبالدنيا كلها؟ ألا ترى أني أقول كلمتي الاخيرة؟ ألا ترى أني أودّع؟ ألم تلاحظ أني محبوس داخل جدران قوقعتي من زمان؟!

غابت مقلتاه في عتمة مفاجئة. أنصت آهر في دهشة. تابع اعترافه في ذهول. ظلّ صامتاً لحظات حتى بعد ان انتهى الشيخ ثم هرع اليه وركع أمامه:

ـ لا تقل ذلك يا شيخ غوما. لا تكرر ذلك مرة أخرى بالله! لا أنا ولا خليل ولا الأعيان ولا القبيلة يمكن ان تطيق فراقك. العجز لا يهددك أبداً. انت أقوى منّا جميعاً. أنت قطعت وادي الأجال على قدميك منذ يومين. قلقنا عليك ولكني ـ يعلم الله ـ فرحت عندما أخبروني بوصولك الى الجوهرة. لن تهجرنا. سوف نذهب الى الصحراء في رحلة صيد. سنصيد الغزلان ونبحث عن الترفاس ونأكل الكلأ الاخضر. سوف ترى. ربيع واحد في الصحراء سيجعلك قادراً على مصارعة الجن.

ـ هذه تعزية تصلح للأطفال حقاً. لقد رفع الحجاب واتضحت الرؤية. اشكرك على العزاء يا شيخ آهر ولكن يؤسفني ان أقول لك أنها لم تعد تصلح لي لأنها لن تغريني. لن ترشوني حتى بالصحراء. فات الأوان. رُفع الحجاب واتضحت الرؤية. خيال الباطل يتسكع أمامي ليل نهار. الباطل يزورني في مركبة الجن ويرافقني في رحلاتي الى البوابة. يتخبأ في الذباب وفي هيئة نمل كي يستدرجني الى المجهول.

التفت نحو آهر الذي استمر راكعاً يحدق في وجهه بإشفاق. اغتصب ضحكة قصيرة وأضاف:

ـ أراك تشك في قواي العقلية. أرى الشك في عينيك. لماذا تخجل؟ من حقك ان تطعن في قواي العقلية. لم يعد ذلك يهمني كثيراً. قل لهم هناك في القبيلة ان الشيخ غوما بدأ يخرّف. نعم. هذه حيلة موفقة للخلاص. الخلاص من فخ الشيطان الذي سترثه بعدي يا شيخ آهر. ها ـ ها ـ ها...

صمت الشيخ وزمّ شفتيه في امتعاض. عاد آهر للاعتناء بوعاء الشاي الذي يئن فوق النار أنيناً موجعاً محاولاً ان يطلق سراح البخار الحبيس. فضح آهر بحركاته المرتبكة ضيقه. وكي يخفي الضيق التفت الى الجراب ودس فيه التمر

المعجون المغمور بحبيبات الرمل. كانت طبقة الغبار تعلو الجانب السطحي من عجين التمر ولكن آهر لم ينتبه لطبقة الغبار.

غوما لاحظ ذلك وابتسم من وراء قناعه.

# 5 ـ الحكمدار

جرّه آهر الى الفندق القديم الذي أقاما فيه عندما استضافهما الوالي اثناء الزيارة التي انتزعا فيها الوعد بحفر النبع. ظل آهر يلح ويداور حتى اقنعه باللجوء للفندق نزولاً عن رغبة المحافظ. وما ان استقرا داخل الدار المعتمة حتى قال آهر:

ـ اشتكوا لي. قالوا أنك هددتهم برفع السلاح.

رمقه غوما بشك عقّب كأنه يخاطب نفسه:

ـ آه لو كنت قادراً على رفع السلاح. لكنت رفعته في وجوه كثيرة. وجوههم ايضا بالطبع.

ثم بعد لحظة صمت:

ـ انهم جديرون بذلك بعدما فعلوه بالفتية الابرياء.

ـ يعيبون عليك الانحياز الى العصاة. قالوا ان الشيخ غوما لا يتعاطف معهم فحسب وانما يدعمهم. لا اخفي عليك ان ثمة أصواتاً ارتفعت هنا وهناك تنعتك بالتخريف!

ـ هذا ليس غريبا. اقرأ ما تقوله العيون. منذ بدأت الأوهام تحاصرني وأنا أرى في عيون الناس هذه النعوت. ليس هنا فقط ولكن في القبيلة ايضا.

رمقه مرة اخرى واضاف وهو يراقب ردّة الفعل على وجه آهر.

ـ انت تشك في أمري. لا اريدك أن تنفي لأني أعرف.

سحب نفساً عميقاً وقال بألم:

ـ ما أمرّ ان يتهمك الناس بالجنون. عندها ستجن حتى لو كنت اعقل العقلاء. انا على يقين ان ثلاثة ارباع المجانين في الدنيا جنوا بهذا السّبب.

ـ لم اشكّك في عقلك في يوم من الايام.

ـ لم تشكك بالعبارة ولكنك قلت ذلك في نفسك. اتهامك كان باطلاً!

تأمله بفضول ثم طأطأ رأسه. ابتسم وهو يقول:

ـ لا أخفي عليك ان في تلك الرحلة سحراً وحرية!

استفهم آهر بدهشة:

ـ أي رحلة؟

ـ الرحلة التي تعقب أسراب الذباب. أظل ثقيلاً، كسولاً، لصيقاً بالدنيا والارض حتى تغير الاسراب...

ـ أسراب وهمية. الكل يجمع على أنه ذباب وهمي.. خيال.

ـ لا أدري. ربما كان ذباباً وهمياً ولكن هذا لم يمنعني من أن أعترف لك بأن الرحلة مسليّة. إنها تهبني الحرية. هل تتصور ماذا يعني التحرر من كل شيء؟

صمت لحظة. انزل طرف عمامته العلوي على جبينه وهمس كأنه يخاطب نفسه:

ـ حرية من نوع فريد.. لا يوجد مثيلها إلاّ في الموت!

التفت نحو آهر وقال:

ـ هذا سرّي. إيّاك. ها أنا أودعك سرّي الثاني. هذا برهاني على الثقة في من تولى مقاليد القبيلة.

ـ هل أنت جاد؟

ـ كل الجدية. ليس ثمة جدية أكبر من أن أودعك أسراري. أنت الان كبيرنا. شيخ قبيلة امنغساتن. آهر شيخ امنغساتن. اعتقد ان اللقب يليق بالاسم!

ثم وهو يشهر سبابته في وجه آهر مداعباً:

ـ ولكن إياك ان تغتر! من تواضع سدد الله خطاه. الحكمة في التواضع.

قفز الفرح من عيني آهر ولكنه اخفاه خلف قناعه الرمادي. فرح سببه مزاج غوما أم لقب المشيخة المهيب الذي سيتقلده؟ سأل غوما نفسه وابتسم.

مالت الشمس للمغيب.

من الشمال هبت نسمة باردة.

قال آهر:

ـ نسيت أن أخبرك. اطلقوا سراح آيس.

التفت نحوه غوما ولكنه لم يعقّب. أشاح بوجهه ناحية القرص الذهبي الغارب وتعلّق به. ظل واجماً متشبثاً بالصمت. لا يعرف آهر لماذا أحسّ نحوه في تلك اللحظة بشفقة عميقة. ربما لأن جسم الشيخ يحجب عنه أشعة الغروب الساحرة، فيبدو ـ وهو مغمور بفيض الشعاع ـ وحيداً وغريباً وعاجزاً. نعم. استطاع آهر الآن ان يحدد لنفسه السبب بوضوح. غوما العظيم، يبدو الآن، في هذا الوضع، وهو يواجه تدفق شعاعات الغروب، مثل طفل... وحيد ... وغريب... وعاجز. قال آهر لنفسه في قلق: « .. نعم. هو على حق. إنه يودّع ».

بعد قليل أقبل الحكمدار. جاء يلتحف بعباءة رمادية نادرة اللون. لونها نادر مثل عمامة الشيخ آهر. اللون الرمادي نادر في لباس الصحراء الكبرى. تعمد ان يتقدم من الشيخ ويخصه بترحيب حار. ترحيب فهم منه غوما ما يلي: « إنس ما حدث » او ربما: « أعتذر عما حدث... »

بدأت التساؤلات عن الصحة والاحوال. احوال الناس واحوال الطبيعة. لم يفت الحكمدار ان يعرج على مزاج الجو وتقلبات الطقس. قال:

ـ كدنا نتيقن ان قلبه قد رق لحالنا اخيراً. في الاسابيع الماضية تجهم وجه

السماء بالسحب وهطلت القطرات الأولى قلنا إن الخير جاء والدنيا ستسيل بعد كل الانتظار الطويل. ولكن انقشعت السحب و...

أكمل آهر:

- و.. هطلت السماء بالرصاص!

احتقن وجه الحكمدار ودار بعينيه بينهما مرتبكاً. سارع غوما يوجه نظرة استنكار نحو آهر. ظلوا يتحاشون الخوض في المظاهرات طوال الوقت.

قال غوما في نفسه: «هذا بسبب غشامته. هذا دليل آخر على غشامته. سوف تعاني القبيلة من غشامتك يا شيخ آهر!». ثم التفت نحو الحكمدار وحاول ان ينقذ الموقف:

- وما حاجتكم الى الامطار يا سي الحكمدار؟ أنا لا أرى لعاصمة الواحات أي حاجة بالمطر. أنت تتمنى المطر وثلاثة أرباع السكان يلعنها ويطلب من الله ان يبعدها عنهم حتى لا تطيح بجدرانهم. هل تعلم يا سي الحكمدار أن الكفر بنعمة ربي قد بلغ بالبعض ان يقدموا القرابين وينامو فوق قبور الأولياء ليبعدوا شبح المطر؟

تشبث الحكمدار بالقشة. قال مؤيداً:

- هذا صحيح. لا يعدم وجود هؤلاء سمعت من الناس أنهم يتكاثرون يوماً عن يوم. بيوتهم من طين. يفعلون ذلك ليحموا سجون الطين! هه - هه... يطردون المطر حماية لسجون الطين! نعم. معك حق.

غابت الشمس وتسللت العتمة في بهو الفندق. من أحراش النخيل انبعث الرطوبة والبرد. توغل غوما في حملته:

- الشياطين. يشدّون والآخرون يجذبون. المخلصون من عباده يتدافعون في المساجد للاشتراك في صلاة الاستسقاء، وهؤلاء الكفرة يعدون السماء بالنذور وينحرون القرابين حتى وقع سبحانه في الحيرة. ما أن تخيم سحابة واعدة حتى تنقشع. يصفى الجو وما يلبث أن يعود للغضب والسّحاب.

سكت غوما فساد الصمت. تبادلوا النظرات في صمت. أدركوا انهم بالغوا

في حملتهم على الأهالي. تلميح آهر حول الأحداث الأخيرة سمّم الجلسة منذ البداية ويبدو أن حملة غوما على أعداء المطر لم تفلح في إبعاد شبح التوتّر.

لسعهم النسيم الشمالي المشبع بالبرد والرطوبة. اقترح الحكمدار الانتقال الى العشاء. في المطعم تناثرت طاولات حديدية مكسوة بأغطية وردية باهتة الألوان ملوّثة بالبقع والدّهون محاطة بكراسٍ خشبية. المطعم معتم وشبه مهجور. في نهاية الزاوية يجلس ثلاثة رجال أوروبيين يتبادلون حديثاً هامساً وإن علت ضحكاتهم بين الحين والآخر. يشرف على الخدمة فتى زنجي ضاحك لا تفارق الابتسامة شفتيه المفلطحتين كاشفاً عن أسنان نضيدة. حياهم بسيل الترحيب ثم اختفى لحظات وعاد بطبق مزدحم بزجاجات البيبسي كولا. صففها على طرف الطاولة فلاحظ غوما أن طبقة من الغبار تعلو الزجاجات المعتمة. غطاء الطاولة أيضاً مكسو بالغبار. يتندّر الأهالي فيقولون أن الغبار في الصحراء الكبرى قادر على الوصول الى الجنين في أحشاء أمّه. لا مفر من الغبار.

ساد الصمت.

وجد الشيخ غوما نفسه ينقر على طرف الطاولة بعصبية. تساءل وهو يتأمل عباءة الحكمدار الرمادية كأنه يكتشفها لأول مرة:

- ولكن قل لي: كيف الحال باللّه؟ هل استطاع اللّه أن يهديكم ويهديهم الى صراطه المستقيم؟

استرق الحكمدار نظرة نحو آهر قبل أن يجيب:

- ربنا يهدي من خلق. الأعصاب ما تزال مشدودة ولكن حالنا أفضل من مدن الساحل. هناك ما زالت الصدامات مستمرة. ربنا يهدي من خلق.

ثم أعقب ذلك بتنهيدة متعبة. تدخل آهر بعد صمت طويل:

- الحرائق! يقال إن الحرائق عظيمة. ألسنة النار تتجوّل في طرابلس فيراها الناس من قمة جبل نفوسة في الليل.

تبادل الحكمدار نظرة مع غوما قبل أن يعلّق:

- هذه مبالغات. الحق أن بعض المخربين والمتطرفين اندسوا في صفوف الطلبة،

استغلوا حماسهم ودفعوهم لحرق بعض المتاجر المملوكة للجالية الايطالية. هذا طبيعي. المخربون استغلوا طيش الطلبة. هذا طبيعي جداً عندما يتداخل الحابل والنابل وتعم الفوضى. النظام في مدن الساحل ما زال مهدداً. لا أنفي أن النظام هناك ما زال بعيداً عن الاستقرار!

التفت نحو الاوروبين الثلاثة الذين بدا همسهم يعلو بالتدريج وقال بلهجة ذات معنى:

ـ هذا ما يجعلني استغرب أن يقوم بعض العقلاء بتأييد المخربين!

كان التلميح واضحاً. ولكن غوما لم يعلّق. لم تفضح ملامحه أي تعبير. قال الحكمدار في نفسه: «هذا الشيخ الحكيم يعرف كيف يخفي انفعالاته برغم المرض. أم أنه لم يفهم؟ اذا فهم فإنه داهية!».

ظلت ملامح الشيخ جامدة.

علا ضجيج الأوروبيين في الزاوية.

جاء الزنجي الضاحك بالاطعمة. اكتفى غوما بتذوّق كل طبق. فقدان الشهية مرض يرافق الشيخوخة. كالأرق.. كأسراب الذباب. عقّب آهر:

ـ الشيخ غوما يتأفف من الطعام. هل تتصوّر يا سي الحكمدار أنه لم يذق طعماً لطعام منذ أيام؟ جئته البارحة بقطعة من معجون التمر. لم يلمسها حتى باليد. بل إنه شرب الشاي بلا مبالاة. هل تعلم أن الزهد بلغ به حداً جعله يتنازل عن الشاي الأخضر؟

ابتسم الحكمدار:

ـ حقاً؟ اذا كان هذا صحيحاً فهو معجزة. الوالي المرحوم قصّ لنا عن تقديس شيخنا للشاي الأخضر...

تحوّل نقاش الاوروبيين الى صراخ في الزاوية. نهض أحدهم فأسقط زجاجة خضراء كبيرة على الاسمنت فتهشمت الى أجزاء صغيرة. خرج يترنح. الأوروبيون يشربون البوظة!

جاء الزنجي يحمل طبقاً صفّت عليه كؤوس الشاي. الشاي حاسر الرأس، عارٍ من الرغوة كزيت. فأثار اشمئزاز الشيخ غوما فوراً تناول رشفة للمجاملة ثم وضع الكأس على طرف الطاولة.

تقدّم أحد الاوروبيين من الشيخ وهو يترنح. نزع قبعته في حركة استعراضية. تناثر الزبد على شفتيه وهو ينحني فوق رأس غوما وينطلق في رطانة ايطالية:

- Buona Sera, signor Goma! Mi chiamo Mori. Sono di una spedizione archeologica. Ci siamo gia visti nel Vadi - Al - Agial a Germe. Ti ricordi di me? Mi dovra dare l'occasione de parlarti. Mi hanno detto che hai delle notizie su dove si trova l'antica cita: Mi raccomando, signor Goma. Arrivederci!

جاء الزنجي الضاحك وأبعده عن الشيخ دون ان تفارق الابتسامة شفتيه. فعل ذلك بلباقة. مضى بالخبير المخمور حتى اختفى به في الممر المظلم المؤدي الى الحجرات. عاد بعد لحظات واعتذر ببشاشة:

- البوظة هي السبب. الخمر سلطان المعاصي. لم أعرف ألطف من السنيور موري عندما يكون صاحياً. ولكن ما أن يشرب هؤلاء النصارى البوظة حتى يتدخل ابليس ويقلب رؤوسهم وعقولهم وألسنتهم. ليس صدفة أن يلعن الله شاربه وحامله و....

يبدو أنه نسي الصيغة الحرفية للحديث الشريف فرفع كلتا يديه نحو السقف وزفر بعمق ثم مضى الى الزاوية وانهمك بتكنيس شظايا الزجاجة المحطمة.

موري عجوز طلياني أشيب، عمل في جيش الاحتلال الايطالي وعاد الى روما. ثم أحيل على التقاعد هناك فعاد الى فزان للبحث عن الآثار. ويقال أن المحافظ استقدمه خصيصاً كي يتولى حفر مقابر الجرمنت. ويردد الأهالي همساً أن مهمته الحقيقية ليست البحث عن الآثار وإنما البحث عن الذهب المدفون في مقابر قدماء

---

* مساء الخير، سنيور غوما، مساء.. الخير، أنا السنيور موري خبير الآثار. في وادي الآجال. في جرمه. هل تذكر؟ يجب أن تمنحني الفرصة.. أريد أن أتحدث إليك. لدي أسئلة أريد أن أطرحها عليك. يقال أنك عليم بموقع المدينة القديمة. لا تنس، سنيور غوما. الى اللقاء (الإيطالية).

الجرمنتيين. وقد وقّع الاتفاق مع المحافظ مقابل أن ينال حصته من الكنوز.

في الزاوية علت أصوات الطليانيين الباقين في مشاحنة واضحة. استأذن الحكمدار وطلب ان يختلي بالشيخ غوما على انفراد.

في الخارج اشتدت الظلمة وتلامعت الأضواء الشاحبة من أعمدة الطريق. انحرف الحكمدار عبر شارع «الاستقلال» المهجور. الحركة تنشل في الجوهرة مع حلول المغرب حتى في الظروف العادية فكيف بها في ظروف حظر التجوّل، غير المعلن، الساري منذ بداية الاحداث؟ سيارات البوليس تمرق بين الحين والآخر. وفي العتمة، تحت أعمدة النور وبين الجدران، يمكن تبيّن العساكر الذين تنتصب البنادق على مناكبهم، يشيعون المارّة بنظرات مريبة. يقتلون الفراغ بفحص عابري السبيل، ويقصّرون من عمر الليل الشتوي القارّي بالتسكع وحرق السجائر.

اشتد البرد الصحراوي فاختفى الحكمدار في ثنايا جرده الرمادي واكتفى غوما بإحكام قناعه حول رأسه.

استمر الصمت بينهما طويلاً قبل أن يتكلّم الحكمدار:

. تشاورت مع المحافظ وتوصلنا الى النتيجة. حققنا رغبتك وأطلقنا سراح حفيدك. أرجو أن نكون قد ضيقنا هوة الخلاف.

. وماذا عن مصير زملائه؟

سدد له الحكمدار نظرة غاضبة في الظلام ولم يجب فواصل غوما:

. زملاؤه أيضاً أبرياء والمشكلة ليست في آيس وحده.

. يعلم الله كم كلفني اقناع المحافظ من حيل وبلاغة. قمت باستغلال كل خبرتي الطويلة في شؤون البوليس كي أقنعه ولكن لم أجرؤ أن أطلب اطلاق جميع المتمردين.

صمت ودحرج حجرا على الرصيف المترب وأضاف مهذّبا من استنكاره:

. أخشى أن المحافظ لن يستطيع فهمك. أعني أنه سيفهمك ولكن...

سعل بحدّة وبصق جانباً قبل أن يكمل:

ـ .. إنه يستنكر تدخلك. قال أن هذا تدخل في شؤون المحافظة الأمنية لم تعرفه المحافظات الأخرى من زعماء القبائل. لا أخفي عليك. لقد هدد بأن يشكوك الى صاحب الجلالة. نعم. قال أنه قد يضطر لأن يحكّم الديوان الملكي لحسم الخلاف.

ـ هل أرسلك كي تنقل لي هذا الكلام؟

ألقى غوما بالسؤال بغتة. تباطأ الحكمدار حتى اضطر غوما أن يكرر سؤاله بنفس الاستفزاز.

في النهاية أجاب الرجل:

ـ لا. قلت في نفسي لماذا نتخاصم اذا كان في الامكان ايجاد لغة للتخاطب. لا أريد أن أفقد صديقاً مثلك ولا أريد أن يتحوّل خلاف بسيط الى عداء بينك وبين المحافظ على هذا النحو سيصل الأمر الى آذان الحكومة في طرابلس، وسوف يطير ويبلغ القصر في طبرق، ويعلم الله ما سيجرّه على الواحات. رأيت أن أبادر بمحاصرة الخلاف في بدايته، فهل في هذا ما يعيب؟

ـ هل تقوم بمهمة الوسيط؟

ـ ربما. شيء من هذا. واسطة خير لا ناقة لي فيها ولا جمل.

ـ بارك الله فيك. ولكن لا تطمع في أن أتنازل شبرا واحدا.

ـ يا رسول الله! أنت حكيم يا شيخ غوما والتطرف ليس من شيمة الحكماء. أمهلني قليلا بالله ولا تقاطعني. أنت تعرف أن الكثيرين يطعنون في قواك العقلية في السنوات الأخيرة..

ـ أعرف. أعرف..

ـ امهلني بالله. لحظة من فضلك. ربما أسأت التعبير. لا يطعنون في قواك العقلية. استغفر الله...

ـ بل في قواي العقلية أيضا.

ـ .. يكفي أنهم يقولون أنك تشيخ وتخرّف.. ليس في العجز الذي يأتي به

ربي أي عيب.

ـ حاشا الله. أحمده على نعمته. المرض والأوهام من علامات الشيخوخة. المرض والأوهام والأشباح.

ـ .. وأنا حريص على سمعتك. لا أريد أن يقال إن موقفك الأخير وليد الشيخوخة.

ـ فليقولوا ما يطيب لهم.

ـ ربما استغل المحافظ هذا الرأي.

ـ المحافظ أيضاً لا يهمني. الحقيقة هي كل شيء. يجب ان يطلق سراح الأبرياء.

ـ الحقيقة. قلت لك إن التطرف يفسد أكثر مما يصلح. هل تستطيع ان تسمعني قليلاً؟

هبّت موجة هواء شمالية باردة فحمى الحكمدار رأسه الأشيب بلحافه الرمادي. واصل بعد قليل:

ـ لا أريدك أن تتنازل عن موقفك ولكن تنازل عن العناد الطفولي.

لم يعلق غوما فمضى الحكمدار:

ـ الخلاصة أن بإمكان الرجال دائماً أن يصلوا الى اتفاق اذا احتكموا الى العقل. أنت تتقدم خطوتين وأنا استقبلك بخطوتين من الجانب الآخر فنلتقي في منتصف الطريق.

عربد العناد الطفولي على لسان الشيخ غوما:

ـ ولكن يبقى الأبيض أبيض والأسود أسود. الحقيقة لا تقبل التجزئة.

ـ إصبر عليّ بالله. لماذا لا تمهلني حتى أكمل؟ أريد أن أسمعك قصة. شقيقي الأكبر كان من أكبر المعارضين للملك في بداية الاستقلال....

انتهى طابور الفلل الارضية المصففة على جانبي شارع «الاستقلال» وأفضى

بهما الطريق الى المتاهة الفاصلة بين المدينة والقلعة العثمانية الجليلة المنتصبة على قمة المرتفع في الشمال. في قمة القلعة تومض انوار حمراء. لم يطل القمر بعد ولكن بهرة خفيفة تمخض عنها الافق في الخلاء الشرقي.

انقبض قلب الشيخ وهو يسمع الحزن في لهجة الحكمدار:

ـ .. كان ايضاً يرى أن الحقيقة لا تتجزأ ولا يكف عن الدعوة الى العدالة في نشاطه وأحاديثه. وكان فوق ذلك عنيداً مثل الحمار. أعتقد أن عناده هو الذي ساهم في هلاكه. حاول صاحب الجلالة أن يستميله ويثنيه عن التطرف. بعث له بالرسل كي يقنعوه بالتراجع عن موقفه من القواعد الاجنبية. قال له المبعوثون: لا الوقت ولا الظرف ولا الاحوال الاقتصادية للبلاد تسمح برفض ضغوط الدول الكبرى بشأن القواعد. ولكنه كان يجيب في كل مرة أننا لم نضحِّ بالشهداء ولم نقدم القرابين كي نبدّل استعماراً باستعمار. حاول معه الملك مرة ومرات أخرى وجلسوا الى طاولة المفاوضات لايجاد صيغة مشتركة قبل اعلان المملكة ولكن عناد أخي أفشل التوصل الى نتيجة. فهل تدري كيف عالج الملك ـ او الانكليز لا أدري ـ الأمر؟

ـ هل أبعدوه؟

ـ يا ريت؟

ـ ...

ـ أبعدوه إلى الأبد. اختفى الى الأبد.

ـ أين يمكن أن يختفي؟

ـ هه! اختفى والسلام. هذه عاقبة التطرف. نفّذ الملك ما أراد، ووقع الاتفاق مع الانكليز ثم مع الامريكان رغم أنف المعارضة والمعارضين وأصبح أخي ضحية لغبائه وتطرفه.

ـ ليس التطرف في سبيل الحق غباء!

ـ ولكنه أكلها وانتهى دون أن يستطيع أن يغير من الأمر شيئاً!

ـ ولو.. هذا ما يعطي لأمثاله القداسة التي نسميها شهادة.

ـ لقد أخفق. انتهى الى الباطل. ولا معنى لشيء ينتهي الى الباطل.

ـ كلنا ننتهي الى الباطل شئنا أم أبينا والدفاع عن موقفنا هو الذي يمنح الباطل طعماً.

ـ بسبب موقفه عانيت أيضاً. بحثوا عنّي بهدف اعتقالي فهربت الى مصر. تعرّفت هناك بالمرحوم الوالي فشفع لي عند صاحب الجلالة. الوالي صاحب فضل عليّ. رحمه الله. طاردوني برغم أني لم أجاهر بمعارضة ولم أدل بما يمكن أن يشتم منه العداء.

ـ في زماننا يكفي أن تكون شريفاً كي تشار لك أصابع الاتهام. الشرف وحده تهمة.

ـ معك حق. وبرغم ذلك ساهم تدخل الوالي في تليين قلب الملك فغفر لي.

ـ غفر لك ذنباً لم ترتكبه.

ـ صحيح. يقال إن الملوك معذورون دائماً، لأنهم يسمعون بآذان غيرهم، ويرون بعيون غيرهم ويحكمون بآراء غيرهم. الحاشية هي التي تحكم نيابة عنهم.

ـ هذا تبرير واضح للظلم.

ـ هذه مرونة. المحافظ أمر باطلاق سراح آيس ولا يريد سوى أن تصمت عن الباقي وتدعه يواجه المتمردين بالعدل والشدة.

ـ هل هذه رشوة؟

ـ هذه مرونة.

ـ الحقيقة لا تقبل المناصفة. لقد اتفقنا.

ـ اتفقنا على أن نلتقي في منتصف الطريق. في السياسة يسمون ذلك «الحل الوسط».

ـ لا وسط في الحق. عليه أن يطلق سراح الابرياء.

ـ ربنا يهديك.

ـ ربنا يهدي الجميع. ربنا يهدي من خلق.

برز قرص القمر. قرص شاحب كبير تمزّق طرفه العلوي فزاده ذلك بؤساً.

# 6 ـ الذباب

في العادة لا تتنفّس الصحراء بالرياح إلا في الربيع، مع نهاية مارس، ولكن موسم العجاج بكّر هذا العام فتسكعت موجات كثيفة من الغبار في شوارع الجوهرة. هرع الناس الى الدكاكين واقتطعوا أذرع القماش الأبيض واتخذوا منه اقنعة لحماية رؤوسهم. العمامات تحجب كل شيء إلاّ العيون المتوّجة برموش تعلوها طبقة كثيفة من الغبار الذي لا عاصم منه في هذه المواسم العصيبة. الغبار يدفع الناس الى بيوتهم ويجبرهم على إخلاء الطرقات فيتسكع في الشوارع بكبرياء، يهشّ أوراق الاشجار، عابثاً بأوراق اخرى اقتطعها من كراسات التلاميذ، يدحرج العلب الفارغة ويتلاعب بالاعشاب البرية اليابسة، يصفع جدران البيوت بكف من حديد فتتمتم شفاه العجائز بالتعاويذ وآية الكرسي. العجائز يحصنّ أنفسهن وأقاربهن وبيوتهن بآيات القرآن وتعاويذ الأولياء خوفاً من أذى الجن الذي يتخذ من الرياح مركبة في هذه المواسم.

وبرغم كل التدابير فإن الرياح تقوم بالدّور التخريبي الذي يخشى الأهالي الهلوعون أن يقوم به المطر.. فتتصدّع الجدران وتنهار بيوت الطين ويتلقوا الانتقام.

تهدأ الرياح فيدب الناس ويتجمعون للتعاون في تشييد البيوت وتعود أسراب الذباب الى صناديق القمامة. والغريب ان الناس لا يكتشفون غيابها أثناء عربدة الريح ويدهشون لعودتها في تلك الأمواج الكثيفة عندما تهدأ الأحوال.

ريح اليومين الماضيين جاءت بدفعة جديدة، راقبها الشيخ غوما وهي تتسلل

في الليل وتتخذ من سقف الغرفة مأوى لها. لاحظ ان سقف غرفة آهر أيضاً عش قديم لأسراب الذباب. في غرفته بصمت السقف بقع كبيرة سوداء وكذلك في غرفة آهر. الزنجي الضاحك حدّثه فقال أن بصمات الذباب منتشرة في كلّ الغرف.

رصد حركة الحشرة في الليل فوجدها تتسلل الى السقف - في ضوء المصباح الخافت. وتقضي ليلتها في تجمعات. لاحظ أيضاً أن سلوكها يتغير مع زحف الظلمة، فتكف عن الأزيز وتتوقف عن الغارات العدوانية لتتكاسل وتهجع مع المساء. عقد مقارنة بينها وبين النوع الذي يهاجمه قبل بدء رحلته الى الغيب فاكتشف فروقاً واضحة. فلون ذبابه أخضر يميل الى الزرقة مثل ذلك النوع الذي يتغذى على جثث الحيوانات ويسعى في عفن المزابل. أما لون الذباب العادي الراقد في السقف فأسود داكن. ثمة خلاف في الحجم أيضاً. ذبابه أكبر من حجم الذبابة العادية. منفوش، يحمل كرشاً لا يتناسب مع حجم جناحيه الصغيرين، في حين تبدو الذبابة العادية رشيقة، تتناسب مع الأجنحة التي تحملها. أما أزيز ذباب السقف فحادّ، مزعج في حين يقترب أزيز ذبابته الأخرى من صوت القطعة الموسيقية. صوت «أمزاد» عندما تعزف عليه فتاة هاوية ترخي وتره الوحيد. تبقى طبيعة هاتين الذبابتين. من رصده لسلوك ذبابته «الأخرى» لاحظ أنها مسالمة ووديعة برغم أن هجومها الجماعي في سرب مغير يوحي - في البداية - بشراستها. كثيراً ما يشيح بوجهه بعيداً أو يتعمد أن يهشها بيده كي يحمي عينيه من الغارة. أما الذبابة العادية فذات طبيعة ميّالة الى العدوان. تنهش اللحم البشري كلما وجدت الفرصة خاصة في النهار عندما تتمتع بالحياة.

نهض مبكراً. توضّأ وصلّى الفجر في بستان الفندق. تحت النخيلات الكثيفة التي التفّت تبني مشروعاً لاحراش حقيقية وامتدت لمحاصرة الفندق من جانبين.

عاد الى الغرفة وجلس على السرير. انطلقت أصابعه تدحرج حبات المسبحة. تعلّق بالسقف. راقب حركة الذباب مع الانهمار البطيء لتيار الضوء. خيل له ان ذبابة غريبة ترقد في المستعمرة. ذبابة خضراء تميل الى الزرقة. منفوشة البطن. أكبر حجماً من جاراتها. عرف فيها الذباب «الآخر». وقف. اقترب برأسه يتفحص الذباب. فرّت بضع ذبابات ولكن المستعمرة استمرت كثيفة. رأى الشيخ أن «الذباب الآخر» ليس ذبابة وحيدة وانما ذبابتين، ثلاث، مجموعة. فما سر هذا الاختلاط المفاجىء؟ وما معنى ان يأتي «الذباب الآخر» الذي لا يراه إلا قبل

أن يغيب في رحلته بلحظات، ويلتئم بذباب الدنيا؟

تناول نعل «التمبا» ورشقه باتجاه السرب. ارتطم المداس بالسقف فأصاب بضع ذبابات آمنة. سقطت على اسمنت الغرفة ميتة. بينها وجد غوما ذبابة من «العالم الآخر» فغمره حزن خفي. وحمل معه هذا الحزن حتى عندما ذهب الى اطراف الجوهرة الجنوبية الغربية كي يقدّم التعازي في أحد ضحايا الاحداث الاخيرة.

رافقه آهر.

قبل أن يبلغا المكان عرّج غوما على مشيخة المحلّة فاستقبله شيخ بدين، قصير القامة، في العقد السابع، تتدلى من ذقنه لحية كثيفة يمنحها البياض وقاراً. جلس على السدّة مع جماعة من الشيوخ. تأمله طويلاً وهو يعصر عينيه، ثم هبّ واقفاً في حيوية لا تتناسب مع سنّه وبدانة جسمه. أقبل نحو غوما وعانقه وهو يردد بفرح طفولي: «الشيخ غوما بنفسه؟ يا ربي. هل هذا معقول؟ متى التقينا آخر مرة؟ في جانت أم في أغاديس؟». قال غوما أنهما التقيا آخر مرة في أغاديس بعد تمكن الطليان من السيطرة على الواحات واحتلال غات. أمر شيخ المحلة بإعداد الشاي. اعتذر غوما وطلب مرافقتهما الى خيمة العزاء. قال:

- حق الأموات أولا. نحن في الطريق الى أهل المتوفي لتقديم المواساة. هل تسمح ان ترافقنا وتدلنا على الطريق؟

تمتم شيخ الحي وهو يتناول عباءة باهتة اللون ويلفها حول جسمه البدين:

- طبعا. رفقتك ممتعة. رفقتك دائما ممتعة حتى لو كانت لتقديم التعازي. يا حسرة على التجارة والتجوّل في الصحراء. كانت الحياة شاقة ولكن كنّا سعداء. أم أن الماضي كله جميل عندما يتحوّل الى ذكريات؟ كيف صحتك يا شيخ غوما؟ سمعت أن صحتك ليست على ما يرام..

- العمر. العمر يا شيخ عبد الباري. ليس هناك دواء لمعالجة الشيخوخة أعاني من الأرق و...

تحركوا نحو بيت الميت.

في الطريق لاحظ غوما أسراب الذباب وهي تهاجم صناديق القمامة التي قلبها الريح فتناثرت القاذورات والفضلات والعلب الفارغة في الشوارع والطرقات. خيل له أنه سمع الأزيز المميز. الأزيز الذي يشبه صوت «أمزاد». ولكن الذباب الأخضر لم يظهر.

قال الشيخ عبد الباري:

ـ مصيبة الراضي كبيرة. هو عجوز في عمرنا. تجاوز السبعين بقليل. ولده القتيل وحيد. أهداه له الله من زوجته الثالثة بعد انتظار طويل. رُزق به بعد ان يئس ثمرة العمر. اذا فقد الانسان ثمرة العمر فإن حياته فناء. من لم ينجب لم يعش كما يقال.

عبد الباري كان تاجراً لجلود الحيوانات والزواحف. يشتري جلود النمور والثعابين من أغاديس وتمبكتو ليبيعها الى التجار في غريان وغدامس وطرابلس. لم يكن بيت الراضي مزدحماً بالمعزين كما توقع غوما. الحقت خيمة منسوجة من الوبر ببيت الطين وجلس في ركنها الراضي يحيط به نفر من المشائخ. في زاوية الخيمة جلس شاب يحضر الشاي على جمر تحوّل الى رماد. في الزاوية الأخرى ينكب عجوز أشيب على مصحف ضخم يرفع صوته بالقرآن: «.. المال والبنون زينة الحياة الدنيا».

انقبض قلب غوما وعاوده الحزن الخفي وهو يسمع الآية الأليمة.

هرع الحاضرون لاستقبالهم باستثناء العجوز المسكين الذي بقي مكوّماً على الرملة، منحنياً في جلسته، يحدق في الفراغ. صافحهم بنظرة غائبة. ظلّ طوال الجلسة منكفئاً على حزنه غائباً عن المكان، غريباً بين الحاضرين.

في طريق العودة قال الشيخ عبد الباري:

ـ المحافظ أرسل بمندوب لتقديم التعازي.

علّق غوما:

ـ يقتل القتيل ويمشي في جنازته.

لكزه آهر بمرفقه فواصل عبد الباري:

ـ الملك أيضاً أرسل برسول، هل تصدّق؟ جاء منذ يومين وأقام في بيت الضيافة وحضر الى بيت الراضي ثلاث مرات لتقديم التعازي نيابة عن صاحب الجلالة. وقبل أن يغادر ترك للعجوز المسكين بعض الأموال.

تعب عبد الباري فتلاحقت أنفاسه. مسح العرق عن جبينه. استمر:

ـ يقال أنَ رُسل الملك طافوا كل المملكة لتقديم المواساة لأسر الشهداء.

أعاد غوما جملته بإصرار:

ـ يقتلون القتيل ويمشون في جنازته.

ـ أصدر مرسوماً جرّد فيه بعض المذنبين من رتبهم العسكرية.

ـ السجون ما زالت تفيض بالأبرياء.

ـ الحقيقة أن الوضع محيّر بعض الشيء. يتهمون المشوشين بالتمرد والتخريب.

ـ هل تصدّق ما يقال؟

ـ ....

ـ الحق حق والباطل باطل يا شيخ عبد الباري.

تعاقبت أنفاس الشيخ البدين وأخذ منه التعب. عاد يمسح العرق بكم جلبابه. رفع رأسه نحو غوما، محاولاً، أن يفهم. على شفتيه طافت ابتسامة حائرة.

توقف غوما فجأة وحضّر نفسه للمواجهة. سأل بغضب:

ـ هل ضرب الفتيان بالبارود عدالة؟ هل سفك دم الابرياء حلال أم حرام؟ قل لي بالله؟

تلعثم عبد الباري ومسح مزيداً من العرق:

ـ حرام. حرام يا حضرة الشيخ.

تدخل آهر:

ـ وهل هذا مكان ملائم للحوار؟

استمر غوما يحاصر عبد الباري:

ـ تقول ذلك من قلبك أم مجاملة لي؟

سارع عبد الباري ينفي:

ـ أستغفر الله. لا أجامل فيما يتعلق بالحلال والحرام يا شيخ غوما.

حاول أن ينتزع منه موقفاً:

ـ اذن توافقني؟

بعد تردد:

ـ الأمر محير. ولكن معك حق فيما يتعلق بـ... الحق مع الطرف الآخر فيما يتعلق.. كلما استمعت الى طرف اقنعك بموقفه.. اللهم اهدنا الصراط...

احتلت الشمس قلب السماء.

اكتفى غوما بالصمت ثم واصل. ودّع عبد الباري عند المشيخة. تواعدوا على اللقاء يوم الجمعة لتأدية الصلاة في الجامع. وبرغم ان الشيخ عبد الباري لم يأت لصلاة الجمعة الا ان الشائعات نشطت في الجوهرة ورددت أن غوما بدأ مشاوراته مع المشائخ ووجهاء الواحات محرّضاً على العصيان.

الشائعات ازعجت آهر. لم يخف ضيقه وهو يعيدها على مسمع الشيخ. علّق في احدى المرات: «ليس هذا وقتاً مناسباً لاستفزاز الحكومة يا شيخنا» وردد مرات أخرى أنه يميل الى التسامح وضبط النفس.

غوما لم يعلّق.

مضى ـ بعد عودتهما في ذلك اليوم ـ وانزوى في غرفته. بحث في الزوايا فوجد ذبابته القتيلة مقلوبة على ظهرها. تغيّر لونها. تحوّل اللون الاخضر المائل للزرقة الى السواد. ذبابة عادية سوداء. تفقّد السقف مع المساء وبحث عن الذباب الأزرق فلم يعثر على حشرة واحدة من ذلك النوع. من أين يأتي الذباب الملوّن ذو

الاجنحة الموسيقية؟

عاد القلق الخفي.

في الصباح زارهما آيس.

في البستان الشاحب المحيط بالمبنى تناثرت كراسٍ خشبية يعلوها غبار الرياح الماضية. الرمال غمرت النباتات الذابلة وحاولت أن تنال من شجيرات النخيل العنيدة التي تسلقت الجدار، برغم العطش والريح، وأطلت على الشارع في شقاوة.

جلسا متقابلين حول طاولة حديدية مستديرة نهشتها الرياح وسلخت الرملة قشرتها الدهنية فعلتها بقع الصدأ وغمرها التراب.

شربا القهوة بالحليب وترك غوما كأس الشاي الحاسر من الرغوة، السيىء الصنع حتى برد.

عندما جاء آيس قال له آهر مداعباً:

- أراك قد دخلت الحياة من أوسع باب. هذا يليق بالرجال.. هذا يليق بحفيد الشيخ غوما.

كتم غوما لهفته.

صافحه بهدوء واستمرت اصابع يده تعبث بحبّات المسبحة. بصره تعلّق بموجة الضوء التي غمرت رأس النخلة التي تعتلي الجدار. دبّ الدفء في الحديقة الموحشة.

الكبرياء استطاعت أن تنتصر. لم تكبح الكبرياء جماح اللهفة اليوم فقط وانما ظل الشيخ يعاند شوقه منذ نزل الواحة. عراكه مع الحكمدار منعه من أن يتنازل ويطلب زيارته في الحبس. تتابعت الأحداث ووصل الأمر الى المحافظ وجاء آهر وتعقّد الامر أكثر حتى اصبحت أية رغبة في زيارة آيس سوف تفسّر بالضعف والتنازل.

داس على قلبه وانتظر.

انتظر ان يبادر آهر ويقترح زيارة السجين ولكن غشامة هذا الرجل أنسته مراسم النبل فقرر ان يدوس على قلبه ويصبر.

اطلق سراح آيس منذ أيام ولكنه لم يظهر إلا اليوم. وطوال تلك الأيام لم يتطوع آهر ويقترح اللقاء.

الآن أيضاً خنق اللهفة.

ورغم أن قلبه انتفض بمجرد أن رأى الولد المشوّه بالكدمات إلاّ أنه أفلح في السيطرة على نفسه.

قال دون ان تكف اصابعه عن دحرجة كرات المسبحة:

- قيل أنهم كسروا يدك أيضاً.

جاء الزنجي الضاحك بكوب كبير يتصاعد منه البخار ويعوم في وسطه كيس الشاي. قال آيس وهو يلتقط الخيط المتدلي من الكوب ويحرّك السكر في الماء باليد الأخرى:

- لو أنهم اكتفوا بكسر الأيدي لهان الامر. كسروا في قلوبنا اشياء أهم.

ثم وهو يرشف من الشاي:

- كسروا أضلاع زملائي وأسنانهم ورؤوسهم. أنا أسعدهم حظّاً.

هتف آهر:

- يا حفيظ!

- لم اعتقد أن قسوة الانسان يمكن ان تبلغ هذا الحد.

انحسر كمّه عن يده فبدا الجبس. تساءل آهر:

- يدك في الجبس. قيل لنا أنهم نزعوا الجبس في المستوصف.

- نزعوا الأول وجبّسوا اليد من جديد. اكتشفوا خطأ في وضع الجبس الأول.

تنهد بإعياء ثم قال بحزن:

ـ هذا كله يهون الى جانب الجرح الذي سببتموه لي.

نظر نحو جدّه ونكس رأسه. تبادل غوما مع آهر نظرة دهشة. استمر غوما يراقب فيض النور وهو يغمر النخلة على الجوار. أوضح آيس:

ـ اعرف انكما تسعيان للخير ولكن زملائي شكّوا في أمري. قالوا أنني أتعامل مع البوليس السرّي وقمت بالوشاية بهم بعد اجتماع الغاية الذي سبق اعتقالنا. تصوروا اني زرتهم بالأمس فطردوني ونعتوني بالخائن!

تشنّج. غمره الشحوب. ارتعدت يده فدلقت الشاي على الطاولة. قال:

ـ يا ليتكما لم تسعيا لاطلاق سراحي! لقد افسدتما كل شيء! كل شيء!

نهض فجأة فضرب بركبته حافة الطاولة. سقط كوب الشاي وتحطم الى شظايا صغيرة.

خرج. تركهما وحيدين، متواجهين، في البستان البائس، الشاحب الذي تغمره الشمس بخيوط ضوء تتسلل من اعراف النخلة الشقية.

عاد الحزن الخفي. نفس الحزن الذي شعر به بعد أن قتل بنعله الذبابة الخضراء، الجميلة، المجهولة. استمرت هذه الكآبة حتى بعد ان صدر الأمر بإطلاق سراح السجناء!

# القسم الثاني

# 1 ـ الانس والجن

يرقد وادي الآجال بين الصحراوين العظميين، الخالدتين في العراك والعناد: الرملية والجبلية! تمتد الجبال الرمادية الاسطورية الغامضة على طول الشريط الشرقي. وتواجهها من الناحية المقابلة كثبان الرمال الذهبية: جليلة أيضاً، متوثبة، متحفزة، مستعدة للعراك والانتقام!

السلسلة الجبلية حليقة الرؤوس، متساوية القمم كأنها قطعت وسويت بضربة واحدة من سيف أسطوري. أما الرمال المواجهة فمتفاوتة، مدبَبة الرؤوس أحياناً، منحنية ومسطَحة أحياناً أخرى. ولكنها لا تتنازل عن الصرامة والوحي بالاستعداد للهجوم والعدوان حتى في شكلها الراكع الذي يخدع المشاهد فيرى فيه الانكسار والاستسلام!

عبر هذا الامتداد الابدي، المحاصر بين القوتين العظميين، يرقد الوادي المسكين المخنوق بين فكي عدوين أبديين، وتتناثر الواحات البائسة في قاعه على مسافات متباعدة من أطراف أكاكوس في غات من اقصى الجنوب وتمتد حتى اعتاب الخلاء المشرف على الجوهرة من ناحية الشرق. وتقول الاساطير أن الآلهة في السماوات هي التي خلقت نتوءات السلسلة الجبلية بسبب قيام الجبال بالاحتكام اليها وتقديم الشكاوى تظلماً من اضطهاد الرملة وطلباً للانصاف والتزود من السحب بالمطر لطرد الموجات المحملة بالرملة والغبار.

اكتفت الآلهة في المرة الاولى بهذا العقاب. ولكن شكوى الجبال تكررت. فرفعت امرها الى السماء بمجرد ان طفح بها الكيل ونخست الآلهة في السماء

برأسها المدبب فأقضّت مضجعها. فغضبت الآلهة وصبت اللعنة على الجبال مرة أخرى بدل ان تنزل العقاب بالرمال العدوانية. اضطرت ان تقطع رؤوس الجبال بضربة هائلة من سيف خرافي. فتساوت، وتسطّحت وفقدت سلاحها الذي تستعمله لحث السحب على إسقاط المطر واستجلاب الفيضانات والسيول لتقاوم عدوّها الابدي: الرملة!

وبرغم أن الجبال عوقبت بقساوة إلاّ انها لم تيأس في عراكها مع الصحراء الرملية. فقررت ان تعتمد على نفسها. تحالفت مع المطر في صد الهجمات فعقدت الرملة الشيطانية صفقة مماثلة مع الريح.

تعارك الريح مع المطر عدة قرون فوق وادي الآجال. تهب الرياح المحملة بالأتربة والغبار وتحتل المساحات الخضراء الواقعة بين الصحراوين وتغمرها بالرمل فتتشاور السحب وتتجمع وتسقط بالمطر فتتدفق السيول من قمم الجبال الحاسرة الرأس وتكتسح الاراضي التي غنمتها الرملة. ولا تتوقف عن التدفق حتى تسترد المواقع الخضراء. تفرح الأرض العطشى وتشرب المياه في نهم فيطلّ النبات من بين الانقاض وتخضّر الاشجار وتتفتح الازهار احتفالا بانتصار الجبال الرحيمة حامية الحياة والعدالة.

استمر الصراع شرساً، عنيفا، قرونا أخرى.

تراجعت الرملة وفقدت مساحات شاسعة اقتطعتها الجبال من صحرائها بمساعدة السحب والامطار.

فكرت الرملة الخبيثة، ثم قررت أن ترفع أمرها وتستنجد بالجن. فهبّ أعتى المردة لنصرتها وركبوا الدوامات الرملية المتنقلة على جناح الريح ووجهوا للصحراء الجبلية ضربات موجهة. التهموا مساحات هائلة من الأراضي. استرجعوا مواقعهم. وقفوا بكثبانهم المهيبة على أطراف السفح الشرقي مهددين باجتياح وادي الآجال وعبوره الى الناحية الاخرى للالتحام بالعدو ـ السلسلة الجبلية الصلعاء.

حزنت الجبال وبكت قرونا اخرى من الزمان قبل ان تأتي الملائكة وتشير عليها بالاستنجاد بمعشر أشرّ واعتى الف مرة من الجن ـ معشر البشر!

ذهبت واستقدمت تلك القبائل العظيمة التي عرفت فيما بعد بـ«الجرمنتيين»

ووطّنتها وادي الآجال من شماله الى جنوبه. وكم كانت دهشة الصحراء الجبلية عظيمة عندما رأت تلك القبيلة الماكرة وهي تنشط في ابتكار مختلف البدع لمواجهة العدو الابدي المسلح بقوة الجن. وكانت الجبال تنظر الى الناس باعجاب ودهشة وهم يفجرون المنابع الجوفية ويطلقون سراحها في البيداء لتسقي الأرض العطشى وتوقف زحف الرملة من الغرب. تنبت النباتات وترتفع قامة الاعشاب، تنمو الاحراش وتكتظ الاشجار وتتكاثف غابات النخيل وتتشابك - مع مرور الوقت - لتشكل أدغالاً حقيقية. اقتطعوا الاحجار من الجبل وأقاموا مدنهم العظيمة على طول الوادي. ثم اختاروا المركز وشيدوا فيه عاصمة مهيبة اطلقوا عليها «جرمة الكبرى».

ثم استخرجوا نبيذهم من قلب النخيل وسكروا ورقصوا وغنوا وتفتقت مواهبهم عن الأشعار فذهبوا الى سفوح الجبال وسطروا ملاحمهم على الصخور ونقشوها هناك لتبقى دليلاً على جبروتهم ومهارتهم في قهر الرملة واذلال الجن!

الملاحم هي الشهادة التي تفاخر بها الجبال وتقدمها كدليل على عظمة هذه القبيلة الشيطانية!

عطّلت القبائل الشيطانية من زحف الرمال قروناً طويلة. لم تكتف بذلك فقط وانما طاردت الرمال عبر الصحراء بالمياه الجوفية والمزروعات حتى غابت الكثبان الرهيبة عن انظار الجبال الشاهقة. ابتسمت الجبال وتنفست الصعداء. اعتقدت أن شماتتها في العدو أبدية.

مضت قرون أخرى. تزودت الرملة العنيدة بأقوى العواصف القادرة على حمل اكبر كمية من الاتربة واعتمدت في غزوها على أقوى الجان وأشدهم بأساً في القتال واثارة دوامات الغبار. شنّت هجوما مباغتا على الجرمنتيين استمر عدة سنوات. لا تسكن الريح إلا لكي تبدأ من جديد. لا يكاد يهدأ حتى يعود أكثر شراسة وكثافة. يلتقط أنفاسه فتظن الصحراء الجبلية وحلفاؤها من الانس أن الرملة تعبت وتراجعت فيعربد الريح بوحشية تفوق كل الغارات السابقة. احتل مواقع جديدة... ودمّر المدن وغمر الغابات والادغال والاحراش وقضى على المزروعات ومدّ ألسنته الوحشية الشامتة عازما أن يتخطى الوادي البائس ويصل الى الجبل، لولا تدخل السماء في اللحظة الاخيرة. فجمعت أشتات السحب وانهمرت الأمطار وردّت الريح الرملية، وحلفاؤها من الجن، على اعقابهم واوقفت تقدمهم فوقفت

الرمال شامخة، متحدية، متحفزة للتقدم والانتقام، مضيّقة الخناق على الجبل. فأصبح المجال في الوادي بالكاد يسمح بالتقاط الهواء اللازم للتنفس والحياة بعد ان كان الناس يسافرون أياماً وشهوراً ويقطعون مسافات شاسعة كي يبلغوا اقرب طرف للصحراء الرملية.

وتقول الأساطير أن آخر المعارك بيْن الجانبين حدثت منذ ألفي سنة وهو تاريخ لاحق على زيارة هيرودوت الى بلاد الجرمنت وحديثه عن حضارتهم التي ابتلعتها الرمال بعد تلك الزيارة بزمن قصير.

# 2 ـ الكنوز

أقبل آجّار لزيارة الشيخ غوما عند الفجر. وجده يتقرفص بجوار بيت آهر ويسبح بحمد اللّه. يهمهم بالتسابيح ميمّما شطر القبلة، ترقد المسبحة الطويلة في حجره في حين تعبت اصابعه النحيفة في دحرجة كراتها الكثيرة فتوقفت عن الحركة والعمل.

رفع آجّار صوته دون أن يلقي تحية الصباح:

ـ اذا لم تردّ رابح التبروري الى صوابه فربما اضطررت ان استعمل معه اسلوبي الآخر. انت الوحيد القادر على رد هذا الطمّاع الى العقل.

نهره غوما دون أن يغيّر من وضعه المواجه للقبلة في انتظار ميلاد خيوط الشمس الأولى:

ـ صلِّ على النبي. الدنيا ما تزال فجراً وأنت تملأها بالعويل كالفلاحات.

ـ صلّى الله عليه وسلّم. ولكن ذلك لن يغيّر من الأمر شيئاً. يجب أن تفعل شيئاً..

قاطعه غوما:

ـ أنا لا أفعل شيئاً. لم أعد افعل شيئاً من زمان. لا اصلح لفض المنازعات والشيخ آهر هو شيخ القبيلة. إلجأوا للشيخ آهر بالله واتركوني...

ـ ولكنك شيخ الصحراء الكبرى. آهر شيخ القبيلة وانت شيخ على الصحراء.

آهر... ثم إن آهر لا يصلح لهذه المهمة.

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. كفّ بالله والعن الشيطان.

ـ أعوذ باللّه منه. هذا امر لا علاقة له بالقبيلة. انه يخص الجميع. طردناهم من الباب فغافلونا ودخلوا من النافذة.

قبض الشيخ على المسبحة في راحة يده اليسرى. قبض عليها لحظات ثم دسها في جيبه وتساءل:

ـ ولكن من تعني؟ ماذا حدث؟

ـ من يمكن أن يكونوا غير الطليان؟ استعبدونا في الماضي وحكمونا بالحديد واليوم يعودون لينهبوا كنوزنا تحت ستار البحث عن الآثار. هذا الخنزير موري وعصابته.

انحسر اللثام عن وجه آجّار فتناثر الزبد حول شفتيه. نهره غوما:

ـ استغفر الله. كف عن التنابز بالالقاب.

ركع آجّار على ركبته ثم انطلق مرة اخرى:

ـ ما يحيرني ان يتمكن هذا المجرم من خداع الحكومة كلها ويجيء الينا مدعوماً من المحافظ شاهراً الأذونات الممهورة بتوقيعه في وجه كل من يقابله. كأنه يتحدّانا. يقولون أن الاذونات تتضمن شيئاً عجباً! تبيح له أن يعبث بتراب المملكة! ليس هذا فقط: بل تحث المواطنين البلهاء ان يقدموا له المساعدة لتمكينه من عمله في سرقة كنوز وادي الآجال وغير وادي الآجال.

استيقظ آميس بن أمود على الصراخ وجاء الى المجلس وهو يفرّك عينيه الناعستين بكلتا يديه. قبع بجوار الشيخ الذي داعب شعر رأسه كأنه يقدم له الاعتذار.

آهر أيضاً استيقظ. رآه غوما وهو يتسلل نحو أحراش النخيل جهة الرملة يحمل وعاء الماء كي يقضي حاجته ويؤدي طقوس الوضوء.

سأل غوما:

ـ ولكن ما دخل التبروري؟ إنني لا أفهم...

تنهد الرجل متعباً. رفع صوته مرة اخرى:

ـ لعنة الله على التبروري. زرته منذ ايام وطلبت منه ألا يستسلم لاغراءات الطلياني ويسمح له بالتنقيب في مزرعته. سبق للرومي الملعون ان حاول مع مصباح القطيعي ولكنه تلقى الرفض. الصحّة لمصباح القطيعي. الله يعطيه الصّحة. لم يردّني ولم يخذلني. لا أخفي عليك أني سبقت الطلياني اليه بمجرد ان علمت بنيّته وملأت رأسه حتى لا يركع لسلطان المال. الرومي يغري بالمال. يقال أنه دفع للتبروري ثلاثمائة جنيه مقابل الحفر فتنازل الطماع عن السانية ولكنه لم يوقع العقد بعد. جئتك كي تتدخل وتمنع الصفقة.. كنوز وادي الآجال كلها ترقد في الاجزاء الملاصقة للرملة بجوار سانية التبروري.

ـ ليس لدي أي سلطان على التبروري. السانية سانيته وهو حرّ في أن يبيعها للطليان او للشيطان...

ـ يا شيخ غوما الأمر ليس شخصياً. حاولوا ان يسرقوا وطننا في الماضي بالسلاح ففشلوا وها هم يعودون بالقناع الجديد كي يسحبوا كنوزنا من بين ايدينا بل ونقدّم لهم المساعدة كما يطلب المحافظ الأبله في الاذونات الممهورة بتوقيعه... كنوزنا في خطر...

ـ لم اسمع بوجود هذه الكنوز الآ على لسانك.. أين كانت هذه الكنوز في الماضي قبل ان يأتي الرومي للبحث عنها؟

ـ في وادي الآجال، في الاطراف الغربية الملاصقة للرملة من سانية الطماع الأبله رابح التبروري. هل تريد المزيد من المعلومات؟

ـ يجب ان تتفاهم مع الشيخ آهر...

ضرب الزائر كفاً بكف وتمتم يخاطب نفسه:

ـ ضاعت الكنوز. سوف تضيع. ستحاسبنا أرواح الجرمنتيين. ستغضب أرواح الشهداء المغدورين برصاص الطليان.

ـ أنت تريد أن تنتقم. كل الناس تقول أنك تقاوم اعمال الحفر لأنك تريد أن

تنتقم من الطلياني الذي لا ذنب له الا انه من قوم اجبروك في يوم ما ان تطلق النار على أمّك. الناس الجائعة يرون في الشركة نعمة نزلت لهم من السماء. كل الشباب التحقوا للعمل بها. موري في نظرهم الملاك الذي أنقذ عائلاتهم من الجوع.

ـ للمساكين البلهاء عذرهم. الأهالي معذورون لأنهم يجهلون حقيقة المهمة التي يقوم موري بتنفيذها تحت ستار البحث عن الآثار. إنها البحث عن الذهب. لماذا لا تسأل مغري؟ إنه عليم بأسرار كثيرة. قال أن الطلياني يتقاسم الثروات التي يعثر عليها مناصفة مع المحافظ.

ـ هذه تهمة خطيرة..

ـ بإمكانك ان تسأل مغري إن كنت لا تصدّق. اسأله بالله! إنه يعمل مع موري منذ البداية وهو اقرب العمال اليه.

ـ لم يقل لي مغري شيئاً من هذا. ولا اعتقد ان موري عثر على اي ثروة.

ـ بل عثر. عثر منذ شهرين على أساور وحلي في المقبرة على سفح الجبل المطل على قراقرة. سافر بها الى روما بدعوى فحصها وتحديد تاريخها فتركها هناك وعاد محملاً بالأموال والهدايا لجناب المحافظ.

رفع يديه نحو السماء وكبّر في حركة استعراضية:

ـ لك الله يا أمنا الصحراء.

نهره غوما وهو يلتفت نحو الاكواخ:

ـ قلت لك أن تكف. أيقظت الدنيا وأقمت القيامة. هذا لا يليق... الأفاضل يسبّحون لله في مثل هذا الوقت وأنت تلعن القاصي والداني.

ـ ألعن الأرواح الآثمة واحاول أن أنقذ ثمارنا الدفينة في الارض.

ـ لا اعرف ثماراً دفينة في الأرض غير الترفاس.

ـ وأنا لا اعرف الترفاس لأنني لم اعش في الحمادة الحمراء يوماً واحداً. قضيت عمري في «مساك ملّت» ولم يحدثنا الاجداد الا عن الاساطير التي تؤكد

وجود الكنوز التي تركها لنا الجرمنت في وادي الآجال. هذه ثمار الارض الرملية. ثمـار تصلح لأن تنافس ترفـاس الحمـادة الحمـراء. أليس كـذلك؟ لا بـد ان تمنع التبروري من توقيع العقد. الجرمنت خبأوها هناك في بئر عميقة. حصّنوها بالأحجار وأهالوا عليـها التـراب في العـام الثالث لغـزوة الرملة. يقـال إن روح تـانس سكنت القمـر وأوحت للجرمنت ان يدسوا ثرواتـهم بالخسـوف. حلّ الخسـوف في العام الثالث من بداية العاصفة وكان ذلك إيذاناً بسيطرة الصحراء الرملية على الدنيا فسارع الجرمنتيون بحفر المطامير لكنوزهم.

تمتم غوما وهو يستمر في مداعبة رأس الصبي:

ـ هذه تفـاصيل جديـدة في الاسطورة. لم اعرف أن تانـس اتخذت من القـمـر مأوى لها. هذه تفاصيل مجهولة يا آجّار فهل هي من تأليفك؟

ـ استغفـر الله. كل الجوالين في صحراء مساك يعرفون هذه التفاصيل. أنا لا أؤلف الأسـاطير يا شيخنا. أنا اكرر ما سمعته. الحقيقة المرّة أن كنوز الصحراء مهددة. اذا لم تفعل شيئاً فإنها ستسقط قريباً في أيدي الأعداء!

ثم هبّ واقفاً وردّد مأخوذاً:

ـ سيلعنوننا في قبورهم إذا سكتنا..

ثم توجه نحو الجبل. هتف له الشيخ باقتراح قبل أن يعبر الاكواخ الى الخلاء المحاصر بين الجبل الشرقي والشريط الاخضر في قلب الوادي:

ـ يحسن بك أن تبلّ ريقك بكأس الشاي قبل أن تهيم على وجهك في البراري.

ولكن آجّار لم يلتفت.

أطلّت الشعاعات الذهبية وتدفقت فوق القمم الصلعاء وهي تتلامع وتتغامز كذرات الرمل عندما ينعكس عليها ضوء الشمس.

أقبل الشيخ خليل.

تقرفص في مواجهة غوما فأطلق الشيخ سراح آميس.

قال خليل:

ـ سمعت ضجة آجّار. ماذا دهى هذا الدرويش حتى يقلب الدنيا بالعويل من فجر ربّي؟

ـ حتى آجّار لقبتموه بالدرويش؟ متى تدروش بالله؟

ـ يمزق اللباس على صدره ويخدش خدّه ويطوف بين الاكواخ داعياً لحماية الكنوز المزعومة من يد العالم الطلياني. أليست هذه دروشة؟

ـ الله أعلم. ربما كان ما يقوله صحيحاً. ماذا أدراك؟

ضحك خليل وارتخى قناعه الباهت عن أسنان صفراء ووجنتين شاحبتين. الشحوب يغزو وجه خليل يوماً عن يوم. قال:

ـ لو كانت كنوز الجرمنت مدسوسة في خبايا السانية لما تخلّى عنها التبروري الطمّاع. التبروري طمّاع. آجّار على حق.

ـ التبروري لم يتخلّ عن شيء حتى الآن. ما الذي أدراه ان الكنز لا يرقد تحت رمال سانيته؟

ـ لأنه حرث الدنيا وحفر السانية بالطول والعرض والعمق ولم يجد شيئاً. فعل ذلك منذ زمان. هو نفسه قال ذلك. كان يضحك حتى يرقد على قفاه ويسخر من نفسه بسبب المقلب. صدّق الخرافات. قال أنه اشترى السانية خصيصاً طمعاً في الكنز المزعوم. ولكن الأساطير التي خدع بها في البداية أفادته في النهاية وها هو يستخدمها في غش الطلياني ويسحب من جيبه ثلاثمائة جنيه مقابل الحفريات فقط. ربك يرزق المجانين وهم نيام تحت النخلة فتسقط على رؤوسهم اصابع الذهب بدل حبّات البلح. هذا ما حدث مع التبروري الطمّاع. حظ! ولكن آجّار استطاع ان يقنع القطيعي ويوقف تعامله مع الرومي. ألم يحدثك كيف فعل ذلك؟ مصباح القطيعي لا يقل شراهة للمال.

ـ لا تنس أن أباه يرقد في الصحراء صريعاً برصاص الطليان.

ـ وما دخل الطليان هنا؟

ـ أجّار يراهن على هذا الحصان. يقول أننا طردناهم من الباب فغافلونا ودخلوا من النافذة بمساعدة المحافظ وغير المحافظ. فشلوا في أن يسرقونا بالقوة

فاحتكموا الى الحيلة وقرروا أن يستغلوا جهلنا بمواقع ثرواتنا.

ـ يا له من لئيم!

ـ لا أرى سبباً لوصفه باللؤم!

ـ يريد أن ينتقم. دفعوه لقتل أمه في الماضي فانتظر طوال هذا الوقت كي يرد كيد الكابتن بورديللو الى نحر موري المسكين.

ـ حذّرته من ان الناس ستقول ذلك! حذّرته من ألسنتكم ولكنه لم يتراجع ولم يهتم. شجاعته تثير إعجابي. لا أريد أن أجاملك فأخفي إعجابي به ارضاء لكم!

ـ جميعنا نملك الحق في الادلاء بآرائنا فما دخل المجاملة؟ هذا لن يخلصه من الدروشة ولن يصنع منه قديساً في نظر الناس.

جاء آهر بطبق صففت عليه كؤوس شاي متوجة برغوة شهية وبضعة قطع من الكعك.

واصل خليل حديثه متسائلاً:

ـ ولكن هل تريد حقاً ان تقف الى جانبه ضدّ الطليان؟ لا تنس أن موري أحيا الوادي وشركته وظّفت كل الشباب. موري يعوّل كثيراً على مساندتك في عمله بالاستناد الى خبرتك وعلمك. قال لنا ذلك منذ أيام بحضور آهر.

هزّ آهر رأساً موافقاً فواصل خليل:

ـ يجدر بك أن تفكر يا شيخنا قبل ان تتخذ خطوة قد تعرقل عمله وتجر على الوادي الموت بعد الانتعاش.

قاطعه غوما:

ـ هل اشترانا موري بشركته؟ هل اشتراكم بأمواله؟ لن أسمح لأحد بأن يشتريني. لن استشير احداً عندما اتخذ قراري.

تدخل آهر لأول مرة:

ـ خليل لم يقصد. لا ينوي احد شراء أحد ولكن فضل شركة الآثار على

الوادي واضح وقد لمسه الجميع. لقد وفّر الخدمة لطوابير الشباب.

جاء آميس للعودة بطبق الشاي فأمسك خليل بمعصم الطفل وقال يداعبه:

ـ تعال هنا أيها الشقي! لماذا لا تسلّم على عمّك؟ كيف حالك؟

قال الطفل بسذاجة وهو يعبث بفتحة أنفه:

ـ عمي آجّار قال أن تانس انتقلت الى القمر وسكنت هناك. جدّي لم يحدثني بذلك في الخرافة.

عقد خليل حاجبيه مفتعلاً الدهشة:

ـ حقاً؟ هل قال آجّار ذلك حقا!؟

ضحك آهر وابتسم غوما. استمر الطفل:

ـ قال أيضاً أنها دست الكنوز في سانية عمّي التبروري.

قدّم له آهر طبق النحاس وهو يغالب الضحك. ضحك خليل أيضاً.

أمسك الطفل الطبق بيدين مرتعشتين واختتم قصته:

ـ عمّي التبروري باع السانية للطلياني. عمّي آجّار طلب من جدّي ان يمنع التبروري وينقذ كنز تانس!

ثم أسرع في خطوه وغاب داخل الكوخ.

قال خليل وهو يرفع طرف لثامه حتى يغطي أنفه:

ـ يبدو أن صباحنا اليوم شهد أحداثاً وأساطير ايضاً. لم اسمع في حياتي رجلاً يحكي الاساطير مع مطلع الفجر. حقاً إن آجّار معتوه هيء ـ هيء ـ هيء...

تحولت ضحكة خليل بعد قليل الى سعال حاد. وفجأة التفت خلفه مغالباً نوبة السعال. بصق دماً. تقيأ دماً كثيراً.

تبادل آهر وغوما نظرة طويلة.

ساد صمت طويل.

استأذن خليل وعاد الى بيته فسأل غوما:

- هل كنت تعلم بمرضه؟

هرب آهر بعينيه الى قمة الجبل الشرقي. هزّ رأسه بالايجاب.

سأل الشيخ:

- منذ متى؟

- منذ نزولنا الوادي.

- وكتمتم عليّ الأمر؟

- وماذا تستطيع أن تفعل من اجله؟

- العلم بالشيء ليس كالجهل به. من حقي أن اعرف.

ثم قال بصوت حزين:

- هل استفحل الامر؟

واجهه آهر. أجاب بقسوة:

- نعم. زوجته تقول أنه يعاني ايضاً من داء المعدة الى جانب الرئة. معلول من زمان!

- يا حفيظ!

نكس رأسه وصمت. جاء آميس بالدور الثاني من الشاي. تناول غوما الكأس وغرسها أمامه في الرملة. تساءل:

- هل جرّب الاعشاب؟

- جرّب كل شيء.

- ولكن لماذا أخفى الامر؟ المرض كالموت قدر الانسان فلماذا التكتم؟

ـ هو صبور ويائس. صبور في يأسه ولا يرى فائدة. انا نفسي لم اعرف إلا من النسـاء . زوجتي علمت من زوجته.

ـ اذا عرفت النسـاء فلا اشك في ان الخبر على كل لسان، ونبقى نحن آخر من يعلم. أبقى أنا آخر من يعلم. إنني اشعر بالخجل!

ـ حتى لو علمت فماذا ستفعل؟ داء المعدة يفوق إرادة الانسـان.

غوما وجد الفرصة فوبخ آهر:

ـ تعـاملونني كطفل فتـدعـمـون من يروق لهم ان يطعنوا في قـواي العقليـة ويتهمونني بالتخريف.

ـ معاذ الله.

ـ لا أخجل من أن يرى فيّ الناس طفلاً لأن كل الرجال الشـرفاء الصـادقين هم اطفال كمـا اتفقنا في الجوهرة ولكني لا اطيق أن يتهامس القاصي والداني بالأسرار خلف ظهري كأنهم يتآمرون ثم يأتون ويبتسمون في وجهي كالبلهاء. من حقي ان اعلم بمرض خليل.

ـ سبحان الله. قلت لك انك لن تستطيع ان تفعل من أجله أي شيء.

ـ هذا موضوع آخر.

ـ سبحان الله. ربنا يهديك. انا نفسي لم اعرف إلا منذ شهور.

رمقه غوما بنظرة غاضبة ثم نهض واتجه صوب الاكواخ المصففة عند اعتاب السفح الشرقي.

# 3 ـ الرّملة

اجتاز الضفة الشرقية للأكواخ ثم انحرف عند بيت مغري ويمم صوب السلسلة الجبلية الصلعاء. هام على وجهه في العراء الفاصل بين مستعمرة الاكواخ والجبال المهيبة. بلغ مقابر القدماء عند السفح. ركن هناك حتى الاصيل. ثم انحدر ببطء ومشى بمحاذاة الطريق الذي يشق الواحات منحدراً نحو الجوهرة في الشمال. وقف خارج كوخ آجَار الملاصق لحضيض الجبل. انصت فلم يسمع سوى السكون. كرر عدة مرات: «السلام عليكم» فلم يرد أحد. قبل ان ينصرف سمع ثغاء المعزاة في الزريبة كأنها تجيب على تحيته نيابة عن آجَار. ابتسم ودخل الغابة الغربية. غابة النخيل تقف حارساً على الوادي من الغرب وتحمي المزروعات من فيضان الرملة. جبال الرمل تقف مهددة، وراء شريط الغابة مباشرة. تمد ألسنتها الساخرة فتعبر شريط الحدود وتنال مواقع جديدة داخل أسوار السواني. يطيب لها ان تتراجع ايضاً في بعض الاحيان عندما تهب الرياح الشرقية. يروق لها احياناً اخرى ان تبدّل مواقعها. تسحب لسانها من سانية القطيعي لتردم به زرع التبروري أو العكس. الفلاحون يعرفون انهم وقعوا تحت رحمة الصحراء الرملية منذ تخلت الآلهة عن مساندة الجبال وتزويدها بالسحب المحمّلة بالامطار. المطر وحده عدو الرملة. والمطر في الصحراء الكبرى تراجع منذ آلاف السنين. ولذلك عمد الفلاحون الى التعامل مع الرملة بأسلوب جديد. اصبحوا يتوددون لها بالتعاويذ، وكثيراً ما ينحرون الذبائح وينذرونها للرملة كقرابين. يرق قلبها وتستجيب احياناً. ثم تغضب لأتفه الاسباب وتعلن عليهم الحرب. لم تعرف الصحراء الكبرى حاكماً مغروراً، مستبداً، ومزاجياً مثل الرملة. فقرر الفلاحون ان يقدّموا له الرشاوى في شكل قرابين. يعمد بعض الفلاحين لذبح قرابينهم سراً ويدعّموها بالتعاويذ تنفيذاً

لنصائح العرافين، في حين يعمد آخرون الى نحر الذبائح في النهار ويحرصون على أن يطعموا منها الفقراء والجائعين ويدعمون الذباح عادة بفرق الفقهاء التي تقرأ القرآن جماعياً. الفريق الاول يستعين بسلطان الجن ويلجأ الفريق الثاني لاستعطاف الملائكة كي تتوسط لدى الرملة وتمنع ألسنتها من اقتحام اسوار السانية، أو تحنّ وتنقل مشروع لسانها الى الناحية الاخرى: في سانية جاره!

وقف غوما ينظر باعجاب الى عمل الرملة في تغيير السواني. قبل رحلته الاخيرة الى عاصمة الواحات ترك هنا مرتفعاً عالياً يداهم شجيرات النخيل الناشئة ويتطاول الى نخلات ارتفعت سيقانها فوق مستوى الارض عازماً ان يوقف تقدمها نحو السماء. الرملة تراجعت عن تنفيذ هذه النية فحوّلت مشروعها الى السانية المجاورة بعد هبوب الرياح الاخيرة. ويبدو ان القديري (صاحب السانية الاولى) قد أفلح بواسطة القرابين في تحويل الشرّ الى جاره!

ابتسم الشيخ وواصل طريقه نحو سانية التبروري.

قبل ان يبلغ سور الجريد سمع هدير السيارات أولاً. ثم تبين اصوات العمال وهي تتداخل وتتنادى وتتزاعق. اقترب من الموقع فعلا اللغط وارتفع الضجيج. استغل موري الوقت واستعجل الحفر قبل ان يفلح أحد ما في الضغط على رابح التبروري فيتراجع.

سحب الغبار ارتفعت فوق السانية.

بدأ موري حفرياته بمهاجمة مرتفع رملي مهيب يجثم فوق طرف السانية الغربي. سيارات مكشوفة مليئة بالرمال. وحمير تجرّ اكياس التراب. وعمال يتصايحون، وسحب الغبار تغزو وترتفع.

تفرّج غوما على القيامة من موقع آمن خلف نخلة كثيفة لصيقة بالارض. ثم مشى بين جداول المزروعات واتجه الى كوخ التبروري في نهاية السانية، في الطرف الجنوبي.

هددت الشمس باحتلال العرش.

تململت الارض ولكن الحر ما زال محتملاً. نهاية مارس. الجحيم ما زال مخبأ في الايام القادمة.

استقبله التبروري قبل ان يبلغ الكوخ. وقف بجوار الساقية يقلّب الارض ويوزع الماء بين الجداول العطشى. مدّ له ذراعه مصافحاً. كانت يده ملوّثة بالطين والوحل فاعتذر وقال:

ـ يا مرحبا. يا مرحبا. شيخنا العظيم غوما بنفسه يشرفنا بزيارته. هذا فأل حسن. إني أستبشر خيراً بزيارتك. هل رأيت كيف انتعش الوادي ودبت فيه الحياة منذ نزلته؟

نفض الماء عن يديه ثم صاح صوب الكوخ:

ـ يا بنيّة! يا بنيّة! الشاي. هاتوا الشاي!

قال غوما:

ـ دعنا من المجاملة. العظمة لله وحده. ثم اني تركت العظمة والمشيخة للشيخ آهر.

اعترض التبروري وهو يتقدمه نحو الكوخ:

ـ من يستطيع ان ينزع عنك العظمة؟ أنت إله الصحراء رغم أنف الكارهين. والمشيخة لا معنى لها بدونك. تركت لآهر اللقب ولكن هيهات ان يملأ الفراغ الذي تركته. انت شيخ الصحراء الى الأبد والقبيلة ما هي إلا جزء صغير من الصحراء العظمى.

اندفع داخل الكوخ وعاد بحصير متآكل. افترشه على الارض ولكن غوما كان قد جلس على الرمل العاري. دعاه الى الحصير ولكن غوما رفض بهزة من رأسه. قال بمرح:

ـ لم أفترش في حياتي فرشا افخر منه ولم ألمس أنعم منه. إنه اكثر نعومة من الحرير وأجمل شكلا من كليم توات فلماذا أدمي أطرافي بأعواد الحصير؟

اقتعد الفلاح القرفصاء. وافقه:

ـ معك الحق. هذا منطق الصوفيين ايضا. سمعت الغالي يتكلم بمثل هذه اللغة. ولكن ماذا نفعل اذا كان الشيطان يقودنا من أنوفنا؟ يجعلنا نترك هذا البساط

الناعم ونصنع الفرش من الاشواك.

ـ ما دمت جئت على سيرة الشيطان فلديّ أمر يتعلق به: آجّار يتهمك بالجشع وبرضوخك للشيطان والمال. فهل اشترى موري ضميرك حتى تسلم في كنوز الصحراء؟

ـ ها ـ ها ـ ها... يا له من درويش. حقاً إن آجّار قد تدروش في الايام الاخيرة. لا انكر أني أحب المال حباً جماً. هه ـ هه.. ولكن هذا الأبله لا يعرف أني أشبعت هذه السانية حرثاً وحفراً بحثاً عن كنوزه المزعومة.

ضحك مرة اخرى وهو يستلقي الى الوراء ويكشف عن أسنان صفراء. طول أسنانه لا يتناسب مع قامته القصيرة. قامته قصيرة جداً حتى أن بعض الحاقدين من الاهالي لقبوه بـ« القزم ». وقد انضم آجّار اليهم اخيراً ووصفه بـ« القزم » اكثر من مرة. تذكر غوما ذلك وهو يتابع اعتراف رابح. جاءت صبية نحيلة حافية القدمين تحمل طبق الشاي. وضعته بينهما وأحكمت الغطاء على رأسها وعادت الى الكوخ. طنت أسراب الذباب وتزاحمت حول الكأسين. تتابعت الأسراب وغزت الطبق. بعد لحظات اسود الطبق النحاسي بسبب الذباب.

تابع غوما الأسراب ولكنه لم ير ذبابته الزرقاء ذات الاجنحة الموسيقية. بل إن نوبة الغياب لم تعاوده منذ صرع تلك الذبابة الجميلة.

شعر بحنين غامض الى الذباب.

هجم التبروري على أكوام الذباب وطردها بحركات متتالية من يده. ثم مدّ له بكأسه. انحسر مستوى الرغوة ولعق منها الذباب فأحس الشيخ بالاشمئزاز. التبروري شرب كأسه في رشفتين كبيرتين ثم واصل اعترافه بشأن الكنز:

ـ أقول الحق. لم أشتر السانية الا طمعاً في الذهب. الأساطير التي تتحدث عن كنوز القدماء في السانية ليست سراً في وادي الآجال. سمعناها من جداتنا ونحن اطفال. ولكن الشائعات هي التي حددت مكان وجود الكنز في هذه السانية وليس أساطير الأولين. قررت أن أقطع الشك باليقين واشتريت السانية واستعنت بالعرافين وقارئي القرآن. أكلوا ماعزي وشعيري وأفلسوا جيبي وقالوا إن الجن استولوا على الكنز وتركوا الرماد! لقد وجدنا كوماً كبيراً من الرماد في حفرة شمال غرب

السانية ولكن الذهب طار. فهل تشك بعد كل هذا في وجو الكنز بالسانية؟ أنظر الآن الى الرومي الأبله وهو يغرس وجهه في الرملة فأضحك في قلبي. لقد سحبت من جيبه ثلاثمائة جنيه مقابل الحفريات فقط. هل تتصور؟ لا شك ان المبلغ هو الذي حرق قلب آجّار الدرويش ودفعه لتأليب الاهالي ضدي. هه ـ هه... الأبله!

تابع الشيخ سحب الغابر فوق قمم الاشجار الغربية وأنصت لصياح العمال وأزيز السيارات ثم تناول عوداً صغيراً وحرث الارض. قال:

ـ ولكن لا تنس أن موري يهتدي بخريطة؟

ـ خريطة؟

ـ هؤلاء النصارى لؤماء وينافسون الآلهة في امتلاك الاسرار. أخشى ان يكون عليماً بموقع الكنز إذ دفع مبلغاً كهذا.

ـ لقد قال أنه يبحث عن المدينة القديمة وليس عن الذهب.

ـ يقولون ما لا يفعلون.

ـ ولكن لا تنسَ يا شيخنا أنه يتحدّى الرملة. يتحدّى الله. ارادة الرملة من ارادة الله. انظر الى ذلك الجبل الذي ينوي الاطاحة به. ان هذا الجبل يكفي لقهر ألف موري وألف رومي آخر.ـهيء ـ هيء...

ـ هل الرملة إله أم شيطان يا رابح؟

ـ ها نحن نعود الى الشيطان مرة أخرى. ماذا تقولون عن الرملة؟ ماذا تقولون عن هذا المارد في أساطيركم؟ هل هي إله أم شيطان؟

ـ حاكم مستبد وشيطان رجيم!

ـ اذاً لا مفر من استعطاف الرملة وتقديم القرابين الى جنابها. الرملة حليفة الجن ولن تتساهل مع الأغراب فتمنحهم ثروات حلفائها المدللين. هكذا يجمع العرافون وكذلك الفقهاء.

ـ النصارى خطرون وعليمون بالأسرار. قادرون أن يضحكوا على الرملة ويخدعوا الجن ويضعوه في زجاجة ويحكموا اغلاق السدادة. أنت لا تعرف الروم!

ألقى بالعود جانباً واختتم:

- أنا لم آمَنْ جانبهم في يوم من الايام!

جاءت الفتاة بالدور الثاني من الشاي. الطبق يعلوه الذباب. هشّت السرب اللحوح ووضعت الطبق بينهما.

أكد التبروري:

- هو يبحث عن المدينة. عن جرمة القديمة. صحيح أن الروم دهاة ولكنهم لا يكذبون أبداً. هل حصل وسجلت على أحدهم كذبة واحدة؟ انت عاشرتهم أكثر منا.

ارتفعت أصوات الحفارين في اغنية منتظمة حزينة. كانوا يغالبون التعب والحر. التفت التبروري وقال ضاحكاً:

- انظر كيف ينفق المال والجهد في سبيل شيء لا وجود له. انظر بالله كيف يثار التراب في الهواء. حقاً إن موري مجنون. وعلى الرغم من ذلك فهو يثير اعجابي يا سيدنا الشيخ. هل تعلم؟ اظن أنه لا يحارب الرملة إلا معاند وكافر مثل موري. هه. هه...

تمركزت الشمس في قلب السماء واستوت على العرش.

استأذن الشيخ للانصراف.

# 4 ـ المومياء

انتعشت الحياة ودبت الحركة في الوادي بعد مجيء موري. جاء برفقة مجموعة من الطليان الملتحين. تفقدوا سلسلة الواحات الهاجعة في قلب الوادي. طافوا العراء الملاصق للجبل الشرقي. تسلقوا سفوح السلسلة ثم نزلوا. قطعوا الوادي الى السلسلة الرملية. كانوا طوال ذلك الوقت يدونون الملاحظات في كراسات صغيرة. يمسحون العرق على جباههم. يشربون البوظة ويلقون بالعلب الجميلة على قارعة الطريق. تولّى موري قيادة الفرقة الزائرة. يمشي أمامهم بنشاط لا يتناسب مع سنّه واكتناز جسمه والشيب في شعره. وحتى عندما يهجع رفاقه الى الراحة، في الخيمة المنصوبة في العراء المفضي الى الجبل، هرباً من حرّ القيلولة، فإن موري يستمر في التنقل بين احراش النخيل وكثبان الرملة والسلسلة الجبلية. ويروق له اثناء ذلك ان يرفع عقيرته بأغاني النصارى التي تشبه نواح الفلاحات وهن يرفعن أصواتهن بالمراثي. كان موري يتنقل مرحاً، متودداً الى الاهالي، ينزع قبعته المصنوعة من القش وينحني في احترام. يؤدّي التحية كلما قابل فلاحاً ثملاً على ظهر حمار، او التقى فلاحة تحمل سلة عائدة من الحقل، أو مرّ بتجمع للأهالي عند جدار الجامع أو في ظل دكان. ويطيب لموري أن يتودد لآجّار بشكل خاص. فينتزع قبعته ويلوّح له بيده الأخرى، وهو يمر أمام كوخه الوحيد المجاور للجبل. يرطن بلغته الطليانية، ملحناً الكلمات، ممدداً في قامة الحروف المتحركة:

- Buo-o-o-n-a-a Se-e-r-a, Signor Ag-gar, Buo-oona Se-era!

تنكشف أسنانه عن ابتسامة بلهاء. يحتفظ بهذه الابتسامة حتى يغيب عن

---

* مساء الخير، سنيور آجّار، مساء الخير. (إيطالي).

الانظار. وعلى الرغم من أن آجّار يتعمد أن يتجاهل تحيات موري ويقابل تودده بخشونة وجفاء إلا أن ذلك لم يجعل الطلياني يتنازل عن لطفه ولم يحمله على التراجع عن أسلوبه في مخاطبة الاهالي ولم يغير من معاملته لآجّار نفسه. أستمر ينحني له كلما رآه في الطريق. يشيح آجّار بوجهه، ولكن موري لا يكف عن ملاحقته بـ: « Bouna Sera » المميزة، التي يتعمد موري أن يتغنّىَ بحروفها المتحركة.

حاول آجّار أن يتحاشى الطلياني. اعترف أكثر من مرة للغالي شيخ الطريقة الصوفية أن هذا «الرومي الاشعث» - كما سماه - يثير اشمئزازه! وقال للقطيعي في مناسبة أخرى: «الله وحده يعلم ما سيراه الوادي من شرّ على يدي هذا النصراني ألا ترى ذلك في ابتسامته؟ ».

ولكن أحداً لم ير في ابتسامة موري أي شر. ويبدو أن كراهية آجّار له شجعته أن يستفزّه بالترحيب كلما قابله. فيقف ويفتح ذراعيه بحركة استعراضية ويتدفق فمه بالتحية. فيضطر آجّار أن يفلت يميناً أو يساراً وكثيراً ما هرب عائداً على عقبيه متمتماً بالشتائم. وكانت هذه المناورات تثير المارة: فينجح البعض في كتمان سخريتهم وينطلق آخرون بالضحكات.

وما ادهش الاهالي وأثار اعجابهم بموري هو هذه الروح المرحة المتسامحة التي قابل بها الطلياني حملة آجّار. فكلما اشتدّت الحملة وتناقل الناس الاخبار، كلما صعّد موري من مداعباته لغريمه واختلق أنواع الاستفزاز. بل ذهب الى أبعد فانتحل الاعذار لـ« قاتل أمّه » وقال أن ما فعله به الطليان هو السبب. حقده القديم على الغزاة هو السبب. قال بالحرف: « ولكن ما ذنبي أنا؟ هم جاؤوا كغزاة ليستعبدوا ويستبّدوا وجئت أنا كرسول لأساعدكم على اكتشاف تاريخكم المغمور تحت الرملة. مهمتي تناقض مهمتهم. لهم دينهم ولي ديني » فكسب الداهية الجولة عند العقلاء فوقفوا الى جانبه ودعموه في البحث عن الآثار المطمورة في سانية التبروري واتهموا آجّار بإثارة الأحقاد النائمة وإحياء النعرات القديمة.

ولم يكتف الرومي بهذه المناورة ولكنه تقدم خطوة أخرى بمجرد أن اطمأن الى كسب العقلاء. أطلق في الوادي شائعة نالت من كبرياء « قاتل أمه » واطاحت بسمعته في القبيلة خاصة بين النساء. وقد أثارت هذه الشائعة الموهوبات منهن فتلقى آجّار قصائد الهجاء بعد أيام قليلة.

تقول شائعة موري أن أجّار ركع في النهاية في سجون مرزق وتنازل وشرب البول بعد أن هدّه العطش عندما سجنه الكابتن بورديللو قبل أن يأتي بفعلته البشعة في حق أمه. ومضى موري في قصته المثيرة فقال أن لديه معلومات أخرى أكيدة تقول أن آجّار الذي يتبختر الآن بين البيوت كالطاووس مدعياً أصوله النبيلة هجم على جردل صديء قديم وتناول منه الطعام عندما نهشه الجوع في سجن مرزق نفسه!

ولم يفت الأهالي أن يستنطقوه عن مصدر المعلومات فأجاب أن صديقاً له اشترك في حرب الصحراء أخبره بها.

هذه «المعلومات» أجبرت آجّار أن يزيد في انطوائه ويلزم كوخه بسفح الجبل وألا يخرج منه إلا كي يلجأ الى الخلاء المجاور ليجلب الحطب من اشجار الطلح. الشيخ غوما هو الوحيد الذي دأب على زيارته في عزلته. رفض في الايام الأولى لانتشار الرواية أن يفتح باب الكوخ حتى للشيخ غوما. ظلّ الكوخ موصداً حتى كادت المعزاة المربوطة في الزريبة المجاورة أن تموت من العطش والجوع. كان ثغاؤها الحاد يمزق السكون ويسمع في الاكواخ المتناثرة في قعر الوادي.

اضطرت بعض الفلاحات أن يحضرن لها الماء وحزمة من البرسيم الاخضر. ولكن ذلك لم يجعل آجّار يظهر حتى قال الناس إنه أضرب عن الطعام والماء خصيصاً لكي يقدم البرهان على قوة صبره فيطعن في رواية موري بشأن رسوبه في الامتحان أمام بورديللو!

مضت عدة أسابيع قبل أن يخرج «قاتل أمه» من عرينه بتلك الشائعة المضادة!

تسكع في الخلاء المحاصر بين الأكواخ وحذاء الجبل حتى تعب ثم توجه الى الدكاكين وعبر حلقات الاهالي الذين يطيب لهم أن يعقدوا الجلسات قبل حلول القيلولة ليتبادلوا الشائعات. لم يطلق عليهم التحية وذهب الى الجامع وجالس الغالي هناك حتى القيلولة.

في اليوم التالي مباشرة روّج الغالي (شيخ الطريقة وخطيب الجامع) لشائعة شنيعة تتهم موري بالاشتراك في الحرب ضد الليبيين.

قال الغالي في مجلس العشية:

ـ الظن إثم ولكن هذا ليس ظناً. محدثي أكد أن الطلياني عمل برتبة ملازم في جيش الغزاة. رآه من شق الباب في حبس مرزق. جاء برزمة من الاوراق وتحادث مع بورديللو طويلاً قبل أن يعود الى طرابلس.

هبّ أحد الحاضرين يطعن في المعلومة:

ـ حرام عليك يا غالي. انت شيخ وقور ولا يليق أن تدخل طرفاً في هذا النزاع. محدثك لم يكن سوى «قاتل أمه»، الذي يناصب النصراني العداء لأسباب يعرفها الجميع. وأغلب الظن أنه لم ير موري من شق الباب في سجنه وانما رآه في خياله عندما حبس نفسه وطالت به العزلة في كوخه.

هنا فوجىء الجمع بالغالي يقفز من مكانه ويهدد المتحدث بسبابته:

ـ كيف تجرؤ وتسفّه كلامي؟ كم دفع لك الرومي حتى تدافع نيابة عنه؟ عشنا وشفنا المسلم يطعن في أخيه المسلم انتصاراً للنصراني. أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً. هذا حديث شريف أيها المرتشي، المتآمر الذي لا يتأفف فيلعق دم أخيه حياً! لا أريد أن أكون سفيهاً مثلك فأصفك بأنك جاسوس ومدسوس!

ثم انسحب من الاجتماع غاضباً فانقسم الجمع الى فريقين. فريق يرى أن الغالي على حق ولا يجوز الوقوف الى جانب موري حتى لو كان على حق في حربه ضد آجّار. والفريق الآخر يرى أن الاحتكام الى العدل هو شريعة المسلمين ولا يجوز الانحياز لأحد الطرفين على حساب الحقيقة حتى لو كان أحد هذين الطرفين نصرانياً يعتنق دين عيسى ابن مريم!

ولكن ماذا لو ثبت حقاً أن موري هو جندي متستّر من جنود الجنرال بالبو أو السفاح الآخر غراسياني؟

شهدت الايام التالية نشاطاً مكثفاً. روّج آجّار لتهمته مؤكداً أن لديه شهوداً ما زالوا على قيد الحياة يستطيعون أن يثبتوا اشتراك موري الداهية في الحملة الايطالية الاولى للسيطرة على فزّان.

تضاربت الآراء وطالب الغالي في خطبة الجمعة بضرورة التحقق من هوية

الطلياني واختتم خطبته الحامية قائلاً: «من العار يا جماعة أن نقف موقف الفرجة ونترك المجرم الذي قاتلنا بالأمس يعود اليوم ليدنّس مقدساتنا وينكش أمواتنا بدعوى البحث عن الآثار. هذا استهتار بأرواح الشهداء وجرح لمشاعر الأحياء!».

أفلحت لغة السجع في شحن الأهالي بالعداء فاجتمع الاهالي وقرروا البحث في هوية الطلياني. هنا قام آجّار وأشار عليهم بسؤال الشارف الزرقان شيخ مرزق الذي تعرّض للحبس والاضطهاد على يد المحتل بسبب موقفه الوطني فتطوع ثلاثة رجال وأبدوا استعدادهم للمجيء بالشيخ الزرقان.

شجعهم الغالي واقترح عليهم أن يعجلوا بالأمر ويركبوا البعير لاختصار المسافة بدل رحمة السيارات العابرة التي ستحملهم الى الجوهرة، ويعلم الله كم من الوقت سيمكثون هناك. وأكد أن الاعتماد على المواصلات العصرية سيضطرهم لإنفاق وقت أطول.

حملوا الماء والمؤن على حمارين وناقة وشقوا الطريق البري الصعب الذي يقطع السلسلة الجبلية التي تمتد في الشرق وتراقب الوادي البائس في حزن أبدي. هذا التعبير الحزين مرسوم على ملامح الجبال الشرقية ويتسلل الى قلب كل من يقف في قاع الوادي ويرفع نحوها رأسه محاولاً أن يقرأ في وجهها الكئيب فتروي له قصة الخلق والتاريخ الخفي للصخور. الاهالي يقولون إن سبب الكآبة التي تنطق بها صخور الجبل هي هزيمتها أمام المارد الآخر: الرملة! فتنعي لعابري السبيل غياب العدالة وتشكو لهم انحياز الآلهة الى عدوها الرملة.

الجبل الحزين اشتكى للرسل الثلاثة أيضاً ولكنهم سارعوا بالعبور نحو «مساك ملّت» وسلكوا طريق برجوج الذي أفضى بهم الى مرزق. مكثوا قرابة الاسبوعين وعادوا الى الوادي بوصية من الشيخ الزرقان. قالوا إن الشيخ فقد بصره منذ سنوات طويلة وذكر في حديثه أنه يذكر وجود الملازم الشاب ولكنه لا يذكر لا اسمه ولا رتبته. «والارجح أن اسمه باتريكو وليس موري. تردد على الكابتن بورديللو أكثر من مرة (لا يذكر عدد المرات) ولكن الله غالب. ربك قياد العفاريت. البصر يمنعني من وضع النقاط على الحروف وحسم المشكلة».

لم يخف الغالي خيبة الأمل ولم يؤثر ذلك في حماس «قاتل أمه» فجاء الى الجامع وأعلن أمام الجميع أن موري غيّر اسمه. ليس صعباً عليه أن يغيّر اسمه من

باتريكو الى موري أو الى أي اسم آخر. زوّر الاوراق التي تثبت اسمه الجديد. «انتم لا تعرفون هؤلاء الدهاة. ليس هناك أدهى من النصارى. انتم لا تعرفون. إنهم ينافسون إبليس في الشيطنة!».

ختم آجّار كلمته.

في ذلك الوقت كان موري قد قطع مشواراً طويلاً في عمليات الحفر.

أزاح التلة الرملية التي كانت تتربع على صدر السانية وتكتم أنفاس المزروعات والنخيلات في الطرف الغربي، وقضى على الألسن الترابية المتزاحمة في ذيل السانية الشمالي مهددة بشطرها الى نصفين وعبور الشريط الأوسط الى الضفة الشرقية المجاورة للجبل الحزين. ولم يزد النقاش حول هويته الحقيقية موري الا نشاطاً في الحفر ومثابرة في العمل. فقسم العمال الى فريقين: فريق يجاهد في زحزحة الرملة في النهار وفريق آخر يؤدي العمل في الليل على ضوء القمر أو تحت نور مصابيح الغاز في الليالي الظلماء التي يغيب فيها القرص الفضي. العجالة لم تؤد الى كسر أنف الرملة المتغطرسة فقط ولكن ساعدت في الوصول الى الأرض الصلبة في أعماق الوادي. انتظر الناس أن تنفجر ينابيع النهر الجوفية، خصوصاً أن مستوى الأنفاق والدهاليز المحفورة تجاوزت في العمق مستوى بئر السانية نفسه، ولكن الينابيع السفلية لم تنفجر بالماء!

يروق للتبروري في هذه الاثناء أن يمر على العمال المنهمكين في الحفر. يقف فوق رؤوسهم الملوثة بالغبار فيهز رأسه ويضرب كفاً بكف ويردّد في دهشة: «لا يعاند الرملة الا رأس صلب وكافر مثل رأس هذا النصراني. حتى الجبل فشل في تركيع الرملة وركن الى مكانه مهزوماً. انظروا اليه كيف يبكي! صحّة لموري! صحّة!». ثم يذهب الى مجلس العشية ويسند ظهره الى جدار الدكان مع الجماعة ويتراجع عنإعجابه بالرجل إرضاء للغالي، فيقول ضاحكاً مستلقياً برأسه الى الوراء: «يا له من مغفل! لا يدري أني اشبعت الدنيا حفراً وتنقيباً. يحشد هذا الجيش الجرار لغزو الرملة. لن يحصد سوى الرملة. سوف ترون. هه ـ هه ـ هه...».

ولكن الرملة خيّبت آمال التبروري فانهار أول تجويف أرضي بعد يومين فقط من هذا التحدّي.

حاول موري أن يكتم الاكتشاف ويحتفظ به سراً الى حين عودته من رحلته

الطارئة الى «الجوهرة»، ولكن العمال فشلوا في إخفاء الأمر وأفشوا السرّ في مخادع الزوجات فطار الخبر في اليوم التالي وانتشر في عرض الوادي قبل عودة الخبير من عاصمة الواحات. والمثير حقاً أن موري لم يعد من رحلته الظافرة عن طريق البر وانما هبط من السماء على جناح طائر خرافي يراه الاهالي لأوّل مرة.

حطت الطائرة المروحية المهيبة في العراء المجاور لمعسكره المقام بين أشجار الطلح، فتجمهر الاهالي لمشاهدة الطائر المخيف في حين انتهز موري فرصة انشغال الناس بالفرجة فتسلل واستقل سيارة لاندروفر مع عدد من اعوانه واختفى بين احراش النخيل ليحضّر المفاجأة التالية.

وقبل أن يخرج من هناك بموكبه الجليل استأجر جواداً ضامراً من أحد الفلاحين ودفع مبلغاً سخيّاً لنفس الفلاح كي يصعد صهوة الجواد الاصيل ليطوف واحات الوادي ويصيح في الاهالي مبشراً بالمفاجأة: توج الله الجهود بالتوفيق وتم اكتشاف جرمة القديمة. تم العثور على مومياء تانس محنطة في قبرها منذ خمسة آلاف سنة. الحاضر يبلغ الغائب. الجميع مدعوون لمشاعدة المومياء والجزء المكتشف من المدينة غداً صباحاً. الحاضر يبلغ الغائب!

لم يفق الاهالي من دهشتهم لرؤية الطائر الخرافي حتى صعقهم موري بأمر الاكتشاف. سهروا الليل كله وهم يتجادلون ويتساءلون عما اذا كان الطلياني قد عثر على الكنوز الضائعة الى جانب المومياء المكتشفة.

حملوا المشاعل وتزاوروا وتجمعوا هنا وهناك يتناقلون الأخبار ويتناطحون برؤوسهم. يتهامسون بالشائعات عن عدد الحلي والاساور والاقراط التي تم العثور عليها في مقبرة تانس. جاء الصباح.

في الساعات الاولى كان صوت الفلاح المبحوح ما زال يسمع بوضوح في النواحي الشمالية القصية من الوادي. ويبدو أنه قطع الوادي بجواده وهو عائد الآن الى بيته بعد أن فرغ من أداء مهمته.

تزاحمت جموع الاهالي في طوابير طويلة وغزت سانية التبروري.

هناك في قلب المزرعة، بين سيقان النخيل المكابر المتوجّه نحو الفضاء، أقام موري سرادقاً فخماً، تفصله عن موقف الاهالي طاولة طويلة مغطاة بشرشف ناصع

تناثرت فوقها الادوات المكتشفة: قلل فخارية قديمة محطمة، أدوات حجرية منزلية، مهراس متحجر، حاملة شموع أكل التراب أطرافها، رمح حجري مكسور، وصخور صمّاء مزدانة بحروف «تيفيناغ». في مركز الطاولة رقدت المومياء الجليلة.

لم تكن تانس تتمدد على قفاها وترفع رأسها نحو القمر في خشوع يليق بمقام ملكة استطاعت أن تقهر الصحراء كما توقع الاهالي أن يروها وانما اتخذت وضعاً آخر يثير الشفقة: تمددت على جنبها الايسر وثنت ركبتيها حتى لامست صدرها واحتضنت الركبتين المضمومتين بذراعيها فبدت في هذا الوضع البائس مثل كومة من القش أو جيفة خروف يابسة ملقاة على قارعة الطريق!

تهافت الناس يتأملون الجثة المكومة على الشرشف الناصع بين القلل المحطمة والاحجار المكسّرة. دققوا النظر في الوجه العاري من الجلد ذي العظام البشعة البارزة. أكل التراب جلدة الرأس فانكشف الجزء الامامي من الجمجمة وبرزت عظمتا الوجنتين المحاطتين بفراغ المقلتين اللتين نهشتهما الديدان أيضاً. ولكن الجلد على أغلب الاطراف بقي سليماً طوال كل هذه السنين. بل إن بعض الشعيرات ظلت لصيقة بالأجزاء المغطاة بالجلد من الرأس. وكانت حبيبات الرمل تتشبث بالجلدة وتتيبس على أغلب اطراف الجسد. موري قال فيما بعد أن هذه الحبيبات التصقت بالجلد بعد الوفاة مباشرة عندما كان الجسد ما زال طرياً محتفظاً بالحرارة والدم.

في الاجمال لم يبق في وجه ملكة الصحراء أي أثر لذلك الجمال الذي تتحدث عنه الاساطير.

وفدت الى مكان الاحتفال وجوه لم يتوقع موري أن يراها: الشيخ غوما نفسه جاء الى المكان يرافقه آجّار. خطر له أن يهب للترحيب بالشيخ ولكنه ما لبث أن تراجع عندما لمح آجّار بأسماله وهو يهرول بجوار الشيخ.

قام العمال بتوزيع المشروبات على الحاضرين ووقف موري خلف السرادق الفخم يلتف حوله بعض أعوانه من الطليان وكبار الموظفين بالجوهرة الذين رافقوه في عودته من هناك داخل جوف الطائر الخرافي.

خطب موري في جمهرة الاهالي بمساعدة مترجم يتقن الايطالية استقدمه معه

من الجوهرة خصيصاً لهذا الغرض.

رطن موري يومها طويلاً.

قال أنه سعيد لأن الله وفقه في انجاز مهمته فقدّم هديته لأهل الوادي. وقال أن اكتشاف عاصمة الجرمنت القديمة يعادل اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون في العشرينات من القرن. بل ربما فاقها هذا الاكتشاف إثارة بعد العثور على مومياء تانس المحنطة منذ خمسة آلاف سنة. واضاف في كلمته أنه يكاد يجزم أن أهل جرمة سبقوا الفراعنة في اكتشاف سرّ التحنيط. فهل هناك كنز يعادل هذا الكنز؟ وقال أيضاً إنه يطمح بمساعدة الاهالي وتعاونهم أن تؤدي الحفريات المقبلة الى اكتشاف المزيد من المفاجآت. ما اكتشف حتى الآن لا يعدو أن يكون مرحلة أولى من الرحلة الطويلة في دهاليز جرمة القديمة. ثم عرّج الداهية على المجادلات التي تبحث في أصله وفصله وقرر أن يوجه لخصمه آجّار ضربة موجعة. استنكر تلك الاصوات التي ترتفع في الوادي وتشيع انتماءه الى الفاشست. أكد أنه لم يكن ضابطاً في جيش موسوليني ولم يشترك في حملة غراسياني على فزّان. وأوضح ـ بخبث لا يتقنه سوى امثاله من علماء النصارى ـ أن هؤلاء الذين يلفقون هذه الشائعات يخونون وادي الآجال ويقدمون خدمة جليلة للاستعمار بالابقاء على كنوز الصحراء وتاريخها القديم مطمورة تحت الرملة الى حين يتمكن المستعمرون الفرنسيس من العودة الى فزان والاستيلاء على الكنز والتاريخ معاً!

توجه موري بعد ذلك الى الطائر، الجاثم في العراء، في موكب مهيب مزهواً بانتصاره، تحيط به حاشية من أعوانه الطليان وعدد من كبار الموظفين. شيّعه الاهالي في الطريق الى هناك وتمنّوا له رحلة موفقة وعودة سالمة.

موري أخذ معه المومياء المكتشفة الى عاصمة الواحات ومنها طار بها الى طرابلس. ثم عبر بها البحر الى روما لإجراء الفحوصات والدراسات عليها في مختبرات العاصمة الايطالية.

بعد رحيل الطائر الخرافي في ذلك اليوم رافق الشيخ غوما صديقه آجّار الى كوخه، في الطريق الى هناك فاجأه بالسؤال:

ـ هل تعتقد أن ذلك الكوم من الجلد والعظام هو جسد تانس حقاً؟

سارع آجّار يدافع عن جثمان الملكة:

ـ حاشا لله أن تكون لتانس علاقة بذلك الهيكل البشع. هذه كذبة أخرى من أكاذيب المجرم. لا أخفي عليك. لقد ذهبت منذ أيام وصليت عند الجبل وتضرعت الى روح تانس أن تضلل الاغراب وألا تدعهم يكتشفون مكامن الكنوز. المهم أنه لم يعثر على الكنز. هنيئاً له بالباقي. بأطباق الفخار وبالجثث. الجثث مدفونة في كل مكان ولا يحتاج اكتشافها الى كل هذه الحيلة. آه لو كنت أملك معزاة أخرى. لو كنت املك معزاة زائدة لنحرتها فوراً قرباناً لتانس كي تخبىء الكنز بعيداً عن يد هذا المجرم!

ضحك غوما وداعب آجّار الغاضب:

ـ ولماذا لا تضحي بالمعزاة؟ يفضل في تقديم القرابين أن تضحي بما تملك. هذا هو سرّ القرابين الأول. النبي ابراهيم حاول أن يضحّي بإبنه اسماعيل عندما لم يجد ما يضحّي به لولا تدخّل الملائكة في آخر لحظة.

قال آجّار بحزن:

ـ أنا لست نبيّاً يا شيخ غوما. أنا آجّار الذي يلقبه الناس بـ« قاتل أمه » وينعتونه بالدرويش. كيف سأعيش بدون المعزاة؟ أنت تعرف أني لا أتغذى بشيء سوى حليبها.

ـ إنني أمزح.. لا تهتم..

ـ لو كنت استطيع أن آكل الشعير أو خبز التنور مثلك لما ترددت لحظة واحدة. لن أبخل بشيء قرباناً للقديسة تانس!

ـ أنا أيضاً تخليت عن خبز التنور. العجز يا آجّار. الشيخوخة. العمر لا يرحم. لم تعد معدتي تتحمل الطعام. ولكن دعنا من المعدة الآن وقل لي بالله: ماذا ستفعل اذا حدث واهتدى هذا الشيطان الى الكنز؟

ـ لن يهتدي الى شيء.

ـ ولكنه اهتدى الى المدينة القديمة وهذا مفتاح الى اكتشافات أخرى.

ـولو...

ـ قلت لك في الماضي أن هؤلاء الأبالسة يملكون الاسرار وتوصّله لاكتشاف المدينة تصديق لكلامي.

ـ تانس لن تخذلني. لن تذهب صلواتي مع الريح.

ابتسم غوما ومضى في استفزازه:

ـ ولكنك بخلت بالقربان. تراجعت عن نحر المعزاة. الاموات لا يغفرون إساءات من هذا النوع!

غضب «قاتل أمه»:

ـ انت تريد أن تقتلني بالجوع يا شيخ غوما. هل تتآمر مع موري وتروّج لموتي؟ قلت لك إن حليب المعزاة هو قوتي. المعزاة حياتي. الحليب زائد بضع حبات من التمر. هذا كل شيء. لا اعتقد أن في الصحراء الكبرى كلها زاهداً واحداً يمكن أن ينافسني في مجال الجوع. معدتي لا تتحمل أي شيء آخر. صدقني!

ـ أصدقك. أصدقك. لا تهتم. إني أمزح...

اقتربا من كوخ آجّار فعلا ثغاء المعزاة ترحب بهما. شدّ الشيخ لثامه على وجهه وكتم ضحكة.

# 5 ـ قاتل أمّه

لم يذهب آجَار لملاقاة جيوش الغزاة ولم يسارع لصدّهم في سواحل الشمال كما فعل أغلب سكان الصحراء، ولكن الغزاة هم الذين زحفوا اليه في مراعي «مساك ملّت» حيث ولد وكبر وتزوج وانشغل طول عمره برعي الإبل وصيد الودان. لم يعرف في حياته سوى الحيوانات والصحراء وبعض الأعشاب الخضراء التي تنمو عقب الأمطار في المواسم السخية.

استمر الحال حتى جاء اليوم الذي فاتحته أمه بأمر لم يفهم له معنى في البداية. عقب خروج الوالد الى المراعي البعيدة في «مساك سطفت» بحثاً عن ناقتين ضائعتين شردتا عن قطيع الابل منذ شهور جاءت الأم وتربعت بجوار الموقد وانهمكت في مخض الحليب في قربة صغيرة بين يديها. كان الصباح بارداً والشتاء في بدايته. تعودت أن تمخض الحليب كل الصباح وهي تتدفأ بجوار النار.

كانت سعيدة وهي تؤدي عملها.

في ذلك اليوم برقت عيناها بوميض لم يعهده. تهيأ للخروج بالقطيع فاستوقفته بإيماءة من رأسها دون أن تتوقف يداها عن ممارسة عملها. قالت وهي تتوقف عن تلاوة تسابيح الصباح:

ـ الوالد كلّفني أن ابلغك بوصية. تمهّل واصنع لنا كأساً من الشاي.

انحسر لحافها عن رأسها فانكشفت شعيرات مجعدة بيضاء في شعرها. داهمها الشيب مبكراً.

سحبت اللحاف وغطت رأسها بحركة خبيرة. قررت أن تغريه وتثني على الجمر:

ـ انظر الى الجمر ما أجمله! حرام أن يخبو جمر متوهج وملتهب وحار كهذا الجمر. حرام أن يتحوّل الى هباء ورماد دون أن يستغل في صنع شاي أخضر. هيا بالله. انت أمهر من ابيك في تحضير الشاي. مؤسف حقاً حظ النساء في صنع الشاي. لم أسمع أن ذاع صيت امرأة في الصحراء اشتهرت في إعداد الشاي.

ثم استدركت بسرعة دون أن تتوقف يداها عن العمل الدؤوب:

ـ استغفر الله. سمعت بواحدة اكتسبت هذه الخبرة في غات. فكان الرجال يتزاحمون أمام باب بيتها ليذوقوا الشاي من يديها. عمل الحسد عمله. دسّوا لها السحر فماتت ملدوغة. المسكينة!

ابتسم آجّار فواصلت الأم:

ـ أقعد بالله، قليلاً ما تقعد معنا. يجب أن نتحدث بين الحين والآخر. لا أشعر أن لي إبناً ابداً. شارد في الصحراء ليل نهار، صيف شتاء فمتى أراك؟ المرعى لن يهرب. ستجلس وتشرب الشاي وتلتحق به وستجده ثابتاً في مكانه!

اللطف ادهش آجّار فنزع مداسه وجلس يغسل العالة ويخفي ابتسامته بلثامه.

توقفت عن المخض وأفرغت القشدة في صحن خشبي وصبّت اللبن الحامض في كوب. قدمته له قائلة:

ـ لا بأس في أن تتمتع اليوم وتشرب قدحاً من اللبن أيضاً. هذه مناسبة جيدة. بلغت سن الرشد. انت رجل الآن. أتعرف ماذا يعني أن تبلغ سن الرشد؟ عَلى الرغم من أنك لبست العمامة مبكراً إلا أنك لم تبلغ سن الرشد الآ منذ شهور فقط.

أحكمت ربط فتحة القربة وعلقتها في الأعواد بالمدخل. سرحت الشمس في الفضاء ولكن البرد لم يتراجع، فركت يديها فوق النار الخابية وألقت في الموقد بمزيد من الحطب. واصلت حديثها عن الرجولة وسن الرشد:

ـ الرجل اذا بلغ سن الرشد احتاج الى رفيقة. هذه سنّة الله في المخلوقات.

خلق من كل كائن زوجين: ذكراً وأنثى. في الانسان والحيوان والشجر. عشرة الرجل والمرأة شرط الرجولة وإنجاب الذرية. كلنا مررنا بهذه المرحلة. ولولاها لما جئت الى الدنيا وجلست أمامي الآن. هل تفهمني؟

فهم الآن. نعم. المعزاة والتيس. الجمل والناقة. لقاح الزهور في الهواء. الرجل والمرأة. لا يعرف ماذا يفعل الرجل مع المرأة لأنه لم ير امرأة في حياته، ولكنه تمتع بمشاهدة التيس وهو يهجم على المعزاة ويمتطيها من الوراء. كان يضحك وهو يتفرج على مطاردة التيس العنيد للمعزاة. في اثناء المطاردة تفوح منه رائحة حادة. استغفر الله. ليس هذا كل شيء. لقد تفرج على تلك العملية الفظيعة التي يتولى فيها الرعاة مساعدة الجمل الفحل على اعتلاء الناقة. يذكر أنه رأى ذلك لأول مرة وهو طفل. قام بها والده مع جار لهم ساعد في اتمام المراسم الفظيعة. المراسم استمرت يوماً كاملاً. هل يجب على الشاب أن يفعل ذلك مع المرأة كي يثبت أنه رجل؟ ولكن ما هي المرأة؟ ما هو هذا المخلوق الغامض الذي يجعل القلب يقفز بمجرد ذكر اسمه؟ هل هي مثل الناقة؟ لا. لا. الناقة شقية جداً اثناء المراسم الفظيعة. أم أن المرأة شقية أيضاً عندما ...

واصلت الأم الترويج لمشروعها:

ـ أبوك قال أنه خطب لك ابنة قريب له يعيش في «تانزوفت». سنسافر الى هناك ونأتي بها.

سأل رغماً عنه:

ـ هل نسافر كلنا الى هناك؟

ـ لا بد أن نسافر كلنا. الفرح يستدعي أن نحضر جميعاً. الأب والأم والعريس.

ـ وماذا سنفعل بالمواشي؟

ضحكت ضحكة صغيرة قطعتها فجأة واجابت:

ـ المواشي أيضاً ستذهب معنا. ستحضر معنا العرس! من حقها أيضاً أن تفرح بك! لن نتركها تهيم في الخلاء على أي حال.

ساد صمت قصير ثم ابتسمت قبل أن تواصل نسج خيوط الصفقة:

- لماذا لا تسألني عن العروس؟ العريس يجب أن يستفهم عن رفيقته. هل هي جميلة؟ طويلة أم قصيرة؟ عيناها خضراوان أم سوداوان؟ هل تتقن العزف على أمزاد أم لا؟ هل تحفظ الأغاني والاشعار؟ هل هي شاعرة؟ لماذا لا تسألني عن العروس بالتفصيل؟ الرجل يجب أن يكون متشوقاً لمعرفة كل شيء عن عروسه. فلماذا لا تسألني؟

عدّل من وضع الإناء الفائر على الجمر وخنق ضحكة.

أجابت عن الاسئلة نيابة عنه:

- اذا أردت أن تعلم فهي ليست جميلة فحسب ولكنها حسناء. خضراء العينين. تتقن العزف على امزاد. تحفظ الاشعار أيضاً ولكنها لا تؤلف الشعر. عروس سوف يحسدك عليها الجن في الصحراء! تستطيع أن تطمئن! حرصت على اختيارها ليس بسبب رابطة الدم ولكن لأني واثقة أنها تقدر أن تجعلك سعيداً. هاجس الأم أن ترى ولدها سعيداً بين يدي امرأة تستحقه!

ثم فتحت الصندوق الخشبي وعرضت أمامه ملابس العرس الزرقاء التي اشتراها أبوه من تاجر تباوي عائد من «كانو». تابع حركاتها وتعبير الارتياح على وجهها وهي تعرض مفاجآتها. تقيس الثياب الفضفاضة على قامتها. تعبير مدهش على وجهها.

سعيدة كجدي وديع في فصل الربيع.

انتقلوا الى «تانزوفت» بعد شهور قليلة. لم تمض أسابيع أخرى حتى نظموا المهرجان واستدعوا الفرسان من النجوع المجاورة ووجد نفسه في الليل يتربع على عرش من تراب. أعده الشباب كسرير في خيمة العريس. ينتظر أن يأتوا له بعروسه التي غافلت النساء وسلمت نفسها للخلاء.

لم يستطع أن يمنع نفسه من الضحك عندما شاهد في ضوء القمر كوكبة من الفتيات يتكأكأن على الفتاة المعاندة. كانت تقاوم بشراسة: تعض بأسنانها وتضرب برجليها ويديها ولم تتمكن الصبايا من حملها الى الخيمة الا بعد تدخل طائفة من الشباب الذين اعياهم الانتظار وبدأوا يغالبون النعاس بجوار العريس.

لكزه أقرب جليس واعادوا على رأسه قراءة الممنوعات من: «لا يجوز» و«من العار..» او «من العيب..» او «ايّاك...» الخ. هذا آخر مصحف العادات التي تقتضي أن يخرس ويجلس ساكناً كالصنم، يومىء بالعين أم بالرأس أم باليد. الايماءة هي الحركة الوحيدة المباحة. ولكن آجّار الطليق في فيافي مساك كسر هذه القيود وانفجر ضاحكاً وهو يشاهد كيف تقاتل فتاته بيديها واسنانها كتل النسوة. استلقى على قفاه ضاحكاً.

في اليوم التالي شنّعت عليه الألسن الشريرة ونعتته بـ«الراعي الغشيم الذي عبث بتقاليد الملثمين النبلاء ...».

لم يعبأ آجّار بتشنيع الشائعات وسارع يسرج جمله عازماً أن يعود الى بيدائه في «مساك ملت» مصحوباً بعروسه!

«مصحوباً بالعروس؟»

تناطحت الرؤوس وتهامست الأفواه واستنكرت الألسن هذه الوقاحة.

«لا بد أن تمكث العروس عاماً في بيت أهلها ككل النساء..» هكذا كانت الاجابة فركب آجّار رأسه وهدد بالطلاق.

ولأول مرة تتنازل أسرة عن العادات وتسلم ابنتها لعريسها قبل أن يمضي عام على الزواج خوفاً من أن يجللهم المجنون بالفضيحة!

آجّار انتزع عروسه من أهلها قبل أن يمضي أسابيع على دخلتها فسجل سابقة في تاريخ الصحراء!

لحق به أبواه بعد شهرين بوجهين ذابلين وعيون تنطق بالخجل. كان يلاحق قطعان الابل في الخلاء، مستغرقاً في السكينة مسلماً أمره للبيداء الأبدية، تلاحقه عروسه بالمعيز. ترفع صوتها بالاغاني وتتسلّى بالعزف على وتر «امزاد» فينصت لموسيقى الآلة الشجية ويقارن بينها وبين صوت الريح الشمالي وهو يندفع في العراء المتدفق حتى يقبّل السماء الزرقاء العارية من السحب. وكلما تذكر وصفهم له بـ«الراعي المتوحش» ضجّ بالضحك، واطلق القهقهات. يترنم بلحن سماوي ويطلب من «تازايت» أن تصاحبه بأنغام آلتها. يتمايل الى يمينه ويساره مردداً أغانيه، غائباً في وجده، سابحاً في المجهول. في اوقات الفراغ يحضر الشاي

ويتسلّى بمداعبة تازايت. كانت تتفرسن ولا تمل المفاخرة بقدرتها على الصمود على ظهر الناقة. أثارت إعجابه موهبتها. وفي احدى المرات أجلسها على هودج اعواد الحطب على ظهر ناقة عنيدة حديثة العهد باللجام ولم تتعود على الرسن. قطعت بها الناقة السهول في صبر. وما أن نزلوا أحد الأودية الواسعة حتى أفزعتها ارنب برية انطلقت من الاحراش المتشبثة بقاع الوادي، فجفلت الناقة. انطلقت تعدو بين الشجيرات المتناثرة في قعر الوادي.

جلجل آجّار بضحكته. وقف لحظات وهو يتلوى: ينحني الى الامام ثم يعود وينثني الى الوراء. اختفت الناقة الطائشة في عمق الوادي. توقف عن القهقهة وامتطى جمله ولاحق الناقة الشقية.

كلما توغل في امتداد الوادي كلما اشتد انحداره وضاقت ضفتاه وازدادت أشجاره كثافة وأعشابه اخضراراً. كان الفصل شتاء. فاندهش كيف لم يتوصل لاكتشاف هذا الجزء المجهول من الوادي كل هذه السنين. قطع مسافة أخرى فتراكضت الارانب وشقشقت الطيور ورأى اعشاشها بين أغصان الاشجار. وجد تازايت تجلس على كوم الحطب فوق بساط من العشب الاخضر، حيث نفضتها الناقة المفزوعة، تجول ببصرها حولها في ذهول. لقد أسرتها الجنة وأنستها الاوجاع والخدوش التي أصيبت بها إثر السقطة.

تنفس الهواء الساكن بمزيج غامض من روائح الزهور البرية.

متى حل هذا الربيع؟ ومن أين سقط هذا الوادي الخفي؟ لم تلتفت تازايت للجروح ولم يسألها آجّار.

تبادلا النظرات صامتين وتسكعا لاكتشاف البستان الاسطوري الذي سقط من السماء في هذا الطرف المجهول من الصحراء.

قطعة من الجنة التي تتحدث عنها الخرافات.

تقدم آجّار يتوغل في الوادي فعثر على بعض القطع الندية من الارض. كانت آثار السيول النازلة من قمة المرتفع قد شقت الضفة الطينية العمودية في أجزاء مختلفة متباعدة لتصب في القاع وتسيل في قلب الوادي. في اماكن اخرى تيبست الرطوبة وتشققت الارض الطينية وتغضنت قشرتها الخارجية وهي تتوج تحت

أشعة الشمس. مشى مسافة أخرى فتراجع الندى واضمحلت النباتات حتى ذبلت الاشجار تماماً. كساها الشحوب والاصفرار. في النهاية عاد الوادي قاحلاً، قاسياً، عارياً من العشب. السحابة الممطرة لم تبلغ هذا الجزء فبقي موحشاً، حزيناً، باكياً، كجزئه العلوي حيث ترك القطيع.

أطلق يومها على هذه القطعة «بقعة الربيع» وتحدثا طويلاً، وهما يتنقلان بين الاحراش الكثيفة الخضراء، يروق للسماء أن تتغمّد الصحراء برحمتها وتخص أجزاء بالأمطار السخية وتبخل على الفيافي الباقية وتتركها تعاني الجفاف والعطش.

اقتنص آجّار الفرصة فداعب عروسه:

- هذه هدية «مساك ملت» للملاك المقبل من «تانزوفت». صدعت رأسي تغنياً بجمال السهول في «تانزوفت»، وها هي «مساك» تفاجئك بالربيع في قلب الشتاء. هل هناك في الصحراء كلها ركن يخبىء الربيع في الشتاء؟

عادا على عقبيهما في الوادي السحيق فعلقت وهي تنشغل بمص الخدش في ذراعها وتبصق الدم:

- ولكن الطلح هناك يحتفظ بخضرته في كل الفصول ومهما اشتدت الشمس. السحب العابرة لا تمر من هناك ولكن الطلح دائماً أخضر.

هذه أعجوبة أولى في «تانزوفت».

طاردها عبر الوادي وهما يتضاحكان، وفي لحظة قفزت غزالة وحيدة من تجويف في سفح المرتفع غطت فوهته الأعشاب فأحجم عن ملاحقة المرأة وانحرف يميناً يطارد الغزالة.

في ذلك الوقت كانت غيوم من نوع آخر تزحف على الصحراء. تناقل الرّحل الأنباء المزعجة عن غزو السواحل في الشمال فتنادى البدو وهرعوا يقتنون البنادق العثمانية الرديئة ويتسابقون للالتحاق بالمجاهدين لملاقاة الغزاة والتصدّي لهم قبل أن يلتقطوا انفاسهم ويتوغلوا في الصحراء. أبوه أكد أنهم لن يجرؤوا على الزحف نحو الواحات الجنوبية لأن الصحراء العظمى بلعت من قبلهم شعوباً وقبائل جاءت غازية فتولت أمر ابادتها نيابة عن سكانها. كان الوالد على حق بالرغم من أن

تقديراته اخطأت فاستطاع الطليان أن يكسروا شوكة المقاومة في أكثر من موقعة وتدفقوا في الصحراء حتى بلغوا مشارف فزّان.

طاب لهم المقام وهدأت الأحوال.

استقروا في الواحات ولم يتجاسروا، في السنوات الأولى، على مداهمة البوادي واستفزاز الرحل.

في هذه الأثناء مات الوالد مقتولاً في طريق العودة من تمبكتو عندما تعرضت القافلة التجارية لهجمة غادرة من قبل قطاع الطرق ولاحقت عين الحسد تازايت حتى في خلاء «مساك» فطرحت جنينها الاول في الشهر السادس. سقطت فريسة المرض والحمى والهذيان حتى أيقن أنها ستموت. فجاء الفرج على يد فقيه عابر مرّ عليهم في طريقه الى مرزق فكشف السرّ. حرق البخور. نحر الجدي الاسود. سفح الدم تحت قدميها، فاستعادت المرأة عافيتها وفازت بالنجاة من الفخ الذي أفاد الفقيه أن أحد الطامعين في الزواج منها هو الذي رتّبه بمساعدة ساحرة شريرة في «غات».

ما كاد آجّار يفيق من متاعبه ويتهيأ لالتقاط أنفاسه حتى اقتحم عليه بورديللو خلوته في «مساك». اعتلى الربوة المطلة على بيتهم في السهل العاري في صباح يوم شتوي بارد على رأس فرقة من الهجانة.

لا يعرف آجّار حتى اليوم لماذا انطبعت في رأسه خيالات الجنود في عتمة الفجر. ريح الصباح عبثت بملابسهم الفضفاضة فرفرفت في العتمة وبدت مثل خيالات النخيل عندما يراقصها سراب القيلولة.

تعوّد أن يحلب النوق والمعيز في ذلك الوقت المبكر فداهمته أشباح الهجانة قبل أن ينتهي من عمله. تقدم لاستقبال ضيوفه والإناء المملوء بالحليب الطازج ما زال معلقاً في يده.

ضحك الكريه بورديللو وانتزع منه الجردل بوقاحة وقال بلغة ركيكة:

- الله يعطيك العافية. لا يستقبل بالحليب الطازج إلا من يقدر الضيوف. سمعت كثيراً عن سخاء أهل الصحراء!

ثم دس رأسه في الجردل وانهمك يتجرع الحليب في حين علت ضحكات بعض معاونيه. ارتوى فمسح الرغوة العالقة بشفتيه بيده وقدّم الحليب المغتصب الى أقرب طلياني. قال:

ـ هذا أشهى افطار! اشربوا حليب النوق! البدو يقولون أنه دواء لمائة مرض!

وانفجر في ضحكة لا تليق بذلك الوقت المبكر من الصباح.

تفقد آجّار القافلة بنظرة شاملة. عدد أعوانه من الطليان ثلاثة أنفار متفاوتين في الأعمار والقامات. يتزاحم خلفهم عدد من البدو. أهل الصحراء يمسكون بزمام جمالهم، يحجّبون وجوههم بعمائم مختلفة الالوان والاحجام، يقفون في صمت، يشيّعونه من طرف خفي بعيون تنطق ـ في عتمة الفجر ـ بالانكسار.

أمر بورديللو بلهجته الاستفزازية:

ـ قدموا له افطارنا. نحن ايضاً عندنا افطار يليق بالكرماء!

قفز أحد الأعوان ووضع القيد في يديه.

لا يعرف كيف حدث ذلك، ولماذا قام الطلياني بهذا العمل.

وجد نفسه مقيد اليدين والرجلين مربوطاً على سرج مستطيل مثبت فوق ظهر جمل يسير في ذيل القافلة المتجهة الى مرزق حيث أعدّ بورديللو معسكره لتجنيد أبناء الصحراء وإجبارهم على الانخراط في فرقة الهجانة التي ينوي أن يغزو بها برّ الاحباش من منفذ في المشرق.

في مرزق قالوا له أن هذه هي المرة الثانية التي يحاول فيها الكابتن بورديللو تجميع المقاتلين ودفعهم لغزو الحبشة بعدما فشلت محاولته الأولى. أباد الزنوج فرقته قبل أن تصل بلاد الأحباش وطاردوا من تبقى فضاعوا في أدغال القارة.

هذه الاخبار أزعجت أهل الصحراء ودفعت الكثيرين الى التمرد والهرب من قبضة الكابتن فاضطر ان يتسلح ببعض المغامرين المرتزقة ويطوف النجوع لتجميع ما أمكن من الشباب لإعادة بناء الفرقة وانقاذ سمعته أمام رؤسائه في طرابلس.

قيل أيضاً إنه استدعي من قبل رؤسائه في طرابلس بعد هذه العملية الفاشلة

ونال التوبيخ (وفي شائعة أخرى أنه عوقب بالحبس وهدد بنزع رتبة الكابتن) فعاد الى الواحات حاقداً متعطشاً للانتقام من الشباب الذين حملهم مسؤولية الهزيمة التي نالها على أيدي قبائل الزنوج في أواسط القارة. ويتردد في مرزق أن هذا هو سبب افراط بورديللو في معاقرة اللاقبي وإدمان الخمور المستوردة من بلاده في زجاجات خضراء كريهة الرائحة. رائحتها لا تختلف عن أنفاسه الكريهة. فيصبح عدوانياً مثيراً للاشمئزاز بمجرد أن يحتسي بضعة كؤوس من هذا السائل الفظيع حتى أن الاهالي يتضرعون لله في الجامع أن يعطف على حالهم ويرفع السائل الى رحابه فيعود الطلياني الشرير الى رشده والى قلل اللاقبي التي لاحظ الناس أن تأثيرها على عقله أخف بكثير من تأثير خمور النصارى المستوردة من بلاده.

أقام لهم الطليان معسكراً في قلب الواحة. أشرف الجنود على تصفيفهم في طوابير طويلة وتقسيمهم الى ثلاث مجموعات. تولّى عدد من الضباط تدريبهم على الهرولة والزحف على البطن واستعمال السلاح الفارغ من الرصاص.

حتى ذلك الوقت لم يدرك آجّار معنى ما يحدث. وما أن أخبره أحد الرفاق بالهدف من المعتقل حتى قرر أن يركب رأسه ويحتكم الى الاسلوب الذي مكّنه طوال هذه السنوات من تحمل الصحراء، ومكنه من انتزاع زوجته من ايدي أهلها قبل انقضاء المدة المعمول بها في قانون الصحراء: العناد!

أعلن آجّار التمرد ورفض تنفيذ أوامر عساكر بورديللو. قال بسذاجة: «لا. لن اذهب الى برّ الحبش. لن اذهب الى أي مكان أبداً!». فأثار البلبلة بين صفوف زملائه، فقلدوه في العصيان ورفضوا الانضمام الى الفرقة. قالوا: «لن نذهب الى بر الاحباش. لماذا نشترك في حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل؟ فليذهب الطليان وحدهم لمقاتلة الزنوج. أما نحن فسوف نقاتلهم عندما يقرروا أن يأتوا الينا ليحاربونا في ديارنا!».

تلقى بورديللو الخبر أثناء أمسية سال فيها سائل الزجاجات الشيطانية الخضراء فتلقى الجندي الذي تطوع ليرفع اليه الخبر صفعة على وجهه وركلة على قفاه. بل إن بورديللو الثمل لاحقه بكعب البندقية ولكن الجندي تمكن من الهرب وركض حتى غاب في أحراش النخيل.

استطاع ندماؤه أن يهدئوا من غضبته ويقنعوه بإرجاء الحسابات حتى

الصباح.

نهض مبكراً على غير عادته ولكنه لم يهرع الى المعسكر كما توقع عساكره وانما جلس الى زجاجاته وواصل سكرته. اشتكى من الصداع واعلن لأحد الندماء الطليان: «لا أنكر أني بالغت في استفزاز البدوي. ولكن تقديراتي اخطأت فلم أحسب حساباً لقدرته على إشعال الفتنة. هؤلاء البدو يخبئون الشيطان وراء أقنعتهم دائماً. ينافسونه في الدهاء. سأعرف كيف أنزع الشيطان من رأس اللعين».

وبدأ يذيقه طعم العذاب الذي وعد به. من هذه الصنوف اختار موري أن يأتي على ذكر حادثة شرب البول التي رواها ضمن ما روى في حرب الشائعات بينه وبين آجّار في الوادي.

قرر الكابتن ان يبتكر في أساليب التعذيب.

قاد العمليات بنفسه من بهو القصر الذي اقامه العثمانيون في قلب الواحة. استدعى الشيخ الزرقان وأمره أن يهدىء المتدربين في المعسكر ثم احضر آجّار وحبسه في حجرة مظلمة ملحقة بالقصر عند طرف السور الخارجي كان القائمقام العثماني يتخذها سجناً خاصاً للحاشية وتأديب الجنود الانكشاريين.

أمر أيضاً بإحضار المزيد من الزجاجات الخضراء الى مائدته حتى اذا نفد زاده منها ارسل فرقة من العساكر الى غابة النخيل لمصادرة احتياطي الفلاحين من اللاقبي. يضطر دائماً ان يستعين باللاقبي عندما ينفد مخزون الزجاجات الخضراء.

هبت ريح شمالية باردة في ذلك اليوم.

جلس بورديللو يتدفأ بعد اتمام الخطوات الاولى من الخطة. قال لمساعده البدين وهو يفرك يديه فوق ألسنة النار كما يفعل الاهالي:

ـ الأساليب التقليدية في التعذيب تجرح مشاعر الاهالي وتعطيهم المبرر للتمرد. أوامر الجنرال بالبو واضحة في هذا الخصوص: افعلوا كل شيء ولكن حاذروا ان تثيروا الاهالي! لا أريد مشاكل مع السكان الاصليين بعد ان استتبت الامور. يجب عمل كل شيء كي نكسب ثقتهم.

ملأ كأسه من قلة اللاقبي واومأ للمساعد بالجلوس لمشاركته حفلته. اضاف:

- بالبو داهية. حكومة «الدوتشي» تعلق آمالاً كبيرة على حكمته في جعل المستعمرة تنعم بالاستقرار. بالبو يختلف عن الجلف غراسياني. يقال ان أساليبه في تعذيب الاهالي وصلت الى آخر الدنيا وكتبت عنها الصحف في الشرق والغرب. أسلوب بالبو يختلف. افعل كل شيء بهدوء. اذا ضربت فيجب ان تصيب المكان الموجع الذي لا يترك أثراً للكدمات. هه - هه... لقد فهمت الجنرال على الفور. هل تعرف ماذا سأفعل بذلك البدوي الأبله الذي يرفض ان يذهب الى الحبشة؟

ابتسم المساعد فتجرع بورديللو كأسه دفعة واحدة كمن يحتسي الدواء. بورديللو يحب الخمر حباً جماً. يشرب ليل نهار رغم انه نادراً ما يترنح كبقية الجنود عندما يثملون. يحمر وجهه وتجحظ عيناه وتنتابه الضحكات العصبية ولكن من النادر ان يترنح. قال:

- العذاب في ايامنا يجب ان يمس الروح ويجرح الكبرياء. اذا اردت ان تعذب البدوي فاكسر انفه! التعذيب الجسدي لا يفيد مع هؤلاء الأجلاف. بل يولّد العناد ويخلق من البلهاء أبطالاً في نظر قومهم. العذاب الفعّال يجب ان يتسلل ويمس الروح ها - ها... التعذيب بالحديد والنار اسلوب مستعار من العثمانيين المتوحشين. الدموي غراسياني استفاد من اساليبهم. نحن متحضرون ولا يليق بنا سفك الدماء واهانة الجسد. نحن مسيحيون متسامحون.. هيء - هيء - هيء... لن تضطر الصحف لمهاجمتنا ووصفنا بالهمجية كما هاجمت غراسياني في الماضي!

حدجه المساعد البدين بنظرة ذات معنى وهو يجلس على كرسي في مواجهة بورديللو ويصلب يديه حول صدره:

- أراك استفدت كثيراً من انضمامك لحملة «القمصان الزرق». الضرب في المكان الموجع والحرص على عدم ترك اثر للضرب من صميم مبادئهم.

احتقن وجه الكابتن بحمرة مفاجئة وهدد المساعد بسبابته:

- حذار من التهم! لم أكن عضواً في تنظيم حملة «القمصان الزرق» في يوم من الأيام. ولو كنت لما ترددت في ان اعلن ذلك في الساحة ليسمعه الجميع.

- إنني اعتذر. إنني امزح!

ـ المزاح ممنوع. من اذن لك بالمزاح؟ قف! استعد! انصرف!

وقف المساعد خائفاً وأخذ الوضع العسكري حتى انقلب خلفه الكرسي. تشنجت عضلات وجهه وتوترت اعضاءه وهو ينفذ الأمر العسكري. ثم انصرف وهو يدق الارض بحذائه الضخم.

تابعه الكابتن ثم ابتسم بمجرد ان اختفى وراء السور.

عاد الى اللاقبي. أنصت لصوت الريح وهو يعبث بأعراف النخلات المتناثرة في الساحة المقابلة للقصر العثماني.

في هذه الاثناء فرغ الشيخ الشارف الزرقان من اقناع الشباب بالكف عن العصيان والعودة الى التدريب. هددهم بنيّة الكابتن في التنكيل بأهلهم اذا واصلوا الرفض. جاء الشيخ الى الكابتن يرافقه عدد من عقلاء الواحة وطلب منه ان يسمح له بالتحدث الى السجين في محاولة لاقناعه للعودة الى طريق العقل. كان بورديللو قد اصدر تعليماته بتجويع آجّار ومنع عنه الطعام وعزله في الحجرة الظلماء الملاصقة لجدار السور الجنوبي.

تردد طويلا قبل ان ينصت لشفاعة الشيخ ويقبل مهمته في اقناع السجين. قال الزرقان وهو يتفحص آجّار في بصيص الضوء المنبعث من شق في الباب السميك الملفق من الواح جذع النخيل:

ـ ربنا يهديك يا ولدي. ارجع الى الصواب واقبل التدريب.

ـ لن اذهب الى بر الحبش!

ـ العن الشيطان واقبل التدريب فقط. سوف أتولى الباقي. سأشفع لك بمرور الوقت. الكابتن مريض. انت لا تعرف ان الكابتن مريض؟ يتخذ قرارات جنونية بسبب مرضه.

تدخل شيخ وقور كان يقف بجوار الزرقان:

ـ اسمع كلام أخوك الشارف ودع العناد. ما زلت في أول الطريق. لا بد ان تتحايل على الدنيا اذا اردت ان تعيش. الحياة تستقيم بالحيلة والصبر.

قال البدوي بسذاجة:

ـ سأذهب الى «مساك». لا اعرف براً آخر. حتى عندما تزوجت قريبتي وذهبت الى «تانزوفت» كي اعود بها اضطررت ان اخالف واختطف عروسي في الأيام الاولى حتى لا اضطر للمكوث اكثر في «تانزوفت». الصحراء في تانزوفت بشعة ولا تعادل يوماً واحداً في «مساك». فكيف استطيع ان احتمل الهجرة الى برّ الحبش؟

تبادل الزرقان مع الشيخ الوقور النظرات في العتمة. تمتم الشارف وهو يهز رأسه في يأس:

ـ ربنا يهديك. ربنا يشفيك. تحدثني عن مساك كأنها الجنة الخضراء. ماذا في مساك غير الخلاء الموحش والصخور الصماء؟

ثم خاطب مرافقه:

ـ إنه طفل وعنيد. سيعاني كثيراً بسبب عناده.

قال مرافقه الوقور حانقاً:

ـ انه ليس طفلاً. هذا بعير من غير لجام. رأسه كاسح كالصخر!

استقبلهم الكابتن بابتسامة ساخرة، فطأطأ الزرقان رأسه معتذراً. قال:

ـ إنه يافع وطائش. أغفر له طيشه! نحن لا نيأس من رحمة الله فيهدي من يشاء من عباده وقتما يشاء!

شيعهم بورديللو بضحكة عصبية ووقف طويلاً عاقداً يديه خلف ظهره، ينصت لثورة الريح تصفق الابواب والنوافذ وتكاد تنزع اشجار النخيل من جذورها. الريح منعته من تفقد المعسكر فأرسل يستدعي المساعد.

تعوّد الطليان، وكذلك الاهالي، على مزاج بورديللو المتقلّب. سريع الغضب ولكن ينسى الاساءة بسرعة. يثور لاتفه سبب ثم يتراجع. وقد يبادر بالاعتذار عن تصرفاته في اليوم التالي حتى قيل انه مصاب بمرض عصابي يتحكم في طبعه ويملي الجموح على مزاجه.

القريبون منه يؤكدون ان للخمر دوراً سلبياً في خشونة الطباع. وكثيراً ما يروق له ان يدافع عن نفسه ويفلسف غرامه بالخمور قائلاً: «ما عسى المرء يفعل في هذه المتاهة الموحشة وسط هؤلاء البدو الوحوش غير ان يجالس الكأس؟ هل للطلياني خيار آخر في قتل اوقات الفراغ؟ لست مولعاً بصيد الغزلان والودان مثل بالبو، ولا أهوى صيد البشر مثل غراسياني. ها ـ ها... يحلو لغراسياني ان يتناول وجبة آدمية. بل يشترط ذلك ويفرض على الطباخين ان يقدموا طبقاً من لحم البشر مع كل وجبة! هه ـ هه ـ هه.. آكل لحوم البشر! آه لو سمعني! اياكم ان تعيدوا ذلك على مسمع أحد. لا تبخلوا علي بقواريري حتى لا اشنق نفسي في النخلة كما فعل كابريني في غات». يحلو للكابتن ان يسرد قصصاً ممتعة تتحدث عن علاقته بكابريني الحاكم العسكري لواحة غات. وتغلبه العاطفة فيترك دموعه تنحدر على وجنتيه وهو يتذكر كيف قضيا الليلة الأولى في داموس مظلم في جبل غريان عند احتلاله للمرة الاولى. برغم ان الكثيرين يطعنون في صحة هذه الروايات ويرجعون اصلها الى ميل الكابتن للتأليف عند مجالسته لقواريره. يقولون: الخمور تساعد المواهب الدفينة على التفتح. قيل ايضاً ان المساعد البدين عندما عاد يومها الى مقر اقامة الكابتن كان بورديللو في اسوأ حال. كان قاسياً وغائباً عن الوعي فأصدر امره الظالم بمنع الطعام عن البدوي السجين كخطوة اولى من برنامج الردع. فجاع آجّار قرابة الشهر. برزت عظامه وغرقت عيناه في محجريهما ولكنه لم يفقد الوعي ولم يتراجع عن قراره في رفض غزو الحبشة.

في نهاية الأسبوع الرابع جاء بورديللو الى الحبس وأشرف بنفسه على تنفيذ الخطوة الثانية. جاء منتفخ الوجه. جاحظ المقلتين. يترنح في مشيه حتى يكاد يسقط فيضطر العساكر ان يسندوه. وجد ضحيته يترنح ايضاً في جلسته ولكن بسبب غيبوبة الجوع فأمر بفتح علب الخنزير التي جاء بها. وضعها في وعاء خاص بإطعام الكلاب (وليس في سطل الماء الصدىء كما روى موري فيما بعد) ودفع بالطبق نحو آجّار الغائب فهجم على الطبق وأكل اللحوم المحرمة في نهم اثار الكابتن ومرافقيه فغرقوا في ضحك متواصل. قام الكابتن باستدعاء الشيخ الشارف وبعض وجهاء الواحة كي يتفرجوا على ولدهم العنيد الذي يدّعي البطولة وهو يركع فوق وعاء الكلاب ويلعق لحم الخنزير المقزز المحفوظ في العلب! شاهد الشيخ وأصحابه الأعيان المنظر البشع وهم صامتين، هزوا رؤوسهم بحزن وخشوع. ثم أمر بورديللو بنشر الخبر في المعسكر حتى يطيح بسمعة آجّار. لم يصدق أحد هذه

الخرافة. اضطر الكابتن ان يأتيهم بالشيخ الزرقان ليؤكد لهم الحادثة وبرغم ذلك فإن أغلبهم شكّك في صحتها وقالوا ان الشيخ جاء اليهم مجبوراً كي يقول هذا الكلام. بورديللو أجبره ان يساهم في الاساءة الى آجّار ويقلل من شأن صموده. هذا زاد من شعبية آجّار بين المتدربين.

غضب الكابتن وطبق تجربة جديدة على سجينه.

عاقبه بالعطش هذه المرّة.

لم يكن الوقت مناسباً لتنفيذ هذه العقوبة، ولكن الكابتن راهن على الزمن اكثر مما اعتمد على الشمس. صام آجّار عن الشراب عدة اسابيع. توقع الجميع ان ينهار في الايام الاولى ولكن صموده في العطش فاق تحمله للجوع. مر الاسبوع الاول والثاني والثالث فأيقنوا ان قدرته على تحمل العطش تفوق قدرة الجمال. حتى ان الشيخ الهرم همس في اذن الزرقان: «ألم أقل لك انه بعير. انه يخزن الماء كالبعير. فيه سرّ من البعير. انه بعير من غير لجام».

شعر بورديللو بالقلق. وقام بزيارة سجينه اكثر من مرّة. وفي كل مرة كان يركع امام آجّار على ركبتيه ويستفزه ببعض العبارات. قال في آخر زيارة وهو يدفع نحوه بقارورة خمر شرب محتواها وعبأها بالبول: «سوف نمتحن صمودك. تريد ان تفوز بالبطولة على حسابي. تقود التمرد وتثير البلبلة بين المتطوعين وتخرب خططي. هيا اشرب من نهر الجنة. تطمع في الدخول الى الجنة. هيء - هيء ... أنت بدوي أحمق وسوف تضطر لأن تشرب من مياه جنتي عاجلاً او آجلاً. أنصحك بأن تشرب. تضيّع الوقت. اشرب اليوم قبل الغد. فربما تراجعت في الغد وحرمتك حتى من البول. هيء - هيء ..» ولكن آجّار يتمايل يميناً ويساراً يتمتم بالسورة الوحيدة التي يحفظها من القرآن وهي سورة «التوحيد».

كان يبدو كالدرويش في تراتيله. لم يتنازل ويشرب من القارورة حتى بعد انقضاء الاسبوع الرابع.

بورديللو عاد الى مائدته واحتفل في تلك الليلة آملاً ان ينهار سجينه في اليوم التالي وتتحقق احلامه في الاستيلاء على بلاد الاحباش. تحدث ليلتها عن تلك الاحلام بتفصيل اثار دهشة الحاضرين. نضب زاده من القوارير المستوردة فاستعان باللاقبي. مد رجليه على الكرسي وذهب في رحلة بعيدة الى الادغال. قال ان

المسيح سيتدخل ويحسم المسألة لصالحه فيعتقل ملكهم الغوريللا ويضعه في قفص ليفرّج عليه الخلق في شوارع روما. سيقول عنه رؤساؤه انه شجاع ويليق به ان يحمل لقب حفيد الرومان. وريث شرعي لسيبيون العظيم قاهر هانيبال ومدمر امبراطورية الهمج في قرطاجنة، وسينال لقب جنرال! لا بد ان ينتزع لقب جنرال مقابل انتصاراته في الحبشة، والا فإن جهوده كلها لا معنى لها. اذا لم ينل لقب جنرال في الحرب فإن من حق راعي الغنم والجمال آجّار ان يهزأ به ويبصق في وجهه. ثم انفعل وبكى وقال ان جده سيبيون الافريقي سيلعنه في قبره اذا فشل في تنظيم الحملة لغزو الحبشة من طريق القوافل الذي يمر عبر مرزق!

جامله بعض الحاضرين وذرفوا دموع التماسيح. في حين ظل المساعد البدين جامد الملامح يرمق بكائية السكارى في إشفاق. وفجأة ألقى الكابتن برأسه على صدر مرؤوسه المساعد وتمتم باكياً: «اذا هزمني راعي الغنم فكيف اطمع في ان اعتقل ذلك الغوريللا هيلاسيلاسي في القفص واطوف به شوارع العاصمة؟» وذرف دموعاً حقيقية. همّ مساعده ان يواسيه ولكن بورديللو نهض فجأة ايضاً وقرأ مرثية لوكريتس في الكائنات باللغة اللاتينية:

حتى سيبيون: برق الحروب ورعد قرطاجنة.

سلّم رفاته للأرض مثل خادم بائس! (*).

أعاد قراءة البيتين نزولاً عند رغبة الحاضرين. ثم نال تصفيقة إعجاب طويلة وهتفوا ايضاً بحياته وقدرته على قراءة الاشعار باللاتينية الأم!

طيرت رأسه نشوة الخمر ونشوة الشعر فأوغل في الحلم. قال بحماس:

ـ كل القادة العظام نالوا المجد بعيداً عن اوطانهم. الاسكندر المقدوني. بير. هانيبال. سيبيون. يوليوس قيصر. انا ايضاً سأنال نصيبي من المجد بعيداً عن روما. اقسم اني سأناله. كنت أحلم بهذا المجد عند غزونا لمدن الشاطىء الرابع. ولكن الطامعين في نيل المجد في هذه الصحارى كثيرون. لقد عرفنا ذلك منذ أول يوم للانزال أنا وكابريني. الخيبة هي التي دفعت بكابريني ان يشنق نفسه. كان يحلم ايضاً ان يكون سيبيون آخر او قيصر آخر ولكنه وجد نفسه في واحة مهجورة

* تيت لوكريتس كار: «عن طبيعة الاشياء». الكتاب الثالث. البيتان ١٠٣٤ و١٠٣٥ من الملحمة.

في قلب الصحراء الكبرى فشنق نفسه في رأس النخلة! مسكين كابريني!

مسح الدموع ثم اقسم مرة اخرى:

ـ أقسم أني سأناله. ليس في هذه الصحراء الموحشة ولكن في الحبشة. خطة غزو اثيوبيا من الصحراء فكرة عبقرية. لقد باركها الدوتشي بنفسه. هل تصدقون ان الدوتشي باركها؟ يحيا موسوليني؟

هتف الندماء خلفه في صوت واحد: «يحيا موسوليني».

انهار على الكرسي وقال بصوت مكسور:

ـ يحيا موسو. ليـ. ني. باعث مجد ايطاليا. روما ستعود قلب العالم!

تتابعت أنفاسه وأنهكه الإعياء. قطع خطابه وشرب من كأسه. قال المساعد البدين والابتسامة الساخرة لا تفارق شفتيه.

ـ هل يبعث مجد روما على أنقاض رعاة الاغنام؟ هذا مخجل! سيبيون وهانيبال! غاي ماري ويوغرتن! الكابتن بورديللو وراعي الغنم آجّار!

كتم ضحكة في راحة يده وتمتم:

ـ مقارنة مضحكة! يا لها من أمجاد ستنعم بها روما!

تبادل الحاضرون نظرات دهشة. طأطأ الكابتن رأسه لحظات ثم نهض وصرخ في مساعده الخبيث:

ـ إخرس يا ابن الحرام! إخرس. قف! استعد! انصرف!

يحلو لبورديللو ان يطرد مساعده بالأمر العسكري كلما أثار غضبه. خرج المساعد وعاد بورديللو الى الكرسي وقد تعكر مزاجه.

وبرغم مزاجه السيء الا ان الندماء واصلوا السهرة. وكي ينسوا ما حدث أثنوا كثيراً على مواهب الكابتن ثم تفرقوا وناموا على أمل أن تتحقق أمجاد بورديللو وينال ضالّته في النهار. ولكن آجّار لم يستسلم ولم يشرب البول في الصباح فخيّب أمل الكابتن وكدر عليه فرحته بحفلة البارحة.

يئس فطاف يجمع المعلومات بين الاهالي عن سرّ تحمل الجمل للعطش شهوراً كاملة. استفسر من الشيوخ والحكماء عن اسلوب البدو في تقمص روح حيواناتهم والتطبع بطباعهم. وكانت الاجابة واحدة من الجميع: «ذلك سرّ لا يعلمه الا الله: يبذر في البدوي من روح الجمل، ويزرع في قلب الفلاح نواة النخلة! ويدس غموض الصحراء وراء أقنعة الملثمين!». ولكن الجواب لم يقنع بورديللو فلعن الاهالي واتهمهم باللجوء الى اساليب الصوفيين والدراويش في الاجابة. وهو كرجل عقلاني يريد الاجابات المادية، الواضحة، المحددة.

وكان بحثه يثير سخرية مساعده اللئيم فعلق أكثر من مرة بين العساكر: «انظروا اليه! يستنكر الدروشة وهو أكبر درويش! هل هذا عمل يليق بحاكم الواحة؟ هل هذا الجري واللهاث عمل يليق بعسكري يتقلد رتبة كابتن ويطمع في الحصول على رتبة جنرال؟ متى كانت رتبة الجنرال تمنح للدراويش امثال بورديللو؟». ضحك في باطن يده وأضاف بصوت هامس: «وتبلغ به الوقاحة ايضاً في ان يقارن نفسه بسيبيون وغاي ماري وفابي مكسيم! هيء - هيء - هيء ... درويش يحلم بمجد قائد عظيم! ولكن من غير الدرويش يستطيع ان يجرؤ ويقارن نفسه بهؤلاء!؟ هيء - هيء ... الدرويش بورديللو!».

الكابتن لم يستسلم. لم يشن حملته على الحبشة ولكن شنها على آجّار. أشاع في الواحة ان الراعي النّهم هجم على المعلبات والتهم محتوياتها من لحم الخنزير الذي حرّمه الدين. يدّعي الكبرياء واحتقار الطعام وينهار في اول الطريق ليأكل لحم الحيوان القذر!

جلس الكابتن في البهو وعاقر قواريره الخضراء وانتظر. مر أسبوع آخر.

الراعي لم يشرب البول.

توقع بورديللو ان يصمد البدوي في مقاومة الجوع اكثر مما صمد في وجه العطش وها هي التجربة تقلب الآية فما السرّ يا ترى؟

لا احد استطاع أن يجيب.

لجأت الصحراء الى لعبتها في تجاوز الفصول فتقفز من الصيف الى الشتاء دون المرور بالخريف وتقفز من الشتاء الى الصيف متخطية فصل الربيع. الشمس تسرح

الآن في الفضاء وتتربع على عرشها في قلب السماء وتأمر اشعتها بمعاقبة الارض بألسنة النار. حرقت قلب آجّار ايضاً فغاب في رحاب الغيبوبة وشرب من قارورة البول مع بداية الأسبوع السادس. برر هذا الفعل الشنيع فيما بعد قائلاً ان الغيبوبة بلغت به حداً لم يعد يستطيع فيه ان يميّز الاشياء. قال ايضاً أنه لا يذكر أنه شرب أي سائل!

طاف بورديللو أحياء الواحة مع عساكره وشنّع بآجّار المسكين، تعمد أن يسوّد سمعة «المتمرد» بين الأهالي أولاً تنفيذاً لتكتيك مؤداه أن الشائعة تصبح قابلة للتصديق بين «المتطوعين» عندما تصل آذانهم من أفواه أبناء جلدتهم.

أعاد آجّار الى حظيرة المعسكر وسافر برفقة عدد من الهجانة في رحلة الى البرية ليصطاد المزيد من «المتطوعين».

في غيبته انتهز آجّار الفرصة وثأر لنفسه من الكابتن. وجد نفسه دون ان يدري يخطط لتمرد حقيقي. ولم يكن ليستطيع ان يفعل ذلك لو لم يجد الجو مهيئاً في المعسكر. فساد التذمر وبحث الشباب عن وسيلة للتنفيس عن حقدهم المكبوت. اجتمعوا في الليل، تحت ضوء القمر، ورتبوا للعصيان. في الفجر خنقوا الحرس ونكلوا بالعسكر. نهبوا السلاح وهاجموا المركز في قلب الواحة. قتلوا عدداً كبيراً من جنود الطليان وهرب المساعد البدين واختفى في بيت امرأة مستهترة من نساء الواحة اعتاد ان يختلس لها الزيارات في الليالي الظلماء. فآوته المرأة وتنكر في الزاوية في لباس أمّها العمياء حتى هدأت الانتفاضة وتفرق «المتمردون» وعادوا الى واحاتهم وخيامهم المنتشرة في الصحراء.

آجّار عاد ايضاً الى خيمته في «مساك ملت» وجمع إبله التي تشردت اثناء غيابه. داعب زوجته وطلب منها ان تسمعه بعض الالحان على انغام «امزاد».

كان صدى صوته يتردد في جبال «مساك» وهو يرفع عقيرته باغنية قديمة او يتدرب على معاندة لحن جديد محاولاً ان ينسى كل ما حدث.

في تلك الأثناء كانت السلطات الايطالية تبعث بلجنة خاصة للتحقيق في أحداث مرزق وتفتح صحيفة اتهام ضدّ بورديللو اعتقل بموجبها وجرّد من صلاحياته العسكرية واقتيد في سيارة خاصة الى طرابلس ليمكث في الحبس هناك قرابة الثلاثة اشهر.

ولا احد يدري بأي حيلة استطاع هذا الشيطان ان يقنع السلطات في طرابلس بعد خروجه من السجن، بالعودة من جديد الى الواحة وتنفيذ فكرته الجذابة في غزو الحبشة بفرق الهجانة الليبيين.

إستيقظت مرزق في احد الايام على هدير المحركات. دخلت سيارات الشحن الواحة في طابور تحمل اكواماً من الجنود الزنوج المسلحين بالبنادق، يرتدون اللباس العسكري الايطالي ويسددون النظرات العدوانية للأهالي الذين تزاحموا في الفضاء وسط الواحة ليتفرجوا على عودة بورديللو في موكبه المهيب.

على ايدي هؤلاء الزنوج شهدت الواحة البائسة فظائع لم تشهدها حتى على ايدي القائممقامية العثمانيين.

في اليوم الاول انتشروا في الواحة، ورقدوا بين أشجار النخيل طلباً للراحة من الرحلة الطويلة. اطمأن السكان وكسبوا ثقة الأهالي. في اليوم التالي نهبوا الحقول واستولوا على ممتلكات المزارعين ونحروا المواشي. وفي اليوم الثالث اغتصبوا النساء وضربوا الفلاحين. وفي اليوم الرابع شنقوا ثلاثة شباب في ساحة السوق اتهموهم بالتخطيط للعصيان وتنظيم فرقة للمقاومة.

سار بورديللو بينهم مبتهجاً بانتصاره. يعقد يديه خلف ظهره، يغافل العساكر ويستل قارورة صغيرة من جيب بزّته العسكرية الداخلي، يتناول جرعة أو جرعتين مدعياً أنها دواء للصداع المزمن الذي سببه له الأهالي الأوباش!

بورديللو يردد ايضاً ان غراسياني على حق وبالبو على خطأ. لا ينفع مع هؤلاء البدو الأوباش إلا القبضة الحديدية. المرونة هي سبب مأساته الأخيرة وتهاونه في ضربهم باليد الحديد أدت به الى السجن. وقال أنه استفاد من التجربة وأقنع السلطات باستخدام الأسرى في الحرب الدائرة في الحبشة واستثمارهم في تسليطهم على أهالي الواحات الذين رفضوا ان يذهبوا لمحاربتهم هناك. يضحك بوحشية ويستلقي على قفاه ويردد: «اذا لم يذهب محمد الى الجبل فإن الجبل يجيء الى محمد. رفضتم الذهاب لمحاربة الغوريللات فجاءت الغوريللات لمحاربتكم في دياركم! أيها البلهاء! الأوباش! ها - ها - ها!». وكان يضرب بعصاته كل من يعترض طريقه من العساكر الطليان أو الزنوج أو الأهالي. وتبلغ به الهستيريا في بعض الاحيان حداً يدفعه الى الانخراط المفاجىء في البكاء. فيسقط

برأسه على أقرب صدر. صدر طلياني أو زنجي أو حتى صدر أحد الأهالي. فشاهد الناس اكثر من مرة رأس بورديللو وهو يستلقي على صدر زنجي من الجنود الأحباش وينتفض جسده وهو يغالب الدموع في حين يرتبك الجندي الزنجي ولا يعرف كيف يعالج الموقف، فيبتسم العساكر الطليان الخبيرين بطبع رئيسهم المجنون. استباح الكابتن الواحة لجنوده أربعة أيام، أذن لهم خلالها ان يفعلوا بها ما يحلو لهم. فانطلقت الغرائز وانفلتت الرغبات وبطش بها الاحباش الوحوش الذين حمّسهم بورديللو قائلاً: «اقتلوهم! عاشروا نساءهم! اقتلوا اطفالهم! اشنقوا رجالهم! الأوباش! انتقموا!». ثم يلتفت بعد ان تلعب الخمرة برأسه فيشهق ويبكي ويردد: «ضاعت الامجاد! ضاعت الاحلام! لن أغزو الحبشة ولن أصبح قائداً عظيماً بعيداً عن روما. لن انتصر على هانيبال مثل سيبيون! لن أقهر يوغرتن مثل غاي ماري. لن أستولي على الغال ومصر مثل القيصر. لن أضع ملكهم الغوريللا في القفص وأذهب به الى عاصمة الامبراطورية! أنا خائب. نعم. أنا بورديللو. مجرد سكير سيظل برتبة كابتن الى الأبد. كابريني أشجع مني. يحسن بي أن أذهب وأعلّق رأسي في النخلة مثله!».

وعمل على تحويل معسكره القديم الى معتقل قلّد فيه معتقلات غراسياني في «العقيلة» وطاف الصحراء بالسيارات المكشوفة واصطاد الشباب وزج بهم في المعتقل.

الأمل ما زال يراود بورديللو في إعادة بناء الفرقة والمساهمة في غزو الحبشة حتى لا يفقد نصيبه من الغنيمة فتوزع الرتب وتقلد الأوسمة والمناصب قبل أن يقتحم بفرقة الهجانة حدود الحبشة الغربية.

لم ينس الكابتن أن يحمل مسؤولية فشل خطته في المرة الاولى لآجّار المسكين فقطع الصحراء وأغار عليه في سهول «مساك ملّت» الغارقة في الشمس والسكون.

اختار بورديللو الفجر ليكون موعداً لهجومه على خيمة آجّار الضائعة في المتاهة الأبدية فتبدو صغيرة، تافهة، في العراء. أما في ذلك الوقت المبكر من الصباح فإن العتمة حجبتها عن الأنظار.

الكابتن بيّت على الراعي في المساء السابق للهجوم. وشاهده من خلال

عدستي منظاره المكبّر وهو يهش أغنامه وإبله ويرابط بها في الخلاء الممتد أمام الخيمة الوحيدة. بعدما اطمأن للجوء البدوي الى خبائه منحه الفرصة كي يهجع على صدر زوجته آخر مرة ودبّر هجومه في الفجر. رفاقه الزنوج تابعوا الكابتن بدهشة. لا أحد منهم فهم معنى هذه المناورات. ظنّوا في البداية ان الكابتن يعد للهجوم على إحدى الفرق الفدائية التي استمر الرحل في الصحراء يقاومون بها المستعمرين الذين ظلوا يخدعون أنفسهم ويتظاهرون بأن البلاد تنعم بالاستقرار والرخاء في ظل حكمهم.

ولكن الزنوج علموا في آخر الليل أن الضابط الايطالي المهيب الطامع بتحقيق الأمجاد في قارة افريقيا يرتب كل هذه التدابير لاعتقال أحد الرعاة البائسين كي يأخذ بثأر قديم.

في الصباح أصدر التعليمات وأذن لهم بامتلاك الصحراء.

حاصروا الموقع بالسيارات الثلاث ونزل الأحباش وحرقوا الخيمة الوحيدة واتلفوا مخزون القمح والشعير والتمر. مزقوا الأكياس بالسكاكين وأفرغوا محتوياتها على الأرض.

علا صراخ المرأتين واختلط بثغاء الماعز وأصوات الابل.

اندفع ثلاثة من الزنوج واعتقلوا المرأتين. قيدوا رجليهما وأيديهما وسدّوا فمهما بالخرق التي اقتطعوها من أكياس الخيش حتى يضعوا حداً لصراخهما المتواصل.

ربطوا المرأتين متجاورتين في العراء. شدّوا أيديهما وأرجلهما إلى أوتاد ثبتوها في الأرض. التفتوا الى الأنعام الوديعة التي وقفت خائفة تدق الأرض بحوافرها محاصرة في دائرة الجنود كحيوانات في قفص. لا يعرف أحد ما اذا كان الكابتن هو الذي أصدر الأمر أم أن الأحباش هم الذين بادروا. ضغط أحدهم على الزناد وتبعه الآخرون. وجدوا أنفسهم يحصدون الحيوانات بالرصاص وينفذون مذبحة: خرّت الجمال وغرقت الأغنام في بحيرات من الدم الحار. ظلت بعض الرؤوس التي لم تسلم الروح بعد تنتفض وترتجف في حين ثابرت الرؤوس الجريحة والمكسّرة القوائم تحاول جاهدة الافلات من المذبحة، لتسقط في بحيرات الدم وتنهض على قوائمها المحطمة. آجّار رأى في ذلك اليوم حيواناته تبكي لأول مرة.

رأى دمعة كبيرة تنحدر على وجنتي الناقة وهي تنحني فوق بكرها الصريع الجاحظ العينين المطروح في بركة الدم ماداً قوائمه الأربع. رأى جدْياً يتحسس أمه القتيلة بخياشيمه ويجول بعينيه الوديعتين متسائلاً عن السبب.

آجّار أيضاً مقيّد إلى السيارة المكشوفة. حاسر الرأس، على شفتيه ترفّ ابتسامة غامضة رأى فيها الكابتن التحدّي والسخرية فركله بحذائه أكثر من مرة.

ارتفعت شمس قانية وتناول بورديللو إفطاره. تجرع من قارورته الصغيرة وخاطب أسيره:

ـ كما ترى يا آجّار. نحن نقول إذا لم يذهب محمد الى الجبل فإن الجبل يأتي الي محمد. قمت بتحريض الشباب لرفض الحملة على الحبشة وها هم الأحباش يأتون إليك في صحرائك ويخربون بيتك!

تجرع من القارورة مرة أخرى وقال بوحشية:

ـ سأخرب بيتك كما خربت بيتي يا مجرم!هل تصدق يا باولينو أن هذا الراعي التعس ساهم في تخريب بيتي؟

باولينو هو مساعده الجديد. مساعده البدين القديم رفض العودة والتحق بمعسكر آخر ويقال أنه التحق بمعسكرات غراسياني في العقيلة.

بدأ الخمر يلعب برأس بورديللو واستولى على لسانه وانطلق يتحدث نيابة عنه:

ـ حرّض الشباب فهربوا جميعاً. أفشلوا خطتي في غزو الحبشة فسبقني إليها هؤلاء الجنرالات البلهاء. هذا الراعي كان السبب. أخّرني وحطم أحلامي.

عقد يديه خلف ظهره وبصق فوق حبات الشعير المتناثرة على الأرض وأضاف بنبرة أليمة:

ـ لا أخفي عليك يا باولينو. جئت الى سواحل افريقيا مع كابريني طمعا في المجد واسترداد حق الامبراطورية في امتلاك «الشاطىء الرابع». كابريني وجد نفسه وحيداً في واحة بائسة في قلب الصحراء الكبرى فشنق نفسه فورا. استولى غراسياني على المجد وتركنا نعاند السراب والبدو الأوباش. قلت في نفسي ما زال

ثمة أمل طالما ثمة اطماع أخرى للدوتشي في القارة السوداء. أعددت خطتي في اقتحام الحبشة من شرق الصحراء، ونالت الموافقة والاستحسان. ثم.. ثم جاء هذا البدوي ليحرض «المتطوعين» ضدي ويحرمني استرداد مجد الأجداد. كنت أحلم أن أكون سيبيون الإفريقي رقم ٢ ولكن يبدو ان العظماء لا يتكررون.

ثم قرأت الخمرة على لسانه بيتيه المفضلين باللاتينية:

حتى سيبيون: برق الحروب ورعد قرطاجنة

سلّم رفاته للأرض مثل خادم بائس!

لم يصفق له أحد فانخرط يعزي نفسه بأن المجد أيضاً زائل والدنيا كلها باطل الأباطيل وقبض الريح.

مع المساء أشعل الأحباش ناراً بدت مثل حريق هائل في الخلاء. اختاروا من مجزرة الأنعام عدّة شياه. سلخوا الجلود وأعدوا اللحوم للشواء. سقاهم الكابتن خمره فغنّوا بالأمهرية وصرخوا كما تعودوا أن يفعلوا في الأدغال. أدّوا بعض الرقصات المجنونة حول جثث الحيوانات الميّتة وزينوا خدودهم بدمها المراق على الأرض العطشى. قالوا أنهم يتبركون بالدم قرباناً لأرواح الحيوانات الذبيحة وإتقاء لشرّها وانتقامها.

تابعهم بورديللو حزينا. جلس أمامهم في العراء. طلب من أعوانه أن يأتوا له بالقوارير الخضراء كي يحتفل باعتقال البدوي المخرّب.

في قمة نشوته ويأسه تحدث عن عبث الوجود وخاطب باولينو ببيتين آخرين من ملحمة لوكريتسي مدعما موقفه من الحياة:

الحكمة تقضي أن تنشد في حياتك السكينة الكاملة

بدل السعي إلى العلياء: نحو عروش القياصرة(*).

طريقة بورديللو الاستعراضية في قراءة أشعار شاعره اللاتيني المفضل أثارت

---

* تيت لو كريتس كار: «عن طبيعة الأشياء» الكتاب الخامس. الابيات ١١٢٧ و١١٢٨ من الملحمة.

إعجاب باولينو فابتسم وصب له المزيد من الخمر. تحمّس الكابتن للثناء واندفع يتحدث عن قراءاته الجامعية لقدماء الفلاسفة الرومان. ودهش باولينو أكثر وهو يستمع الى بورديللو الضابط الخشن يسهب في سرد نصوص شيشرون وأوفيدي وسينيكا ولوكريتسي كار. قال في نفسه أن ثمة شخصية أخرى مدهشة تختفي وراء هذا الوجه الجامد. حدثه الكابتن أيضاً كيف قطع دراسته الجامعية والتحق بالكلية العسكرية تقليداً للموضة ونزولاً عند رغبة خطيبته التي هجرته بعدها وتزوجت استاذه الجنرال في الكلية. ضحك بورديللو وختم حديثه بالمثل الفرنسي القائل:

Chercher la Femme(*)

زحف الظلام فشقت ألسنة اللهب عتمة الليل وأضاءت جزءاً كبيراً من السهل.

سارع العساكر وفرشوا الأرض بالأغطية وهيأوا لرئيسهم مائدة المساء. صففوا الزجاجات والكؤوس وفتحوا معلبات اللحوم ودعوا الضباط لأخذ أماكنهم. الضباط ثلاثة: ثمة ضابط شاب ثالث، شاحب، صامت، يراقب ما يجري دون أن يعلق بكلمة. تصدّر بورديللو مائدة الوليمة وواجه موقد النار المحاط بالأحباش الممسوسين بالوجد والغناء وهستيريا الأدغال. غناؤهم الحزين الآن أقرب الى النحيب. فأرجع الكابتن هذه النبرة الكئيبة الى حنينهم للوطن والغابات. الأفارقة تقتلهم الغربة ويموتون بعيداً عن الأدغال. الأسير شاعر بالإكراه، حتى البلهاء يتحولون الى شعراء عندما يقعون في الأسر ويجرجرون ليعيشوا بعيداً عن أوطانهم. وكثيرا ما يذهب الأسر بعقولهم أيضاً. في طرابلس يتحدثون عن شاب حبشي نحيل غافل الجندي عند نزوله في الميناء. هجم عليه وانتزع منه الحربة. وبدل أن يطعن بها الجندي الطلياني وجّه الطعنة الى صدره العاري فأصابت القلب. قيل أنه فعل ذلك لأنه اكتشف الخدعة: طمأنه الضباط أن يعودوا به الى بلاده بعد أن يؤدي الأعمال الشاقة في شحن البواخر في جنوة. وعندما غادر جنوة واكتشف أن الباخرة لا ترسو في مرافيء بلاده وانما على سواحل شمال القارة قرر أن يضع حدّاً لحياته. أثيوبي آخر يعمل طباخا في معسكر للأسرى الليبيين والأثيوبيين في طرابلس هجم على مجموعة من أبناء جلدته بمدية ونحر عشرة أحباش وثلاثة

* «ابحث عن المرأة»: (بالفرنسية) بمعنى وراء كل مشكلة امرأة.

ليبيين وطلياني واحد. عرب الساحل يسمّون هذه النوبات الجنونية «لوثة الزنوج» وقد بدأ الطليان يصدقون بوجود هذه اللوثة. فلاحظ بورديللو نزعة الحقد الدفينة ضد جلاّديهم وقرر أن يستغلها ويوجهها ضد البدو في الصحراء كي يجبرهم على تأجيج الحقد بالمقابل فيرضخوا لتنفيذ حلمه الخاص بغزو الحبشة والفوز بالمجد العسكري. صورة القائد الروماني سيبيون وهو يهزم جيوش هانيبال ويخضع امبراطورية قرطاجنة تعيش في قلبه حتى أن زملاءه في الكلية اتهموه بجنون العظمة وقالوا له أن قراءاته في سير القدماء سممت عقله وأفسدت طبعه.

اكتشف مع الوقت ان سيبيون الافريقي اقتحم حياته وأصبح جزءاً منه. هاجس ظلّ ثابتاً أمام عينيه فدفعه للالتحاق بالمرفأ والانضمام للجيوش الذاهبة (لاستعادة) الشاطىء الرابع.

وكلما ابتعد الحلم واستحال تحقيق النصر كلما اشتد الهاجس وازدادت الرغبة حتى أصبح مثل الحمّى، فدفن الاحباط في قوارير الخمر. جاءه خبر انتحار كابريني في غات فاستولى عليه اليأس وبحث عن العزاء في قلل اللاقبي. تعوّد في الواحة ان يلجأ للاقبي عندما ينفد مخزونه من الخمور. وكان يخيل اليه في لحظات التجلّي والنشوة انه هو سيبيون الافريقي بقوته وحكمته وتواضعه فيتقمص شخصيته الجليلة ويأمر جنوده على لسانه ويطير في رحلة الحلم حتى الصباح. تسرح شمس الصحراء في الفضاء ويحرقه حرّ الأصيل فيفيق من حلمه الجميل ليرى الأهالي وهم يتسكعون في الشوارع المتربة، يهشون الذباب اللحوح، ويتبادلون الأحاديث الكسولة، فيعاوده اليأس فيهرع الى قواريره من جديد.

ارتفعت آهات أم أجّار فأجابتها تازايت بحشرجة مكتومة وحاولت أن تحرر يديها ورجليها. الأسيرتان المقيدتان ممدتان بجوار الموقد الهائل، ويبدو ان ألسنة اللهب حرقت الأم فحاولت أن تحتج. أجّار لم يتحرك ولم يحتج. معلّقاً في واجهة السيارة المكشوفة حيث أعد الجنود مائدة آمرهم ظل صامتاً، جامداً، غائباً.

تعمّد بورديللو أن يسقي الأحباش من خموره فسكر الزنوج وارتفعت حناجرهم بالأغاني الحزينة. تراكضوا حول النار وهم يهزّون البنادق في الهواء كما تعودوا أن يفعلوا مع رماحهم المسمومة في الأدغال.

كان أحدهم يحجل هنا وهناك ويقترب من الأسيرتين المشدودتين الى الارض

وفي عينيه الجاحظتين يقفز الجنون والعنف. بالغ الكابتن في الكرم وسقاهم دوراً آخر من قارورة معتمة اللون أثنى كثيراً على مفعول خمرها. وقال ضاحكاً أنه تلقاها هدية من أحد الاصدقاء القساوسة الذي استولى عليها بدوره من أقبية الفاتيكان حيث مكثت محفوظة هناك ـ حسب روايته ـ مائة وثلاثة عشر عاماً.

شرب الشاب المأخوذ بالوجد أيضاً فازدادت عيناه جحوظاً وقطر اللعاب من فمه في خيوط رفيعة طويلة تنساب على شفتيه وذقنه وتهوي الى الأرض.

راقبه الطليان بسخرية وفضول وهو يجول حول الموقع ويدور هنا وهناك زائغ البصر. اقترب من آجّار مرات عديدة وتفحصه بنظرة غائبة ولكن وحشية.

شرب كأساً ثالثة فهجم على وعاء نحاسي وصنع منه طبلاً شرع يقرعه بيديه ويرفع صوته بأغنية كئيبة محاولاً ان يلتقط الايقاع بجسده الراقص. وشدّ الباقون أزره بالتصفيق.

بعد قليل تحوّل الغناء الى حفل إفريقي صاخب.

لم يسمع أحد خوار الجمل الجريح وهو يتخبط في بركة الدم ويحاول أن ينهض على قائمتيه الاماميتين. لمع الدم المراق تحت أشعة اللهب وبدت جثث الأنعام هامدة، ساكنة، غامضة مثل مقبرة مهجورة. أحجام الجثث متفاوتة، ولكن شيئاً واحداً يجمعها هو هذا الفزع والتساؤل الذي تنطق به عيونها الجاحظة حتى في الليل تحت وميض اللهب.

تقدّم حبشي آخر من الشاب المجذوب وبدأ يتشنج بجواره ويردد خلفه الأهزوجة البدائية الحزينة. وخلفهما، عند الموقد الكبير، يتقافز ثالث في حركات بهلوانية.

نشوة الخمر أجّجت فيهم الحماس وأيقظت حنينهم.

قال بورديللو وهو يتابع البهلوان الزنجي:

ـ يقال أن هيلا سيلاسي اشتكى الى عصبة الأمم وطلب التدخل لوقف الغزو.

علّق باولينو:

ـ يشتكي الى عصبة الأمم أو لجدّه سليمان. الحبشة لنا. ستسقط بين أيدينا قريباً.

هدد بورديللو ملوحاً بقبضته في الهواء:

ـ لن يهنأ لي بال حتى أضع هذا الغوريللا في القفص وأطوف به شوارع روما كما فعل غاي ماري مع ذلك الهمجي «يوغرتن». قرأت أن هذا الوقح قال ضاحكاً عندما ألقوا به في السجن تحت الأرض: «أوه يا هرقل! ما أبرد حمّامات هؤلاء الرومان!» ما أوقحه! ولكن الحق يقال ان شجاعته لا تقارن الا بشجاعة المارد الآخر هانيبال. عظمتنا نحن الرومان أننا نقدر الشجعان حق قدرهم. هذا سرّ انتصاراتنا!

جاء له أحد جنوده بعود طويل رشقت فيه قطع اللحم المشوي. قلّب العود في ضوء النار وتمتع برائحة الشواء. واصل حديثه:

ـ كما أن الاعتراف بالهزيمة شجاعة فإن الاعتراف بشجاعة الأعداء شجاعة أيضاً. يجب ان نتعلم كيف نعامل أعداءنا الشجعان مثل أجدادنا القدماء.

قضم قطعة من اللحم فعلّق باولينو:

ـ هل تقصد أعداءنا من الأحباش أم من الليبيين؟

أجاب بورديللو وهو يلوك قطعة اللحم بكسل:

ـ من كليهما!

ثم ردد مرة أخرى:

ـ لن يهنأ لي بال حتى أرى الغوريللا هيلا سيلاسي في القفص!

ضحك باولينو وتأوهت تازايت بصوت مخنوق. فمها مليء بالخرق والأسمال البالية وقد تعرّى جزء من فخذها البيضاوي. كانت تحاول الافلات وتحرّك فكيها في مثابرة على أمل ان يمكنها المضغ المستمر من تحريك فكيها وتحرير لسانها.

عيناها، في ضوء النار، تلتمعان بالشقاء.

عينا المرأة العجوز أيضاً.

عينا آجّار فقط فارغتان.

ازداد الاحمرار في مقلتي الشاب الأثيوبي الهائج ومضى يؤدي طقوساً جنائزية بجوار النار، يدق على الطبل ويتمايل خلفه رفاقه وهم يرددون الأهزوجة الحزينة ويدقون الأرض بأقدامهم في إيقاعات منتظمة، متشنجة، عنيفة، يلوحون بالبنادق الايطالية في الهواء، فوق رؤوسهم. وكلما أكرمهم الملازم المساعد بكؤوسه كلما ازدادوا هياجاً وجنوناً وحزناً وغياباً في طقوس الأدغال.

انتشى بورديللو أيضاً وطار عقله في رحلة الأحلام الى الماضي.

رأى نفسه يحتل عرش المجد ويتقمص شخص سيبيون المهيب. ترنّح من النشوة وأسبل جفنيه محاولاً أن يحتفظ بتصوراته اللذيذة أطول زمن ممكن. تابعه مساعده الملازم مبتسماً.

توغل الليل في الظلام وغذّى الأحباش موقد النار بمزيد من الحطب.

المزاج الرائق دفع الكابتن لأن يهدي لجنوده قارورة كبيرة ليشاركوه فرحته هذه الليلة. ثم نهض وحجل محاولاً أن يقلّد الأحباش في رقصهم الهمجي. أثار ذلك ضحك الملازم فتبعه الجنود الطليان وهم يتشوقون لتذوق القارورة الخضراء. النار فضحت تشوقهم فلمعت عيونهم بالرغبة والانتظار.

في تلك اللحظة اقترب الكابتن من أسيره ولفح وجهه بأنفاسه الكريهة وفي عينيه الثقيلتين نظرة همجية. كان آجّار يستسلم على صليبه في مقدمة السيارة ينظر الى الظلام الذي ينطلق وراء النار ويلف الصحراء، بعينين فارغتين.

صاح الكابتن:

- ما رأيك الآن أيها المخرّب؟ هل اعتقدت أنك ستفلت من العقاب الى الأبد؟ هل ظننت أن بوسع صحرائك العارية أن تخفيك عنّي؟ أودعتني السجن وها أنا أعود لأقبض على رقبتك كالأرنب. هه - هه - هه... قل لي: ماذا سأفعل بك الآن؟

نخسه بسبابته في صدره وانطلق في ضحكة عصبية وقحة فيها شيء مّا شيطاني. حيواني.

أضاف:

ـ ما هي طريقة التعذيب التي تفضّلها؟ أكلت على يدي الحلّوف المحرّم ولم تتعظ. شربت ليتراً كاملاً من البول ولم ترتدع فلا مفر من أن أكويك بالنار في رأسك أيها الشيطان البدوي. ها ـ ها ـ ها...

هرش رأسه والتفت نحو الملازم:

ـ ساعدني يا باولينو في إيجاد طريقة مناسبة لمعاقبة هذا الشرير. لقد خرّب مشروعي في غزو الحبشة، فكل عقاب يناله لا يفدي الجريمة التي ارتكبها في حقي. هيا: ساعدوني بالله في ايجاد حيلة جديدة.

ازداد التعبير الحيواني في نظرته وهو يقول:

ـ قل لي: هل زوجتك حامل؟ هل تنتظر وريثاً؟ وليدك هو الذي سيفدي الجريمة التي ارتكبتها في حقي. ها ـ ها ـ ها...

التفت نحو جنوده وصرخ معانداً ضحكة وحشية:

ـ افحصوا امرأته. أريد أن أعرف عما اذا كانت بدويته الحسناء حبلى. أريد أن أنال حقي من المجرم. سيجهضها له الأحباش الذين رفض أن يرافقني لمقاتلتهم. إذا لم يذهب محمد الى الجبل فإن الجبل يجيء الى محمد. هيء ـ هيء ـ هيء..

ثم اقترب بوجهه من آجّار ولفحه بأنفاسه الكريهة وأضاف:

ـ ما رأيك يا سنيور آجّار؟ هل يستطيع خليفتك البدوي ان يفتدي مشروعاً ضخماً مثل غزو الحبشة؟ آ؟ هل هذا عدل؟ ولد في طور التكوين في بطن أمّه مقابل رتبة جنرال ومجد أبدي يعادل أمجاد سيبيون في غزو قرطاجنة. هل هذه معادلة عادلة؟ لا أعتقد أن مجنوناً واحداً في الدنيا يرضى بهذه القسمة. وبرغم ذلك فإني على استعداد. لم تترك لي خياراً آخراً. سأبقر بطنها أو أطلق عليها الأحباش كي يجهضوها وأطلق بالمقابل سراحك. ما رأيك؟ ها ـ ها ـ ها... ما رأيك يا باولينو؟

ترنح حتى كاد يسقط. أمسك بالسيارة وعاد لاستفزاز أسيره:

ـ لماذا لا تحتج؟ لماذا لا تعترض؟ لماذا لا تتكلم؟ لماذا لا تحاول الافلات من القيد؟ لماذا لا تبصق في وجهي؟ هيا. ابصق في وجهي حتى أجد مبرراً لتنفيذ مشروعي الجديد. ها ـ ها... أنا قيدت يديك ورجليك ولكني لم أسد فمك ولم أقيد لسانك. تستطيع ان تبصق في وجهي. اضطررت أن أسد فم بدويتك الحسناء لأنها صدّعت رأسي. أوه، أيها المسيح، ما أطول لسان البدوية وما أشرس ولولتها! أنا لا أطيق الضّجة. أنا أعمل بنصيحة الجنرال بالبو. إفعل كل شيء بهدوء! حتى اذا اضطررت للقتل فالأفضل ألاّ يكون ذلك بالرصاص. اخنق بيديك، أو اشنق بحبل! ها. ها... الجنرال بالبو حكيم.. الآن عرفت أنه حكيم حقاً!

تهامس الجنود الطليان فحدس باولينو أن الهستيريا بدأت تنتاب الكابتن. حدثوه كثيراً عن مرض بورديللو وحذروه من اللحظات التي تنتابه فيها النوبة.

واصل الكابتن خطابه:

ـ هل تعلم يا باولينو أن هذا البعير يتعمد استفزازي؟ لا أدري كيف توصل الى أن صمته يثيرني فتمادى في صمته كي يستفزني. أنظر الى هذا الوجه البارد. انظر الى هاتين العينين الفارغتين. ألا يعطيك انطباعاً بأنه جمل؟ ها ـ ها...

تصبّب العرق من جبينه وتناثر الزبد حول شفتيه. اقترب بوجهه من الأسير مرة أخرى فكشف آجّار عن أسنانه البيضاء بابتسامة صغيرة. بدأت الابتسامة تتسع وتتسع حتى شملت وجهه كله. ابتسامة غريبة، بلهاء، غامضة. ابتسم وجهه فقط ولكن عينيه ظلتا فارغتين. تفرّس بورديللو فيه لحظات ثم التفت الى مساعديه:

ـ انظر اليه. انه يبتسم. انظر الى ابتسامته البلهاء، انها تطل علينا من القبور. ماذا يريد هذا الحيوان أن يقول بهذه الابتسامة الخفية؟ انه يسخر مني! لا شك أنه يسخر مني يا باولينو!

أحدث صريراً مزعجاً بأسنانه وفضحت ملامحه وعيداً مكتوماً:

ـ الآن سنرى من منّا سيحتفظ بابتسامته الى النهاية. الآن سأريك السخرية! الآن سأذيقك طعم الاستفزاز أيها البعير!

تشنجت عضلات وجهه وارتجفت شفته السفلى. تقدّم من الفراش حيث تتناثر

القوارير والعلب وتناول أقرب زجاجة. تجرع من عنقها مباشرة. كانت فارغة. ألقى بها في الظلمة بعصبية وتناول قارورة أخرى. تجرّع منها فازدادت عيناه جحوظاً في أضواء النيران. بجوار النار واصل الأحباش رقصهم الهستيري. في الناحية الأخرى تصاعد أنين الأسيرتين فابتلعه ضجيج الزنوج. قال باولينو وهو يتربع على الأرض مقلداً أهل الواحات في جلستهم:

ـ يحسن بك أن ترتاح قليلاً يا كابتن. دعك من هذا الآن وتعال لنواصل حديثنا عن أمجاد الامبراطورية. تعال نهجر هذا العالم القاحل ونرحل الى روما. دعنا نحلم قليلاً. دعنا نتخيل أننا نعيش بين الحكماء والقادة العظام. اترك البدوي التعس واقرأ لي أشعار لوكريتسي الحكيم!

لم يلتفت له الكابتن. برقت مقلتاه بالجنون فتقدّم من جنديين يقفان بجوار الأسير وقادهما من أيديهما في الظلمة وتهامس معهما لحظات. عاد مبتسماً ولكن العنف لم يختف من عينيه. سدّد نظرة وحشية نحو آجّار المعلّق في السيارة. ابتسامته الغريبة ما تزال تكشف عن اسنانه النضيدة، أما عيناه ففارغتان، غائبتان، تحدقان في الفراغ البعيد، في الظلمة، خلف النار، حيث يمتد الخلاء الى الأبد. سمع عواء بعيد. رائحة الدم المهدور جلبت الذئاب أم رائحة الشواء؟ غاب العواء النهم، الشاكي، الشقي، في موجة الأصوات والأغاني.

تبادل الجنديان حديثاً قصيراً ثم ذهبا إلى تظاهرة المجاذيب الأحباش وحاولا أن يبوحا لهم بالأمر المبيّت. دسّا رأسيهما في دائرة الراقصين المتشابكين ولكن غياب الأثيوبيين في الغيب منعهما من تنفيذ مهمتهما.

نجح أحدهما بعد إلحاح أن يبعد الشاب الأثيوبي الهائج ويجرّه من يده ليتباحث معه على انفراد.

ابتلعتهما الظلمة في الخلاء.

لا يدري آجّار كم استغرقا في تدبير التآمر ولكنه يذكر كيف قفز الاثيوبي المجنون على تازايت ومزّق الثوب على جسدها. تعالى هتاف الاحباش وطوقوا الضحيّة. واصلوا غيابهم في الوجد ملوحين ببنادق الطليان في الهواء. شفاههم المفلطحة يعلوها الزبد، وعيونهم محتقنة بالاحمرار والعنف.

قفز الفزع من عيني تازايت. حاولت ان تتخلّص من قيدها بحركات مستميتة.

قفز الفزع من عيني العجوز المجاورة وحاولت أن تفلت من الأسر أيضاً. من هذه المسافة البعيدة استطاع آجّار، في ضوء النار المتلامعة، أن يرى الشقاء في نظرتها.

الشقاء في نظرة تازايت أيضاً.

تعالت ضحكات الطليان واقترب عواء الذئاب الشاكية، الجائعة، الشقية. امتزج صراخ الأحباش وضحك الطليان بعواء الذئاب. ترى هل جلبتهم رائحة الشواء أم استدرجتهم رائحة الدم المهدور؟

اقترب منه الكابتن ولفح وجهه بأنفاسه الكريهة، ورطن طويلاً. في عينيه حقد ونظرة همجية. ضحك فالتقط آجّار هذه النبرة الحيوانية، الشيطانية في ضحكته، ثم.. ثم انتقل لاستفزاز رفيقه باولينو.

رأى الحمّى التي يتحدثون عنها في عيني الكابتن. استقرّ في عينيه الجنون أيضاً.

خبت النار. اشتدت رائحة الشواء حتى تحوّلت الى شياط. احترقت قطع كثيرة من اللحم مغروزة في عود أكلته النار. اللحم تحوّل الى قطع من الفحم الأسود. اندفع أحد الطليان وألقى في الموقد بكوم من الحطب. ارتفعت ألسنة اللهب. مزّق الأثيوبي الهائج حنجرته بصرخة وحشية وهجم على تازايت. انتزع قطعة أخرى من ثوبها فتعرّى نهدها الأيمن. تصاعد الفزع في عينيها وجاهدت كي تفلت من الوتد المشدود الى الأرض.

ارتفع عواء الذئاب واقترب من موقع الوليمة البدائية: ترى هل الشواء أم الدم المهدور؟

كمية الحطب التي ألقاها الطلياني في النار كبيرة. فتصاعدت ألسنة اللهب وتدفق النور ليستولي على مساحة كبيرة من العراء. ولكنه لم ير شبح الذئاب في الخلوة المغمورة بالضوء. حدث مراراً أن اصطاد الغزلان والأرانب البريّة والودّان الجبلي وشوى اللحم على النار ليلاً وبرغم ذلك لم يحدث أن سمع للذئاب صوتاً.

فهل مذبحة الأنعام هي السبب في غزوتها هذه الليلة؟ سمع العواء الأليم قريباً جداً حتى أنه دهش أنه لم ير الذئاب في القطعة الكبيرة التي اقتطعها الضوء من العراء. أدهشه أيضاً أن أحداً من الجنود الطليان لم ينتبه الى هذا العواء المكلوم، الملتاع. استمرّت تازايت تناضل في سبيل تحرير يديها ورجليها من الأوتاد المغروسة في الأرض. عيناها الشقيتان تلتمعان باللوعة والوحشية. فكّاها لا يتوقفان عن مضغ الخرق المبتلة باللعاب. في معصمها الأيمن رأى الدم. حفر القيد الخشن جرحاً عميقاً دامياً في يدها.

علا صياح الزنوج. همهم الطليان بالتدابير والتآمر. اقترب العواء والتقط آجّار نبرة التوسل الممزوجة بالوعيد في عواء الذئبة. لا يعرف لماذا أحسّ أنها أنثى. ربما لأن أنثى الذئب أكثر شراسة وأكثر إلحاحاً في طلب الغذاء.

خيط الدم يطوّق المعصم كسوار قاني اللون، يلمع تحت وميض النار، وينزّ من قيد اللّيف. تازايت والعجوز قيدتا بحبال الليف الخاصة بتقييد الابل. أما هو فقيّده العسكر الطليان بخيوط القنّب التي جلبوها معهم. خيوط متينة أيضاً ولكنها رقيقة، ناعمة لا تقارن بخشونة الليف ونهمه لامتصاص الدماء.

اقترب بورديللو واهتز جسمه في ضحكة عصبية. صاح في وجه خصمه المصلوب على مقدمة السيارة:

ـ ما رأيك الآن أيها البعير البرّي؟ أما زلت تبتسم أيها الأبله؟ ألا ترى أن الغوريللات الجائعة تمزّق اللباس على بدويتك الحسناء؟ ها ـ ها ـ ها... لماذا لا تبتلع ابتسامتك البلهاء وتمزق صدرك بالصراخ كما تفعل النساء في النجوع؟ هيّا! مزّق حنجرتك! ها!

التفت نحو تظاهرة الأحباش وأمر بتزويدهم بمزيد من الخمور. خرجت مقلتاه من محجريهما وقال وهو ينهمك بمسح العرق عن جبينه:

ـ الآن سنعرف ماذا يرقد في بطن امرأتك، ذكر أم أنثى. ها ـ ها...

العواء يقترب، يشتد، يصم الآذان. ترى هل جلبهم الشواء أم الدم المهدور؟ عواء الذئاب فأل سيء في الصحراء الكبرى. لا يحوم ذئب حول نجع ويعوي ملتاعاً مثل هذا العواء الأليم الملحاح حتى ينزل الويل.

- عو.. و.. و.. و.. و..

تعالت صرخات الأحباش واشتكت الذئاب بحرقة وفجيعة:

- عو.. و.. و.. ا..ا..ا.. و..و..

ثم..

ما حدث بعدها كان مفاجأة للجميع.

فمتى وكيف استطاعت تازايت أن تحرر يديها وقدميها وتقفز في الأتون؟

ربما غيابه في متابعة الذئاب هو الذي ألهاه عن انتفاضة تازايت ضد جلاّديها برغم أنه لم يرفع بصره عنها أبداً. فمتى أفلتت؟ وكيف فكّت وثاق اليد الأخرى؟ وكذلك الرجل اليمنى، ثم اليسرى؟ السرعة التي فعلت بها ذلك هي التي أربكت الجلادين فلم يدركوها قبل أن تلقي بنفسها في النار. شعرها الكثيف الفاحم أشعث ومتناثر على وجهها وكتفيها. وجهها شاحب، الفزع يقفز من عينيها. لا. ليس الفزع. التحدّي احتل محل الفزع والفم مليء بالخرق المبتلة. وقفت في قلب اللهب ورأى التحدي في عينيها لآخر مرة. لم تفلت منها الصرخة. ربما لأن فمها مشغول بالأسمال البالية. ثم تحوّل التحدّي في العينين إلى شقاء. استشرست ألسنة اللهب وهي تتمتع بافتراس اللحم البشري. انتشرت رائحة الشياط قبل أن تسقط تازايت في الأتون. ترى هل جلبهم الشواء أم الدم المهدور؟

- عو.. و.. و.. و.. و..

مشهد الجحيم وهو يستطعم اللحم البشري ويتلذذ بأكل العظام أفتر حماس الزنوج وأفسد طقوسهم. توقفوا عن التشنّج وأداء الحركات الهستيرية. استمرت اطرافهم ترتعد وأجسامهم تتحرك وتنتفض. في عيونهم يومض القلق.

ازداد جنون الكابتن وانفتحت شهيته للعبث والتنكيل. عطشه للتمثيل بضحاياه يتعاظم كلما ثمل وتناول كمية أكبر من الخمور. قفز الى مخزون المؤونة وفتح قارورة جديدة. أشرف بنفسه يسقيها لآجّار غصباً. سال السائل الجهنمي على فمه وبلل صدره فاضطر أن يستدعي العسكر لمساعدته. أمسكا برأسه وفتحا فكيه بالقوة وتولّى هو عملية صب السائل الناري في حلقه. اضطر ان يبتلع السائل

الذي أحس به في حلقه حاراً كقطعة جمر. نزل في صدره فشعر به يسلخ الصدر ويشق الحلقوم كالسكين. التهبت معدته بالنار وصعد البخار إلى رأسه وتسلل الخدر الى المخ. طار عقله وأحس بجسمه خفيفاً كحفيف الريح في أوراق الأشجار البرية، كزغب الغزال الطائر في دوامة الغبار المرفوعة بأكف الجن، وتسلل في ألسنة اللهب الذهبية وابتعد عواء الذئاب حتى غاب نهائياً في المتاهة الأبدية. هجموا عليه وسقوه جرعات أخرى. خيل له أنه سمع قهقهات بورديللو. شعر بالفرح وبرغبة في الضحك.

إحساسه بالخفة والرشاقة أجّج فيه الرغبة في أن يطلقوا قيده ليشارك الأحباش في الرقص بجوار موقد النار. لم تعد النار ناراً ولا الفحمة السوداء الراقدة في قلبها رفات تازايت ولا العواء الأليم الصادر من الذئاب الملتاعة هو عواء، ولا الأم الراقدة بجوار الموقد أمّه ولا الشقاء الذي يقفز من مقلتيها المفزوعتين شقاء. ولا الكابتن الذي يضع يديه في وسطه ويغرق الآن في الضحك هو نفسه الكابتن الكريه بورديللو. كل شيء تبدّل وتغيّر فأين هو يا ترى؟ وماذا يفعل هنا؟

لا يدري كم مضى من الوقت قبل أن ينقطع خيط العقل.

صحا فوجد نفسه نائماً في العراء رأسه ثقيلة محطمة بالصداع، جوفه ملتهب يشتعل بالنار. وفمه تخشّب وحلقه جفّ. قلبه ينتفض ويرتجف بشدّة. زحف على ركبتيه ويديه بحثاً عن الماء. استمرت خيوط الدخان تنبعث من الموقد الخابي. ارتفعت اسطوانة الشمس عن الأرض بضعة أشبار. شق طريقه بين القوارير الفارغة. وجد القربة مبقورة الأحشاء، داس عليها الأحباش في رقصهم فغاصت أجزاء منها في التراب. انهار في سعيه ودسّ رأسه في الغبار مرارا كي يلتقط أنفاسه ويغالب الغثيان والعجز. رأسه ينشق ويتكسّر والجحيم يتأجج في صدره. جسمه قطعة من نار. بجوار الموقد المطفأ وجد غالونا ملفوفاً في قماش الخيش. سدادته مفتوحة ولكن في قاعه عثر على بقايا الماء. أطفأ ألسنة النار. أسند رأسه بذراعه وهمد لحظات. لا يدري كم مضى من الوقت ولكن ارتفاع قرص الشمس يدلّ على أنه أغفى. رفع رأسه. جلس كي يستعيد أحداث الليل. لاحظ جثة الأم مكومة على بعد خطوات من الموقد. لم تكن مقيّدة الى الاوتاد الأربعة كما توقّع. ممدّدة على ظهرها مسبلة الجفنين. تصالب يديها على صدرها في استسلام

وخشوع. على اليسار وبجوار الذراع رأى بقعة كبيرة من الدم. تيبست حبيبات الرمل على البقعة وتناثرت أيضاً على الشفتين والرأس الحاسر من الغطاء. في شعر رأسها برزت تلك الشعيرات البيضاء التي تحاول دائماً أن تخفيها عن الاخرين فتحرص أن تتستّر باللحَاف لتحجبها.

تأجج الجحيم في صدره. حرقت ألسنة اللهب قلبه. ركع بجوارها وتأمل التعبير الصبور على وجهها الشاحب. اختفى الألم، غاب الشقاء. بقي جلال الفناء والاستسلام الأبدي. رأى سوار الدم حول معصمها. الجرح في المعصم الأيمن أعمق من الجرح الأيسر. هناك تيبّست حبيبات الرمل أيضاً. أكوام التراب تناثرت على ردائها الأسود المفروش تحت عجيزتها وتمتد أطرافه حتى أسفل قدميها. بدا وجهها أكثر شحوباً وذبولاً تحت الشمس. في الهواء انتشرت رائحة مجهولة. رائحة الدخان ممزوجة بالغبار الذي أثارته اقدام الزنوج. عمق الصمت خرق أذنيه بالطنين الغامض. على المعصم استقرت ذبابة شرسة شرعت تلعق الدم بشراهة. حطت ذبابة أخرى بجوارها. طنينها امتزج بطنين الصمت. نهض وترنح بين بقايا الرماد والحطام. كان يبحث عن الفأس. غاصت قدمه في السائل اللزج فاكتشف أنه يخطو فوق دماء الأنعام المغدورة. كتل الدم مغطاة بأسراب الذباب وجثث المواشي بدأت تنتفخ وتتحلّل. عرف الآن مصدر الرائحة الغريبة التي تختلط برائحة الحطب المحترق. عيون الدواب جاحظة تحدّق فيه بإصرار. عيون مخيفة مثل عيون البشر. في الأفق حلّق صقر على ارتفاع عالٍ. وجد الفأس مغروساً في الدم منزوع النصل. انحنى فوقه كي ينتزعه فتدفق القيء من فمه في كتل صفراء كريهة. ظل يتقيأ حتى خيل له أنه سيقذف بأحشائه إلى الأرض.

في طرف البركة، أقصى الشرق، وجد مجموعة من الماعز مبقورة البطون مسلوخة الأجسام، ممزقة الأحشاء، تدب الديدان بين أطرافها. تذكر ذئاب البارحة فتيقن أنها لم تكن وهماً كما توقع عندما استيقظ في الصباح. نهشت من الدواب بعد رحيل الأغراب وعادت لتختفي في الخلاء قبل الشروق. وقف يراقب دبيب الدود. حيرته هذه السرعة التي يولد فيها الدود من لحم الجيف!

عثر على نصل الفأس مغموراً تحت التراب. أقدام الأحباش داست على كل شيء وطمرت الفأس.

حفر طوال النّهار.

في السهل ارتفع قبران. قبر الأم أقصر قامة الى جوار قبر تازايت. أهال التراب على أكوام الرماد في الموقد، حيث استقرت عظام تازايت، وصنع لها من الموقد قبراً مهيباً. دفن العجوز في قبر بجوارها، مسجّى نحو القبلة، ينتصب حجر طويل على رأسه.

في السماء ظل الصقر يحوم على ارتفاع عال ومع اقتراب المساء سمع عواء بعيد ولكن بنبرة مختلفة. عواء شرس ولكنه ليس أليماً كما في المرة الاولى.

ذئاب الأمس لم تكن وهماً.

شطر الأفق قرص الشمس الى نصفين. في سكون الخلاء نطق النصف العلوي بأسرار كثيرة وتكلّم بلغة حزينة قبل أن ينزلق ويتوارى خلف الخط المقّوس المجهول.

عادت الذئاب تعوي فتحرك باتجاه الواحة.

وصل أطراف مرزق بعد مسيرة أربعة أيام. شرب من عين التّين وغمر جسمه ولباسه بالماء واستلقى بين أشجار النخيل حتى حلّ العصر.

قصد الجامع فوجد الشيخ الزرقان يتوسط مجلس الشيوخ في البهو المسيّج بنخلات عالية. تفحصوه طويلاً. ثم تناطحوا برؤوسهم وتهامسوا وانفضّوا. تفرقوا الى الجهات الأربع وهم يهمهمون بالآيات والتعاويذ. تركوا الشيخ الزرقان وحيداً، حائراً، مرتبكاً. لم يرد على تحيته وانهمك يقرأ آية الكرسي. كررها ثلاث مرات قبل أن ينهض ويدعوه لمرافقته بإيماءة من رأسه. اخترق صفاً طويلاً من النّخيل ذات السيقان القصيرة ولكن كثافة اغصانها تتشابك في الفضاء وتشكل سقفاً يظلل الطريق ويحمي المارة من شمس الصيف. في نهاية الصف انحرف يميناً حتى وقف قبالة كوخ صغير يواجه تلة رملية يعلوها كوم كبير من الحطب. دعاه الى الجلوس على حصير قديم مفروش بجوار حزمة الحطب. ولكن آجّار اختار الرملة. فانهار على الأرض ودفن قدميه في التراب. غاب الشيخ داخل الكوخ لحظات ثم عاد حاملاً مبخرة فاحمة تومض في شقوقها جمرات متوهجة. هزّها أمام وجهه دون أن تتوقف شفتاه عن التمتمة بالقرآن. أخرج من جيبه حفنة من البخور، طحنها بين يديه وهو يحدجه بنظرة كئيبة ثم دسّ أنفه في البخور واستنشقه لحظات ثم رفع رأسه نحو السماء فاتحاً خياشيمه كما يفعل التيس عندما يشتم

بول المعزاة. نثر من البخور في المبخرة فارتفعت خيوط الدخان.

قبع الشيخ في مواجهته وأخرج مصحفاً صغيراً وشرع يتصفح أوراقه دون أن تكف عيناه عن مراقبة آجّار بتلك النظرة الغامضة. قرأ الآيات بصوت مسموع وهو يترنح يميناً ويساراً. وعندما انتهى أخرج حفنة أخرى من البخور تحسسها بخياشيمه بنفس الحركة التي تذكر آجّار بتيس الماعز ثم رش البخور في المبخرة. ختم تعاويذه بآية الكرسي وأعاد المصحف الى جيبه وأخرج مسبحة طويلة صنعت حبيباتها من شجرة داكنة الخشب. قال أخيراً وهو يدحرج حبات المسبحة بأصابع خبيرة:

ـ أرجو أن نكون قد وفّقنا في طرد الأرواح ودفع اللّعنة. والآن اخبرني ماذا حدث؟

تابعه آجّار بنظرة حائرة. قال بعد تردد:

ـ جئتك كي تخبرني بما حدث.

ـ ألا تخجل؟

ـ أقسم بالله. بورديللو سقاني اللاقبي من قواريرهم الملعونة ففقدت العقل، وعندما صحوت في الصباح وجدت أمي مقتولة برصاصة في القلب.

ـ لا إلا إلا الله.

ـ عطشان ومريض ورأسي يكسّره الصداع. في الشرق رأيت الصقر يحوم حول المكان ويحلق على ارتفاع عالٍ فحفرت لهما قبرين وأهلت عليهما التراب.

تابعه الزرقان بفضول. على شفتيه ابتسامة ساخرة. لم يعلّق. تابع آجّار:

ـ سمعت عواء الذئاب أيضاً. الذئاب لم تكن وهماً. سمعتها في الليل قبل أن أفقد الوعي واندهشت أن الطليان والأحباش لم يسمعوها مثلي فقلت أنه الوهم. في الصباح وجدت بطون الماعز مبقورة وفي المساء سمعتها تعوي.

هزّ الزرقان رأسه بأسى وتمتم:

ـ ربنا يشفيك يا ولدي. ربنا يهديك.

ابتسم آجّار ببلاهة قبل أن يعلن:

ـ الحق أني جئتك كي تشفع لي عند بورديللو. أريد أن ألتحق بالمعسكر وأذهب إلى الحبشة.

انتفض الشيخ وتوقفت أصابعه عن العمل. قال باستنكار:

ـ تذهب الى الحبشة؟ بعد كل ما حصل تتجرأ وتتراجع وتنزل عند رغبة الرومي؟

ـ ولماذا لا؟ لقد فقدت الآن آخر ما يربطني «بمساك ملّت». لا إمرأة لا أم ولا ماعز ولا إبل. ولا أنوي أن أقيم في الواحات مثلكم. ولذلك رأيت أن الالتحاق بكتيبة الكابتن هو الحل الوحيد.

ـ أنت مجنون. تصوم وتفطر على صيصة يا آجّار؟ رأيت عذاب الهدهد على يدي الكابتن المجنون وكنت المثال الذي احتذى به الشباب ثم تتنازل وتقبل الانخراط في فرقته لتتغرب وتذهب الى آخر الدنيا؟ ألا ترى أن لا ناقة لنا ولا جمل في تلك الحرب الدائرة في الحبشة؟ إعقل. إعقل وتريث!

ـ الأحباش قتلوا تازايت ودفعوها لأن تقتحم النار. و...

ـ آه! أنت تريد أن تنتقم إذن! تريد أن تلتحق بالكتيبة كي تنتقم من الأحباش. نجح الكابتن في إشعال الفتنة واصطادك في الفخ! حسبتك أعقل من هذا.

ـ هي فعلت ذلك من أجلي. كانوا ينوون أن يعبثوا بها أمامي فاستماتت في تحرير يديها كي تلقي بنفسها في النار. لقد رأيت الشقاء في عينيها. لو رأيت الشقاء في عينيها يا شيخنا لتطوعت أيضاً لمحاربة الأحباش.

ـ اعقل يا آجّار. الأحباش أيضاً مخدوعون مثلك.

ـ مخدوعون أم متطوعون هذا لا يهمني. لا بد أن يدفعوا ثمن الشقاء في عيني تازايت.

ـ سبحان الله! أنت أعند من طفل.

انهمك آجّار يحرث الرمل بعصبية. قال الزرقان:

ـ لو كنت مكانك لاعتصمت بالجامع وصمت وصليت الى الأبد حتى أكفر عن قتل الأم بدل الالتجاء الى الجلاّد والذهاب معه إلى الحبشة للثأر من الأحباش الأشقياء!

ـ قتل الأم؟!

ـ نعم. قتل الأم. قتلت أمك بيديك وجئت لتقول لي أنك دفنتها أيضاً بيديك فهل أنت إنس أم جن؟

ساد صمت طويل. رأى الزرقان تعبيراً غريباً في عيني البدوي. أضاف الشيخ:

ـ سقوك الخمر وجاء بها الجلاّد بورديللو مقيدة اليدين والقدمين والفم. أوقفها أمامك وسلّمك السلاح. يقال أنه اقنعك أنها أحد الأحباش المجاذيب ثم دعاك لأن تنتقم لتازايت فأطلقت عليها النار. اللّهم أجرنا! لا توجد جريمة في الدنيا تعادل قتل الأم يا ولدي. هل تعلم أنك ملعون؟ انت ملعون إلى الأبد.. حتى الصلاة والصيام والاعتصام بالجامع لن تكفّر عن إثمك.

ساد الصمت. استمر آجّار يحدق في الفراغ. ردد الشيخ بقسوة:

ـ ملعون الى قيام القيامة يا آجّار. ألم ترَ الادانة في عيون الشيوخ اليوم؟ أم أنك تتغابى وتأتيني لتحدثني بعد كل هذا عن رغبتك في مقابلة بورديللو ومصاحبته الى بلاد الحبش؟

صمت وبرق الألم في عيني الشيخ. قال:

ـ الأجدر بك أن تعتصم. اليوم قبل الغد. فربما رقّت السماء وغفرت لك جزء صغير من الإثم العظيم.

ارتعدت أصابع البدوي وهو يقول معانداً:

ـ يجب أن أذهب إلى الحبشة. لا بد أن أذهب.

انتصب الصمت. تابعه الشيخ بفضول. حلّ المساء. ارتفع صوت المؤذن معلناً حلول المغرب. تمتم الزرقان بالتلاوة والاستغفار ثم نهض لتأدية طقوس الوضوء...

ترك ضيفه في عتمة الغروب. لم يذهب آجّار الى الحبشة. ربما لأن بورديللو فشل في تنظيم حملته ولقي مصرعه المعروف على يدي محمد صالح في احدى جولاته بين الواحات لاستقطاب الرحّل فعاد آجّار الى «مساك» وهام على وجهه في صحرائها بضعة أشهر ثم نزل وادي الآجال واعتصم بالجامع في جرمة. تعلّم القراءة والكتابة على يدي الشيخ العجوز القادم من مراكش. صام وصلّى واعتزل هناك. وعندما مات الشيخ العجوز ورث عنه الامامة والصلاة بالناس. لم يصلوا وراءه لعلمه ولكن لألمه. فقد تعوّد أهل الواحات أن يقدسوا أولئك الذين تألموا كثيراً في حياتهم ليضعوهم في نفس المرتبة مع العلماء وربما القديسين والأولياء. يقولون: «من تألّم فقد تعلّم» ثم يهرعون الى الجامع ليؤدوا صلاة الجمعة خلف آجّار البدوي. ولكن قداسة آجّار لم تدم طويلاً. إذ أشيع أنه يتردد على بيت مطلقة تباوية تسكن كوخاً لا يبعد مسافة طويلة عن مبنى الجامع فهجره الناس وتحاشاه الشيوخ. فرغ الجامع من المصلين. فترك آجّار الامامة وانسحب للاقامة في كوخ بائس عند سفح الجبل الشرقي. اعتصم هناك حتى نزل الشيخ غوما للاقامة في وادي الآجال. التقيا في الجامع وتوطدت علاقتهما بصداقة صامتة تزاورا وترافقا في تأدية الزيارات إلى الأهالي والأعيان والحقول. ترافقا كثيراً في قطع الخلاء المؤدي الى سفوح السلسلة الجبلية الشرقية. وكان يغذي هذه العلاقة ميل الشيخ غوما الى مثل هذا النوع الغامض من الناس. قالوا في القبيلة: «ها هو الشيخ يجد له رفيقاً يحل محل العرّاف مهمدو في آدرار الفانية».

# القسم الثالث

# 1 ـ عيّاش الدّوس

في الخلاء الشرقي وقف عيّاش الدّوس يتمتع بالغروب. كانت الشمس الذهبية تركع في قداسة لتقبّل الافق. يروق له دائماً أن يتمتع بالغروب. لا يهزّه الشروق كما يهزّه الغروب. لا يعرف لماذا. ولا يعرف لماذا ايضاً يطيب للفقهاء ان يشبّهوا الغروب بالموت والشروق بالميلاد. يرى المهابة في الغروب اكثر من الشروق. يروق له ان يقول لنفسه ان الغروب اذا كان يرمز الى الموت والفناء فلا شك ان الموت جميل. غامض حقاً، ومجهول حقاً، ولكنه جميل وواعد. فهل يستطيع أن يعتمد على هذا الحدس الخفي في رحلة الفناء؟ عندما كان طفلاً يروق له أن يردد في وحدته: «الموت أجمل. الموت أجمل». ويطوف الغابة متمتماً بهذه العبارة بصوت خافت. وكثيراً ما يقف فجأة ويلتفت حوله حتى إذا تأكد أن أحداً لا يراه صرخ بالعبارة بصوت عالٍ. وقد حدث مرة أن سمعه أبوه في الحقل عندما كان يختبىء وراء نخلة كثيفة قصيرة القامة ليقضي حاجته فقفز من هناك وهو يربط سرواله ووقف قبالته وسدد له نظرة طويلة مهددة. نظرة لم يدرك عياش سرّها إلا بعد سنوات. إنها تترجم فزعه من أن تكون الآخرة أجمل من الدنيا فقاطعه ولم يتبادل معه كلمة واحدة عدة أسابيع. ولكن هذا لم يمنعه من أن يستمر في تطوير المفهوم الغريب عن المجهول. فدعا الى فلسفته الجديدة بين أقرانه الطلبة قائلاً: «اذا لم تكن الحياة جميلة فان الموت أجمل» فأثارت إعجاب الكثيرين ووجد من استفزته الفلسفة فقام ابن أحد كبار الموظفين واتهمه بأنه اختلس العبارة من كتاب المطالعة الذي يتضمن مقتطفات من أقوال قدماء الفلاسفة والحكماء. تنابزا بالألقاب وتشابكا في عراك بالأيدي. والحق أن لهفته الى المعرفة وشغفه بالعلم دفعه لأن يكون أكثر أقرانه تردداً على مكتبة وزارة الانباء والارشاد الملاصقة

لمحطة البنزين. يقضي هناك كل ساعات الفراغ بعد الخروج من الدراسة. وكان يتمنى أن يعثر على عبارته المفضلة أو أي شيء يفسّر له اللّغز الذي حيّره منذ الطفولة. تقفل المكتبة أبوابها فيهرع الى الخلاء ليتفرّج على الغروب.

التحق بمعهد المعلمين وتمّ قبوله في القسم الداخلي الواقع في مواجهة المكتبة بحدود الأبنية الشمالية المفضي الى خلاء يؤدي إلى الغابة. تيقن أنه فاز برضى الأولياء فقدموا له هذه الهدية كي يمكنوه من التردد على المكتبة واللجوء الى الخلاء لمشاهدة الشمس لحظة الغروب.

استمرّ يحلم بـ«الحياة الجميلة» حتى قدّم له المشرفون على القسم المبرر كي يجرّب النزاع ويطبق قراراته في الحياة. دأب هؤلاء اللصوص على اختلاس الاطعمة واللحوم من مخزن القسم، واختصروا وجبة اللحم من ثلاث مرات في الأسبوع الى مرة واحدة دون علم الادارة فقرر عيّاش أن يؤلّب الطلبة ويقف ضدّهم. نظّم أول إضراب عن الطعام يشهده القسم.

استمر الاضراب ثلاثة أيام. جاءهم مدير التعليم وخطب فيهم. طمأنهم الى انه سيعمل على تحسين الطعام ومعاقبة القائمين على الاعاشة. وفي اليوم التالي صدر قرار الادارة بطرده من القسم الداخلي. لجأ الى الغابة وأقام هناك حتى بدأت احداث يناير.

هذه الأحداث أكدت له أن كل ما قرأه عن العدالة صحيح ولكنه لم يقرأ في مصدر واحد من كل الكتب التي اضطلع عليها أن الظلم يمكن أن يكون بهذه القسوة، ولم يتصوّر أن بإمكان الناس أن يتجاسروا على اطلاق النار على الأبرياء العراة حتى من الهراوات. أدرك أنه لم يقدّر النتائج. والحياة أقسى بكثير مما تصوّره الكتب. رؤيته الطفولية عن جمال الغروب أصدق من تقدير الكتب وعبارة «الموت أجمل» ليست مبالغة طالما كانت الدنيا بهذه البشاعة. عاد يهمس بها لنفسه في الظلمة بين زملائه السجناء داخل تلك الزنزانة الكئيبة التي زجّهم فيها عساكر الحكمدار. نكّلوا بهم وكسروا عظامهم بالهراوات وأعقاب البنادق. تدخّل الشيخ غوما فأخرجوهم من الحبس ولكن الفرحة لم تتم. جاءته احداث يناير بالفصل من المعهد بعد أن جاءه الاحتجاج ضد سوء التغذية في الماضي بالطرد من القسم الداخلي. لم تكتف السلطات بقرار الفصل وإنما بعثت له بذلك السجان الكريه، الزنجي البدين، مصحوباً بفرقة من العسكر كي يجبره على التوقيع على

تعهد بعدم مغادرة حدود المحافظة. اقتحم الغابة في قلب الليل وقلب الكوخ رأساً على عقب وهو يلعن ويشتم ويردد: «شيوعيون! أوباش! ملاحدة! سيأتي اليوم الذي أمسحكم فيه من الدنيا. سأطهّر الأرض من أرواحكم النجسة!». ولم يهدأ حتى انتزع منه التوقيع.

اضطر أن يبحث عن عمل فالتحق بمقهى في قلب الجوهرة.

يقوم على خدمة الزوّار ويلبّي طلبات صاحب المقهى العجوز. في الأسابيع الأولى للعمل عانى من خدع الزبائن ودفع من جيبه لصاحب المحل بسبب حداثته بالمهنة. أعطاه العجوز عشرة قروش من فئة القرش والقرشين والخمسة ملاليم ليحاسب بها الزبائن ويعيد لهم باقي الحساب المدفوع على أن يتحاسب مع العجوز في المساء عند انتهاء العمل. كانت نتيجة هذه المحاسبة مدهشة بالمقارنة مع ما استلمه من بضاعة سواء في شكل سندوتشات او قوارير المشروب أو أقداح القهوة والشاي. فيضطر أن يدفع من جيبه مبلغاً يزيد على العشرة قروش الأولى التي استلمها من العجوز في الصباح وكثيراً ما يقوم العجوز بتسجيل مبالغ كبيرة ديناً عليه كي يستقطعه من معاشه في نهاية الشهر. حيّره هذا اللغز وحاول أن يبحث طويلاً. أين يمكن أن تختفي القروش العشرة؟ بل وتختفي عشرات كثيرة يدفعها من جيبه ليصبح مديناً لصاحب المحل بدل أن يكون دائناً له بأجر آخر الشهر.

احتمى بالخلاء وراقب الغروب. لامست الأسطوانة الذهبية خط الأفق فغمرته كآبة.

سمع الوالد في الواحة البعيدة بورطته فبعث له بثلاثة جنيهات مطوية في خطاب ملوّث بالبقع، كتب فيه تحذيراً يقول: «عشنا وسمعنا بولد يتحدّى الحكومة. كنت أشك في سلامة عقلك منذ الطفولة ولكن لم أتوقع أن تنتهي إلى الجنون. عليك أن تعود حالاً الى الحقل اذا شئت أن تنال مغفرتي!».

دفع جنيهاً ونصف لصاحب المقهى كجزء من الدَّيْن واشترى عدداً من أرغفة الخبز ومجموعة من علب السردين واحتفل بانفراج الضائقة. استضاف زيد كركوبة ودعاه الى العشاء.

أصبح زيد صلته الوحيدة بالقسم الداخلي وببقية الزملاء منذ ان خرجوا من

المعتقل. احتل زيد هذه المكانة بعد أن تلاسن مع آيس واتهمه بالتجسس والوشاية. ولكن كركوبة هذه المرة لم يحمل له اخبار الزملاء أو المعهد وإنما جاء ليكشف له سرّ اللعبة في المقهى. قال ان العجوز اتفق من ورائه مع زبائنه القدامى كي يدفعوا له خفية عنه واستغلوا سذاجته وحداثة عهده بالعمل فاستغفلوه طوال الوقت ودأبوا على الانسحاب دون دفع الحساب. الزحمة والدوشة ساعدتهم في تنفيذ خطتهم. ومع نهاية كل أسبوع يأتون ليتناصفوا معه المكسب. قال أيضاً أن رجلاً يعاني عاهة العرج هو الذي أخبره بذلك. وقد عمل في مقهى العجوز الجشع ووقع ضحية لهذه الحيلة مدة طويلة. وأضاف أن عليه أن يفتح عينيه ويتيقظ للمترددين المستديمين على المقهى إذا شاء أن يقبض على المتآمرين متلبسين بالجريمة. أكد له الأعرج أن العجوز الغشّاش يفعل ذلك كي يجبر العاملين في مقهاه على العمل بلا مقابل متذرعاً بأن البقشيش الذي ينالونه من الزبائن معاش كاف تماماً لتغطية أتعابهم المزعومة. يرى أن العمل في المقهى عطالة ليست جديرة بأن يدفع عليها أجر!

عيّاش لم يصدّق صديقه. قال لنفسه: «لا يمكن أن يصل الطمع بالعجوز حدّاً يجبره على هذه الحيل خاصة وأنه يشرف على القبر». ولكن تقديراته أخطأت مرة أخرى. ذهب وفتح الدكان قبل الشروق ولكن الزوّار لم يتزاحموا إلاّ مع الضُحى. الضحى هو موعد خروج الموظفين والعاملين بالدوائر الحكومية لتناول الافطار الثاني. يشرف العجوز بنفسه على إعداد أرغفة الخبز المحشوة بالتن والهريسة ويشطرها بعناية الى نصفين متساويين ليتولّى هو توزيعها على الزبائن المنتشرين حول الطاولات الخشبية داخل المقهى وفوق الرصيف المواجه. يومها تلكّأ عندما شاهد العجوز يتبادل حديثاً هامساً مع زبون بدين، قصير القامة في العقد الرابع يغمز بعينيه في حركة تلقائية متواصلة. تذكّر أنه لاحظ تردد الرجل على المقهى في الساعات الصباحية ولكنه لم يكن ضمن طابور الموظفين. تابعه وهو يحرر يديه الملفوفتين في الجرد الباهت الكثيف ويستند على الرف الذي يفصله عن العجوز. تراجع وجلس الى طاولة ملاصقة للجدار على يمين الرف وأشار له بيده. طلب فطوراً كاملاً. نصف رغيف بالتنّ وكيتي كولا وقهوة بالحليب. جاء له بالطلب وتحرّك يتنقل بين الطاولات الأخرى ليوزّع أنصاف الأرغفة المصففة فوق الطبق على بقية الموائد. مضى بعض الوقت قبل أن يستدعيه الرجل ويطلب الباقي. وقف عياش فوق رأسه وسأله في دهشة:

ـ وهل دفعت لي حتى تطلب الباقي؟

استنكر الرجل بوقاحة:

ـ ماذا؟ هل تنكرني؟ لقد دفعت لك ورقة الخمسة والعشرين قرشاً بمجرد أن وضعت رجلي على العتبة؟ هل نسيت؟ أم أن الدوشة طيرت رأسك؟!

هزّ عياش رأسه في حيرة:

ـ لا أذكر. والله لا أذكر. ربما لم تدفع وربما كانت الزحمة هي السبب.

رفع الرجل صوته:

ـ هل تشككني في نفسي يا عيّاش؟ هل أنا محتال؟ الشيب نبت في رأسي وتتهمني بالتحايل في آخر عمري؟ عشنا وشفنا..

ارتبك عياش وارتجف. تجمّع حولهما الفضوليّون فشعر بالخجل. كان العرق يتصبب من جبينه. اخترق العجوز الزحام وتساءل:

ـ ماذا حصل؟

واصل الرجل غاضباً.

ـ لم يحصل إلا الخير حتى الآن. بعد كل هذه العشرة يا سي الحاج يأتي من يتهمني بالتحايل؟ هل فرغت الدنيا من الراغبين في العمل حتى تشغّل هذا الولد الوقح الذي يعرف الجميع سوابقه في الشغب؟

ربت الحاج على كتفه وهو يدفع له الخمسة عشر قرشاً الباقية:

ـ طوّل بالك يا سي موسى. حصل خير. عياش لم يتهمك ولم يقصد إهانتك. الزحمة هي السبب. هذا حالنا دائماً في مثل هذه الأوقات.

هدأ الرجل ودس المبلغ الباقي في جيبه. حيّا الحاج بإشارة من رأسه وخرج. انفضّت الزحمة ولكن الدوس لم يتحرك. الحاج سوف يخصم منه الخمسة عشر قرشاً. سيضيفها على ديونه. هو على يقين أنه لم يستلم من الرجل قرشاً واحداً فأين الخطأ؟ حدجه أحد الزبائن بنظرة إشفاق وهو يضع في جيبه خمسة ملاليم

بقشيش وينصرف عائداً إلى عمله. وفجأة جاءه الوحي. اخترق ذاكرته كالبرق. الرجل محتال حقاً. إنه أحد أولئك الذين ظلوا يغالطونه ويخدعونه ويقيّدونه بالديون في هذا المقهى. وليس مستبعداً أن يكون قد احترف هذه الحيلة بالتنسيق مع هذا الحاج الجشع. قفز من المقهى وانطلق يجري مصمماً أن يلحق بالنشّال. قطع الشارع المسفلت واجتازه الى الطوار الآخر. أفضى الشارع الى الطريق الرئيسي المؤدي الى الحكمدارية. وقف والتفت يميناً ويساراً باحثاً بين المارّة عن الجرد الشتوي الكثيف. رآه يقترب من مبنى السينما باتجاه الحكمدارية. ركض خلفه وأدركه قبل أن يدخل شارع الاستقلال. وقف أمامه وأنفاسه تتلاحق. العرق يتصبب من جبينه وأطرافه ترتعد. ليس من التعب ولكن من الغضب. تذكر أنه لم يخدع اليوم فقط وإنما خدع طوال عمله في المقهى، بل طوال دخوله «الجوهرة». بل طوال حياته. والمسؤول عن هذه الخدعة هو هذا الرجل الكريه المتلفع بالجرد الشتوي الباهت الذي يحدجه الآن ببلاهة واستغراب. اخترقه الغضب وتصاعد زاحفاً إلى رأسه حتى حجبت عتمة مفاجئة ملامح الرجل. انهال عليه بالضرب. طرحه أرضاً وضربه بيديه ورجليه ومزّق وجهه بأظافره. تجمع المارة وهرع أفراد البوليس من المركز المجاور للحكمدارية. انتزعوه بالقوة وأمسك به ثلاثة عساكر. قال أحدهم:

ـ لا يكفي أن يعتدي على من يكبره سنّاً وإنما يفعل ذلك في الشارع أمام الحكمدارية!

واقتادوه الى المركز.

في اليوم الثاني زاره سجّانه الزنجي البدين في التوقيف وقال ساخرا:

ـ يسرّني أن أراك هنا مرة أخرى. أريد أن أراك باستمرار. لا أريدك أن تغيب عن بصري أبداً. ويسرني أكثر أن أراك داخل جدران السجون. هذا موقعك الطبيعي. هذا المكان الطبيعي للمتمردين الأوباش! ها ـ ها ـ ها...

بصق على الجدار في حركة استفزازية وأضاف:

ـ أخبرت المسؤولين بمخاوفي من إطلاق سراحكم. وها أنت تتورط في الاعتداء على الأبرياء. الحمد لله أن شكوكي لم تخطىء. أعرف أنك ستعود الى هذا الجدران ولكني لم أتوقع عودتك بهذه السرعة. الحمد لله على السلامة يا عياش!

أهلاً بك في بيتك! ها - ها - ها...

بصق مرة أخرى وتغيرت ملامح وجهه واقترب منه. قال بلهجة غامضة:

- إفعل ما تشاء! اضرب الناس أو أقتلهم إذا شئت. ولكن لا تتجاسر على مغادرة المحافظة. بوسعك أن تفعل أي شيء داخل حدود هذه الدائرة. أما مغادرة حدود المحافظة فممنوع. مفهوم؟ لقد وقّعت على تعهّد بذلك. هل تذكر؟ أرجو ألاّ تنسى.

حدّق فيه بعينين ضيقتين. ضيّق عينيه حتى كاد أن يغمضهما. ثم انصرف وأغلق الباب.

مكث في التوقيف أحد عشر يوماً. جاء الوالد من الواحة وأخرجه بكفالة.

طرده الحاج من عمله بالمقهى أيضاً. قال له الوالد وهو يطمر قدميه المتشققتين في الرملة أمام كوخه:

- عاندتني وطلبت العلم فماذا كانت النتيجة؟ طردوك بعد أن كسروا يديك ورجليك. رجوتك أن تعود الى الحقل فركبت رأسك مرة أخرى وحشرت نفسك في أعمال أهل المدن فماذا كانت النتيجة؟ غشّوك وأغرقوك بالديون وزجوا بك في السجن مرة ثانية.

صمت وأهال التراب على قدميه المتعبتين. استمر:

- ليس أمامك خيار آخر.. لا بد أن تأتي معي إلى الحقل. هناك مكانك الطبيعي فكف عن العناد.

لم يعلّق. الدنيا القبيحة جردته من كل الأسلحة التي أتاحت له الفرصة، في الماضي، كي يتخذها مبررا لإقناع الوالد. أمعن الوالد في توبيخه:

- طول عمرك معاند. معاند منذ الطفولة. إذا أردت شيئا فلا تتراجع حتى لو كسروا ضلوعك.. ربنا يهديك.

- إذا كانت الحياة قبيحة فإن الموت أجمل!

حاول أن يخنقها في صدره ولكن العبارة أفلتت رغما عنه. لاحظ التوتر

يستولي على الوالد المسكين. أحس نحوه بالاشفاق. فقد القدرة على الاستمرار فنهض فجأة. أعلن بهدوء ينذر باندلاع العاصفة:

ـ أعطيك مهلة شهر ونصف، شهر ونصف لا أكثر، كي تعود إلى رشدك وترجع إلى الحقل. وإذا لم تعد فسأضطر لألعنك. ستدخل جهنم. أتسمع؟ ملعون الوالدين مصيره جهنم. لقد نفد صبري.

في اليوم التالي غادر إلى الواحة. تركه يواجه مصيره، وحيداً، في الدنيا القبيحة ويفكر في الارهاب الذي ينتظره في الجحيم. خرج من الغابة ولجأ إلى الخلاء ليتمتع بمشاهدة طقوس الغروب. سلّم نفسه لتلك اللحظة الجليلة التي تنزلق فيها الأسطوانة الذهبية المستديرة خلف الأفق فتزحف على العراء المنبسط عتمة خفيفة تضع الحد الفاصل بين استمرار النهار وتسبق حلول الليل. تكاثفت العتمة فاستلقى على قفاه فوق الرملة وراقب السماء.. فكر كيف تتطوّر الأشياء. لم يتوقع أن تجرّ المغالطة في الحساب كل هذه المتاعب كما لم يتوقع قبلها أن يتجرأ أفراد المتحركة فيطلقوا النّار على العزّل لمجرد أنهم يهتفون بالاحتجاج. كان يقف في المقدمة، في مواجهة فوهات البنادق، وكان من الطبيعي أن يصاب، قبل غيره، بالعيارات. ولكن الصدفة العجيبة شاءت أن تصيب زميليه في الصف الخلفي، وهما طالبان مسالمان جادّان في دراستهما. لم يعرف عنهما أي نشاط معادٍ للحكومة. بل لم يسبق لهما أن اشتركا في مظاهرة. كانت تلك المرة الأولى التي يجرّبان فيها الاحتجاج فماذا كانت النتيجة؟ أين العدالة؟ الصدفة أمنت له النجاة مع زملائه في الصف الأمامي وصرعت أبرأ الأبرياء في الصف الخلفي. فكيف لا يوحي له الغروب الغامض بجمال المجهول. وحتى إذا لم تَسُدْ العدالة هناك فإن الموت يضع حدّاً للصدفة ويبطل تصرفاتها الساخرة. العدم يجبر الصدفة على الكفّ عن اللعب بمصير الأبرياء. تسرع وارتكب حماقة أخرى متهماً أقرب صديق بأبشع تهمة: الخيانة!

لم يكن ليسمح لنفسه بأن يشك في إخلاص آيس لو لم تشر له كل البراهين بإصبع الاتهام. فاقتحم رجال البوليس الكوخ بعد خروجه من الغابة بساعة أو أكثر بقليل. فضل الله درهوب جاء بالخبر اليقين حول موعد دفن الشهداء في تلك الليلة فأبعد عن نفسه الشبهات. أما آيس فزجّ به البوليس في الحبس ليبعدوا عنه الشبهات في تعاونه معهم. ناقش شكوكه مع كركوبة فتوصل معه إلى نفس الاستنتاج. وتأكد هذا الاستنتاج عندما اطلقوا سراح آيس قبل خروجهما بأيام.

ولكن كركوبة جاءه بالخبر اليقين في الأمسية التالية لخروجهما. جاء عقب المغيب يحمل رغيفاً نحيلاً طويلاً من الخبز الأبيض ملفوفاً في قطعة من القماش. شطره نصفين وقدّم له النصف. ما زال ساخناً. رائحة الرغيف الساخن فاحت في كل الغابة.

سأله الدّوس وهو ينهش من نصيبه:

ـ من أين لك بالفلوس؟ هل استوليت على الخبز من مطبخ القسم الداخلي؟

ضحك كركوبة دون أن يتوقف عن المضغ. قال بصعوبة:

ـ وهل ستتخلّى عن نصيبك إذا أخبرتك أنها مسروقة؟

ـ لو أخبرتني منذ البداية فسأتخلّى، أما الآن فيفتح اللّه!

ـ الجوع كافر!

ـ أكفر مخلوق! لم أر أكفر منه!

غرقا في ضحكة طويلة. كركوبة قطع ضحكته ليقول:

ـ أخشى اننا ظلمنا آيس.

ـ ماذا تقصد؟ هل من جديد؟

توقف عن المضغ وحدجه بنظرة ثقيلة في ضوء النّار الضئيل. همهم بصوت هامس:

ـ فضل الله درهوب هو المجرم الحقيقي.

بلع اللقمة بصعوبة:

ـ كيف عرفت؟

ـ الكل يعرف. كل القسم الداخلي. هو نفسه لا ينفي ذلك. يستنطقه الزملاء فيجلجل بقهقهاته الاجرامية. يجيبهم: «تلك كانت نكتة. قررت أن أجرب حظي في الحياة. لكل إنسان الحق في أن يجرّب حظه! لكل إنسان الحرية في أن يختار

أسلوبه» هل تستطيع أن تتصوّر عبثاً يفوق هذا العبث؟ هل هناك حقارة تفوق هذه الحقارة؟

ـ لم أطمئن لهذا الولد في يوم من الأيام. حدسي كان يحذّرني دائماً. ولكني تجاهلته.

توقف عن الأكل ووضع الرغيف على قطعة القماش. ألقى بأعواد الحطب في النار وأضاف بحزن:

ـ ما يحزنني هو آيس. وجهنا له طعنة قاسية. بأي وجه نقابله؟ كيف نستطيع أن ننظر في عينيه؟ هل هناك جريمة تعادل تعليق تهمة الخيانة في رقبة إنسان بريء؟ تسرعنا ويجب أن ندفع الثمن. جريمتنا لا تقل بشاعة عن جريمة درهوب. تفضل يا سيدي... لم نتريث فيجب أن نتحمّل النتائج. الترقيع لن يفيد.

توقف كركوبة أيضا عن المضغ. تنهد بعمق وراقب ألسنة النار وهي ترتفع وتلتهم الأعواد التي ألقاها عيّاش.

تناوبت الجنادب وغنت في جوقة جماعية.

قال الدّوس:

ـ تعارك مع جدّه بسببنا. نحن مسؤولون عن خلافه مع الشيخ. فكيف نكفّر عن التهمة الباطلة؟ قل لي...

ـ كله بسبب ولد مجنون.

ـ كله بسبب غفلتنا.

ـ الله غالب. ما حصل حصل.

ـ يجب أن نبحث عن أسلوب للاعتذار. فكّر معي. اذهب وحاول معه. أنت أقدر مني على ايجاد اللغة. أنا خجلان. الا تشعر بالخجل؟

ـ نحن مظلومون. من حق المظلوم أن يظلم.

ـ لا. ليس من حق المظلوم أن يظلم. أنا لا أتفق معك. آيس ظلم مرتين.

ظلمته السلطات وظلمناه نحن. وظلمنا نحن أشد.

ـ هذا صحيح. ولكن قسوة العسكر طيّرت عقولنا. كيف تريدنا أن نفكر بعقل؟

ـ وماذا كنت تتوقع؟ العقلاء يقولون أن الرجل معرض لأقسى امتحان. تجاهر بمعارضة الحكومة وتريدهم أن يربّتوا على وجهك برفق؟ عليك أن تتوقع الصفعات.

ـ نلنا اسوأ الصفعات وصبرنا.

ـ هذا أول الطريق. ولكن صفعة درهوب اسوأ هذه الصفعات واتهامنا الباطل لآيس أسوأ من ضربات البوليس وصفعة درهوب. هذه صفعة وجهناها لأنفسنا بأيدينا.

لوّح زيد بيده محاولا أن يضع حدا للحديث:

ـ الأمر لا يستحق كل هذه الفلسفة. دع الأمر لي. سوف أتصرف.

أصَرّ الدوس:

ـ بل أنه يستحق. سنتصرف مع آيس وسيقبل اعتذارنا. أنا أعرف. ولكنّي أتحدّث عن المبدأ.

ـ أنت تصنع من الحبّة قبّة.

ـ أنا أتحدث لنفسي عن نفسي.

ـ يا الله. هذا يكفي. أنت تكدّر سهرتنا.

ضجت الغابة بغناء الجنادب وسكت الدوس. صوته العميق النبرة هو أحد أسلحته في استقطاب الطلبة. في صوته أيضا نبرة شيوخ القبائل. في تصرفاته أيضا وقار العقلاء. فهو لا يمزح ولا يشاطرهم الألعاب. ينزوي في ركن ويراقبهم من بعيد. واذا تعارك إثنان فان الاحتكام لا يكون إلا اليه. واذا احتاج أحدهم الى نصيحة فإنه لا يتردد في أن يلجأ له طلبا للمساعدة. يتصرف ببساطة ولا يسعى لأن يفرض سيطرته على أحد. هذا لم يكسبه احترام الزملاء فقط وانما محبتهم أيضا. فلم يروا في أسلوبه ما يشير الى رغبته في فرض الرأي كما يفعل بقية

الزملاء الذين يتباهون بتفوقهم اذا حدث واكتشفوا أنهم يتميّزون بموهبة.

أحاطوه بالاحترام والثقة فلم يرهبهم بهذا الامتياز. الثقة ساهمت في قدرته على تجميع الطلبة حوله فتفوّق في تنظيم الاضرابات والمظاهرات. موهبته أدهشت السلطات وضاعفت حقدها عليه. عيّاش لا يضيع الوقت ايضاً. يعرف كيف يستغل أوقات فراغه. يقرأ في كتاب أو يطالع في المكتبة أو يمارس متعته الوحيدة في الخلاء: يشاهد الغروب! في تلك الليلة بدا بائساً لكركوبة حتى أحس نحوه بإشفاق. لم يتصوّر أن يصدمه الخبر الى هذا الحد. لم يصدمه خبر خيانة درهوب ولكن الظن الآثم الذي وُجّه لآيس. قرر أن يصلح الخطأ. كان واثقاً من نجاح مهمته. عرض الامر على آيس ففوجىء بسلبيته ولا مبالاته. لم يندهش لفعلة فضل الله لأنه يعرفه أكثر من الجميع ولم يبد حماساً للمصالحة أيضاً. وأكثر ما صدم كركوبة هو اللامبالاة. هل جرحه الاتهام الى هذا الحد؟ أم أن قسوة السجن كسرت فيه الرجولة؟ أم أن خلافه مع جدّه هو السبب؟ شعر بالخجل ولم يشأ أن يلح ويستعجل. أرجأ المفاوضات واخفى الأمر عن عيّاش. عرف الآن أن زميله على حق. الدوس أعطى للمشكلة حجمها الحقيقي منذ البداية. الدّوس قدم دليلاً آخر على خبرته بالحياة وبالناس. لم يقدّر أن يتطور الأمر ويصل هذا الحد. استهان باتهام آيس فطعن الاخير في القلب. الدّوس أدرك تعثر مباحثاته مع زميلهما. عرف ذلك بالحدس. رأى ذلك في عينيه فآثر الصمت. لم يعلّق ولم يعد الى السيرة. واليوم عندما عاد من عرس الغروب فوجىء بآيس يقف في العتمة ينتظره قدّام الكوخ، يرتدي بدلة أوروبية جديدة. ويسند كتفه الى ساق نخلة عالية، مصالبا يديه حول صدره، ملتفتاً نحو الطريق التي تخترق الغابة متجهة نحو القلعة العثمانية في الشمال.

فكّر عياش بسرعة في جملة مناسبة يبدأ بها الحديث. تنحنح فالتفت آيس بحركة مفاجئة. التقت نظراتهما فطارت الجملة من رأس الدوس. ارتبك في البداية ولكنه سيطر على نفسه ببسالة.

قال:

- الدنيا برد. يستحسن أن نشعل النار.

هذا كل ما استطاع الدّوس أن يسعف به الموقف. الطقس قشّة مناسبة لمعالجة

أي موقف وفتح باب أي حديث. تعلّم ذلك من الشيوخ الحكماء في الواحة البعيدة. لم يعلّق آيس فتقدم نحو الحطب. كوّم حزمة كبيرة في الموقد وانهمك يجمع القش صامتاً. أوقد النار فارتفع الدخان. جلس آيس على رؤوس اصابعه في الجانب الآخر من الموقد.

فصلت بين وجهيهما خيوط الدخان. طرطقت أعواد الحطب الخضراء. نهض عياش ودخل الكوخ. عاد بوعاء شاي تعلوه طبقة سميكة من السواد، وجراب من القماش. أخرج من الجراب صرّة الشاي وصرّة السكر. ألقى بحفنة الشاي في الوعاء وحفنة أخرى من السكر. أضاف الماء في الوعاء وتهيأ لتحضير الشاي المعجون. قال دون أن يرفع بصره:

- هل حدّثك زيد؟

استمر آيس جالساً على رؤوس اصابعه كأنه يتحفز للهرب في أية لحظة، يحيط ساقيه النحيلتين بيديه الطويلتين، يقترب بوجهه من النار حتى تكاد ألسنتها الشرهة أن تلامس وجهه. أجاب ببرود:

- حدثني.

رمقه عياش بين ألسنة اللهب ونكّس رأسه. حشا البراد في طرف الموقد وتربع مستعداً لجلسة طويلة.

- تستطيع أن تبصق في وجهي اذا شئت. لماذا لا تبصق في وجهي؟

رفع رأسه فالتقت نظراتهما مرة أخرى.

- لا أريد أن أبصق في وجه أحد.

- تألمت كثيراً؟

- جدّي يقول: خُلقنا كي نتألم.

- جدّك على حق. ولكن هذا لا يمنع من أن نكيل الصاع صاعين لمن نال منا وأخطأ في حقنا.

- لن يكفي عمر واحد في متابعة الذين أجرموا في حقنا. لا أريد أن أضيع

عمري في جمع البراهين لمعاقبتهم.

ـ جدّك حكيم ونحن في بداية الطريق. إذا غفرنا للمجرمين مرة واحدة داسونا بالاقدام واستعبدونا الى الأبد. هل تريد أن تغفر للبوليس قتله لزميلينا؟

ـ القتل جريمة أخرى.

ـ وما الفرق؟ أي إثم هو جريمة. إذا اتهمتك اليوم بالوشاية فسأتهمك غداً بخيانة الوطن، أو شيء من هذا القبيل. لا تغفر. لا تغفر أبداً لا لي ولا لغيري.

لوّح آيس بيده وأشاح بوجهه.

ـ دعنا من هذا الآن. جئت كي استشيرك في أمر آخر.

ـ خير إن شاء اللّه.

ـ كرهت الدراسة وقررت أن أهجر المعهد.

ـ لا ترتكب هذه الحماقة.

ـ المعهد لا يروي طموحي والتدريس عمل روتيني وممل.

ـ إذا بدأت في طريق فامشِ فيه إلى النهاية.

عدّل من وضع الوعاء وأضاف:

ـ لو كنت مكانك لفكّرت كثيراً قبل أن أقدم على تنفيذ هذه الخطوة. أنت لا تعرف كم أنا شقي بدون دراسة.

رفع نحوه عينين كئيبتين. آيس رأى فيهما نظرة أليمة. قال:

ـ بدون هدف. لم أتعوّد أن اتسكع بدون هدف. لقد عرفوا كيف يعاقبونني. العطالة أسوأ عقوبة. والأسوأ منها هو هذه الحدود الوهمية التي رسموها لي. لا تغادر حدود المحافظة. هكذا يقول قرار البوليس. كيف يمكن تحديد حدود في الصحراء الكبرى؟ هذه بدعة جديدة. أنا أعرف ماذا يقصدون. لا يريدونني أن اتنقل بين الواحات. ابقوا لي طريقاً واحداً هو العودة الى واحتي ومعاندة الحقل. أمس هددني الوالد بأن يلعنني إذا لم أعد للعمل في الحقل. لا أدري عما إذا كان

قد اتخذ قرار سحب المغفرة تحت تأثيرهم أم اجتهاداً منه وحده. برغم أني لم أعرف فيه الاحكام القاطعة أبداً. أنا الآن ضائع. العودة إلى الحقل بالنسبة لي تعني التراجع. الهزيمة. اذا عدت فقد انتصر القتلة وضاعت دماء الزملاء. دمهم يحرق قلبي. اشعر أني مسؤول عن هذه الجريمة. أنا الذي دفعتهم للاشتراك. شابان مسالمان لم يتورطا من قبل في أي نشاط. وفجأة يكونان أول من يسقط. والآن أجلس في الغابة مكتوف اليدين. فكيف لا تريدني أن أشقى؟ كيف لا تريدني أن أبحث عن سبيل للخروج من هذا الحبس؟

ابتسم بسخرية ثم أضاف:

ـ لم أكن أعرف أني مهم الى هذا الحد. هل كنت تتصوّر أن أكون خطيراً الى هذا الحد؟ أليس قرار فرض الاقامة الجبرية داخل حدود المحافظة هو دليل على هذا؟ أشعر كأني أسد في قفص وأنت تجيء وتحدثني عن نيتك في هجر الدراسة.

انتهز آيس الفرصة وقال بتهكم:

ـ تعال نبدّل الادوار. تحبس نفسك بين جدران القسم الداخلي وأحتمي أنا بالغابة.

ـ في دائرة القسم الداخلي ثمة هدف. في الغابة تتخيل أنك حرّ، ولكن بأي حرية تتمتع وأنت تهيم بلا هدف كحمار الحقل!

ابتسم آيس لأول مرة ابتسامة مغتصبة.

أعاد الدوس تحذيره:

ـ إيّاك أن ترتكب هذه الحماقة.

تكاثفت الظلمة وساد الصمت. يخرقه ازيز السيارات العابرة.

يسمع نباح الكلاب بعيداً في الحي الجنوبي.

سأل آيس:

ـ ألم يحاول أبوك إقناعهم لإعادتك الى الدراسة؟

أجاب الدَوس دون أن يرفع رأسه عن أدوات الشاي، بدأ يخلط الشاي:

ـ حاول. لم يجيبوه بأي شيء ايجابي. قالوا: هذا موضوع سابق لأوانه. المهم أن ينفّذ ما تعهد به وينتظر!

ابتسم بسخرية وتذوق الشاي لاختبار نسبة السكر:

ـ يريدون ان يفرضوا قانونهم اولا، يريدون أن يختبروا طاعتي. يريدون أن يذلّوني. أن يكسروا أنفي أولاً. لن يستطيعوا اخضاعي قبل أن يكسروا أنفي! يجب أن اقدم الدليل على استسلامي!

ضحك بتهكم ووضع الوعاء على حافة الموقد. فوق جمرات خابية للتسخين النهائي. تضاءلت قامة النار ولم تعد تحجب عنه وجه آيس.

رفع رأسه والتقت نظراتهما. استمّر:

ـ كلما ذهبت لزيارة المدينة قابلت صاحبنا الزنجي. أتذكر ذلك الزنجي البدين الكريه؟ ما اسمه؟ الدافني؟ الداقني؟

صحح آيس:

ـ الداغني. إسمه صلّوح الداغني.

ـ .. من المعتقل الأخير حذرني من مغادرة حدود المحافظة. وكلما قابلني يقتفي أثري وفي عينيه تلك النظرة الخبيثة. استوقفني أكثر من مرة بين الناس كي يعيد تحذيره. وفي الأيام الأخيرة أطلق خلفي أفراد البوليس السرّي بجرودهم ولحاهم ونظراتهم المريبة. وقد زاروني حتى هنا في الغابة. قابلت أحدهم منذ أيام يحوم حول الكوخ في الليل. وبالأمس، عند الفجر، مرّ أحدهم ووقف فوق السانية طويلاً يتسلى بالتدخين. إنهم أفراد من دورية يتبادلون عليّ الحراسة. هل تتصوّر أن يصبح أخوك عيّاش بهذه الاهمية بين يوم وليلة؟

اغتصب ضحكة ولكن آيس لم يشاركه. قال:

ـ أنت تبالغ. لا يمكن أن يكون الأمر بهذه الخطورة.

ـ أنا نفسي لا أصدق. هل انقرض الأشخاص المهمين الى حد أن اصبح أنا

شغلهم الشاغل؟ هكذا اسأل نفسي. ولكن دورية البوليس السرّي أكيدة. انهم لا يحاولون إخفاءها. بل يخيل إلي انهم يتعمدون أن يشعروني بها. يتعمّدون أن يشعروني بأني مراقب حتى لا افكر في التخطيط للهرب.

وزّع الشاي في كأسين عاريين من الرغوة. شربا الشاي بدون رغوة.

استأذن آيس للانصراف. قال ان القسم الداخلي بعد الاحداث الاخيرة يقفل الأبواب من العاشرة. كل من يتأخر عن الموعد مصيره العراء. البوليس ما زال يتولّى الحراسة.

تنفس الليل بالصقيع القارّي. لفّ عياش جسمه بالبطّانية وواصل سهرته بجوار الموقد. حديثه مع آيس أوحى له بفكرة. فكّر كثيراً في الاستسلام والعودة الى الحقل بالواحة. ولكن روح التمرد أقوى. العناد انتصر فقرر أن يمضي الى النهاية. قرر أن يهاجر الى الشمال: الى طرابلس. سيقاوم قرار السلطات ويخترق الحدود الوهمية نحو الحرية.

سيجرّب حظه في الغربة، في عالم المدن البعيدة، الراقدة على شواطىء البحر والمجهول. واذا انقلب الأمر واضطّر فسيعبر البحر الى الساحل الآخر ويكتشف المجهول. ثمة شيء يتململ. يدفعه الى الأمام. لاستكشاف العالم البعيد، الخفي. الهاتف في صدره يخبره ويهمس له بأن مكانه هناك، في الضفة الأخرى من الدنيا، وليس هنا، في هذه المتاهة الخالية، الموحشة، القاسية. المتاهة التي يحاول رجال البوليس أن يحبسوه فيها الى الابد.

هذا الهاجس الغامض هو الذي أتى به من الواحة لاكتشاف الدنيا في «الجوهرة»، ويدفعه الآن للتململ والانطلاق الى الامام، نحو البحر، للبحث عن المجهول في المدن الهاجعة على السواحل الواعدة بالاسرار. تندفع الامواج العدوانية الى الشاطىء الصخري، أو الرملي، تطرح الزبد الكثيف وتدعوه الى رحلة مجهولة نحو حافة الخلود، في نهاية الدنيا.

الحلم بأن يرى البحر ويركب السفن راوده منذ الطفولة. يهرع للاستماع الى قصص اولئك الذين رجعوا من رحلة الى طرابلس ورأوا البحر بأنفسهم. يستمع إليهم باهتمام وإن منعه الخجل أن يلقي عليهم بأسئلة مباشرة عن البحر. يحاول أن يستدرجهم كي يحكوا بأنفسهم عن هذا العالم المدهش. وقد أعجبته قصة أحد

الفلاحين الذي شبّه البحر بالصحراء . قال: «إنه مثل الصحراء . وأغرب ما في الأمر ماؤه الفاسد . اذا ذهبت في رحلة عبر الصحراء ولم تتزود بالماء الكافي متَ عطشاً واذا ركبت البحر ولم تتزود بالماء متَ عطشاً أيضاً . فأين الاختلاف بينه وبين الصحراء؟ ».

وحتى عندما يقف ليتمتع بمشاهدة الغروب تتدفق شعاعات الشمس الذهبية في الخلاء العاري فيشعر أنه يتّحد بهذا الخلاء، وينزلق على التموجات البديعة التي ترسمها يد الريح على الرملة كما تنزلق السفينة على سطح البحر. يستمر الاحساس لحظات، وينتهي بمجرد أن تنزلق الشمس لتختفي خلف الأفق ساحبة وراءها الإشعاعاتَ السحرية التي تصنع من الرملة بحراً جليلاً يمتد حتى يقبل الافق. يغمره وجد المجاذيب فيتمتم بلا ارادة: «الغروب جميل. ما أجمل الغروب! ». ويفكر في اصرار الفقهاء على تشبيه الغروب بالموت والفناء فلا يجد له مبرراً. لم يجد في هذا المصير ما يخيف.

نام بجوار الموقد .

في الصباح نهض مع صياح الديكة. سحب الماء من البئر واغتسل فوق الساقية. فطر ببقايا شاي البارحة. الشاي بارد ولكنه لم يشأ أن يضيع الوقت في إشعال النار وتسخينه.

ارتدى زمالة بالية وقطع الغابة جنوباً ولفّ الى السوق من الجهة الشرقية تجنباً للطريق الرئيسي. قصد سوق الابل واتفق مع أحد خبراء طرق القوافل أن يقله الى سوكنه عبر طريق الابل. طلب الرجل ثلاث جنيهات في البداية وخفض المبلغ الى جنيهين بعد مساومات مكثفة. اتفقا على الانطلاق في صباح الغد وتواعدا على اللقاء عند مشارف الجوهرة الشمالية تحت ربوة «العريف». من هناك ذهب الى معهد المعلمين وتسكع بجوار الخرب الملاصقة للمبنى عازماً أن يتصيّد كركوبة بأسرع وقت.

لا يريد أن يعرف أحد بنيّته في السفر حتى لا تتسع رقعة الخبر وتصل إلى آذان السلطات. ولم يكن يريد أن يخبر حتى زيد لولا حاجته إلى المال.

انتظره حتى بدأت الاستراحة فدخل سور المعهد يساعده قناعه البالي على التنكّر. بحث بين تجمعات الطلبة فرأى زيد ينزوي في ركن السور الشرقي ينشغل

بالتحدث إلى آيس.

تلهّى بدحرجة الاحجار بنعله ورسم خطوطاً متداخلة حتى انتهت الاستراحة ورنّ الجرس. تفرق الصديقان واختفى آيس. اعترض طريق كركوبة قبل أن يدخل الى فصله المجاور للباب الخارجي. تعرّف عليه بصعوبة فهيأ نفسه للضحك. هدده بسبّابته وأشار له أن يسكت. جرّه خارج السور فسأله زيد كاتماً ضحكته:

- ما هذا القناع؟ لم أر فيك نصيراً للعمامات قبل اليوم.

- لا أريد أن يراني أحد هنا. أنا في مهمة. أنا في حاجة الى المال.

تغيرت ملامح زيد واكتسى جدية مفاجئة:

- كم يلزم؟

- ما تستطيع أن تحصل عليه. جنيه. اثنين. عشرة. كم تستطيع أن تدبر؟

تحيّر زيد وشعر بالقلق.

- هل حدث شيء يجبرك على السرعة. ماذا حدث؟

- لا شيء. أريدك أن تكتم الأمر حتى عن آيس. دع الخبر بيني وبينك. قررت السفر، وبأسرع وقت!

- يا لطيف. إلى أين؟

- هل هذا وقت التفاصيل؟ اذهب واستلف وتعال الى الغابة في الليل. سنتحدث..

ضغط على ذراع صديقه وانطلق خطوات سريعة باتجاه السوق. تجاوزه الى أول صفة دكاكين. تزوّد ببعض المؤن. اشترى معلبات التن والسردين والحليب المجفف والسّكر والشّاي.

في الليل زاره زيد وسلمه اربعة جنيهات ونصف. قال ان هذا كل ما استطاع الحصول عليه. قال لزيد: «سأكتب لك بمجرد أن أصل بر الأمان. أكتم الأمر حتى تتأكد أني بلغت بر الأمان!». تسلل من الغابة في نفس الليلة ونام بجوار ربوة

« العريف » . حيث تواعد مع الرحّالة .

أغفى متأخراً ، نام نوماً عصبيّاً متقطعاً . وبرغم ذلك استيقظ عند الفجر مشحوناً بالنشاط والفرح . لماذا يحس بالفرح؟ ربما لأنه سيتحرر من سجنه وربما لأنه يتهيأ للدخول في مغامرة مجهولة . وربما لأن الرحلة تعده برؤية العالم الذي لم يره من قبل الا في الكتب والخيال .

في الظلمة سمع خطوات الرحّالة قبل أن يراه . جاء يقود جمله ، يتدثر بلحاف معتم اللون . اللحاف منعه من تبيّن شبح البدوي في عتمة الفجر .

قال الرحّالة وهو ينيخ الجمل ويصنع لكيس الدوس مكاناً بين الأمتعة :

ـ أنسب وقت للسفر هو الصباح الباكر . الفجر الأول . في الظلمة التي تسبق طلوع الفجر . هذا يتيح الفرصة كي نتمتع بميلاد النهار ونحن في الطريق .

ـ اعتقد أن الغروب أجمل . لا شيء يعادل جمال الغروب .

استمر البدوي كأنه لم يسمع اعتراض رفيقه :

ـ أعرف رجلاً حكيماً من غات لا يسافر إلا في الفجر . وإذا تعطل لسبب من الأسباب وادركه نور النهار قبل أن ينطلق حرر الجمال وعدل عن السفر .

هيأ مكانين بين الأمتعة . مكان أمام السنام ، حيث ثبت سرجاً أفقياً طويلاً ، ومكان آخر خلف السنام .

في النهاية دعا عياش للجلوس . قال :

ـ على بركة الله . رفقة خير ان شاء الله . توكلنا على الله .

في الطريق قال :

ـ يجب أن ندرك بئر « الخنفوس » قبل أن تتزاحم عليه الإبل . لا بد أن نزوّد الجمل بالماء ونتزوّد نحن أيضاً .

ولكن الإبل ، لسوء الحظ ، تزاحمت على البئر منذ الفجر . يبعد البئر بضعة كيلومترات شمال غرب « الجوهرة » . تتخذه القوافل نقطة انطلاق أو نقطة التقاء .

ترده القطعان الآتية من الحمادة الحمراء وزلآف وجبال السودا من الشمال والغرب وتأتيه القوافل القادمة من مرزق وزويلة من الشرق. ينتهز الرعاة الفرصة فيتبادلون البضائع ويتسقطون أخبار الامطار.

نزلا من الجمل وانتظرا دورهما. جلس البدوي على رؤوس أصابعه وأخرج علبة التبغ من جيبه. دس حفنة في فمه وقضم قطعة الطرونة. شرع يتلذذ بمضغ التبغ صامتاً. حَسَدَه عياش على هدوئه. تمشى بعصبية ثم اقترح:

- ربما حاولنا أن يفسح لنا المجال اولاً. لدينا جمل واحد ولديه قافلة.

ابتسم البدوي حتى رأى عياش أسنانه المسودة التي أكلها التبغ. قال بهدوء:

- هذا يخالف تقاليد الرعاة. يجب أن نصبر وننتظر دورنا.

تراجعت العتمة، وتهيأت الصحراء لاستقبال ميلاد الشمس. شمس الشتاء عجولة، تختصر المسافة بين الفجر والشروق، لا تتيح المجال للناس كي يتمتعوا بالنور الذي يسبق الشروق.

ارتوى الجمل وتزوّد بالماء.

عندما انطلق كانت خيوط الشمس تخرق الخلاء وتسطع على الاحجار.

لاحظ الرحّال:

- إنطلقنا بعد الشروق. هذا ليس فألا حسناً في عاداتنا.

ثم ترنّم بلحن حزين.

في الليل أعد خبز الملآل وفتح الدوس علبة تن. بعد العشاء أثناء تحضير الشاي قال الرحّال:

- الرحيل جميل. سترى عالماً جديداً وبشراً من نوع آخر. ولكنك في النهاية تحنّ للصحراء. المسافر لا بد أن يعود الى الصحراء. الصحراء هي الدنيا. هي الحياة. فيها يختبىء السرّ. أنا زرت مدناً كثيرة. كانو. تمبكتو. غدامس. طرابلس. ولكن لا أجد نفسي إلا عندما أعود الى الصحراء ويتلقفني الخلاء. ستتذكر كلامي! المهاجر لا بد أن يعود الى الصحراء!

دخلا سوكنة بعد يومين. ودّعه في السوق واتجه البدوي نحو الشرق.

في السوق، أمام الدكاكين، جلس العجائز في كسل. يهشون الذباب بمراوح من سعف النخيل ويتمتعون بشمس الضحى. يحتسون الشاي الأخضر ويتسلّون باستعادة ذكريات الشباب.

في سوكنة تنتهي حدود محافظة «الجوهرة» وتبدأ حدود الجفرة. الجفرة، في التقسيم الجديد، بعد إلغاء الولايات، اصبحت تتبع المحافظات الشمالية وتخضع لمحافظة مصراته.

الدكاكين تتقابل في صفين على جانبي الطريق المسفلت. طريق الشمال المسفلت يخرق الواحة ويشق سوكنة الى شطرين. سأل أحد المارة أين يمكنه أن يعثر على سيارة تقله إلى الشمال. فكر الرجل طويلاً ثم أشار له أن يتبعه. قاده في الاحياء الخلفية حتىوصل به شاحنة تعلوهاالبضائع. تقف تحت أثلة هرمة. أشار الى السائق المندس تحت السيارة وانصرف دون أن ينطق بكلمة. خرج السائق من تحت الشاحنة ومسح يديه الملوّثتين بالزيوت وسأل:

- إلى طرابلس؟

- نعم.

- هل تستطيع أن تصمد فوق البضاعة؟

هز عيّاش رأسه بالايجاب دون أن ينظر الى جبل البضائع الذي يعلو الشاحنة.

قال السائق باسماً:

- حسناً إستعدّ. سنسافر بعد الظهر.

عاد يندس تحت الشاحنة. يرتدي أسمالاً متسخة بالزيوت والدهون. أقبل مساعده من الدكاكين يحمل كيساً من الورق. سأل:

- راكب؟

هز عياش رأسه بالايجاب وسأل بدوره:

- كم أدفع؟

لوّح السائق بيده وهو ينهمك في اصلاح العطب. قال:

- لم يحدث وأخذت نقوداً من الركاب. نحن ننقل البضائع. هذا عملنا.

شكره عياش بابتسامة وذهب يتسكع لقتل الوقت.

بعد شجرة الأثل الهرمة، من الجهة المعاكسة لموقع السوق، امتدت ارض بور مهملة كانت في الماضي حقلاً مزروعاً. عرف ذلك من النخيلات البائسة المتناثرة في الساحة. في نهاية الأحراش الذابلة ارتفع جذعان متوازيان يشيران الى مكان البئر. لا شك أن صاحب السانية هاجر الى الشمال أيضاً فعطشت الارض ومات الحقل. الأراضي المهملة تزايدت في كل الواحات مع تزايد شركات النفط. شركات النفط جعلت من المدن قبلة الفلاحين الزاحفين من الدواخل. وهو واحد من هؤلاء. هو أحد الذين أغواهم الشيطان الجديد الذي عسكر في المدن ودعاهم للوليمة. لوى العصا في يد الوالد ويمم شطر الشمال. فهل هاجسه عن البحار هو الدافع الوحيد الذي اغراه بالهجرة؟ هل قراءاته في الكتب هي التي سمّمت عقله وأعمت بصره كما يؤكد والده؟ هل ستساهم هجرته في تقويض الحقل الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف منذ خلق الله الواحات في الصحراء الكبرى؟ وهل سيؤول حقلهم الى نفس المصير التعس - الذي يراه امامه الآن في هذه الارض البور - في المستقبل عندما يعجز الوالد ولا يعود يستطيع مصارعة الفأس والمحراث؟

بجوار العمودين نمت أحراش الدّيس وحاصرت رمّانة يابسة الأغصان. جلس تحت الرمّانة وفتح علبة سردين. أخرج من جرابه قطعة باقية من خبز البارحة. البدوي زوّده بها ودسها في أمتعته. عندما عاد الى الشاحنة وجد السائق ومساعده يحضّران الشاي. طريقة المسافرين في تحضير الشاي الاخضر. الشاي المعجون. قدم له السائق كأساً حاسراً من الرغوة وابتسم ابتسامة مريحة. قال:

- ينزع التعب من الجسد كما تنزع الشعرة من العجين. الطريق طويلة وسهرتك الليلة ستطول. لا تطمع في النوم. موتور السيارة يوقظ الموتى من قبورهم! استعد!

وأعقب تعليقه بضحكة قصيرة. علّق زميله:

. من ينوي السفر لا يطمع في النوم. حتى نحن الذين اتخذنا من السفر مهنة لم نستطع أن نتعود الا بعد جهد جهيد. السهر قدر المسافر.

اختلّ توازن النهار وحلّ العصر. أخذ مكانه فوق كوم البضائع. زحزح أكياس التمر والبصل وصنع لنفسه مكاناً مريحاً.

انطلقت الشاحنة مع العشية. اخترقت صف الدكاكين ولزمت الطريق المسفلت. انسابت ببطء وتثاقل. ضجيج المحرك أزعج الواحة وجمع الصبية. جرى خلفها بعضهم مسافة طويلة وهم يتعلقون بالعجلة الاحتياطية المعلقة في الخلف. استمروا يتسلون بالتدلي من الشاحنة في زحفها البطيء حتى قطعت مسافة طويلة. توقف الصبية عن ملاحقتها ووقفوا في عرض الطريق يشيّعونها بعيونهم ويودّعونها ملوحين بأيديهم في الهواء.

تابع قاماتهم القصيرة وهي تتضاءل وتبتعد حتى أصبحت في حجم الأحجار المزروعة على وجه الصحراء.

انتهت حدود المحافظة الجنوبية.

تحرر أخيراً. خرج من الحفرة. من المقبرة التي وجد فيها نفسه مدفوناً منذ المهد. الآن أفلت من الفخ. من السلطات. من الحبس الوهمي الذي يفوق قضبان السجن الحقيقي بشاعة. لن يضطر لخنق الرغبة في أن يبصق في وجه السجّان الحاقد الكريه. صلّوح الزنجي. صلّوح الداغني. لن يسكت وهو يستمع لوعيده وتهديده. سيتنفس هواء الحرية وينطلق كالغزال. سيزحف نحو الشمال وينطرح على شواطىء البحر الذي سيفشي له سرّه. سرّ الميلاد وسرّ الممات. البحر وحده يملك سر الوجود. سرّ الحياة. وسوف يختاره هو من بين ملايين البشر ويخصّه بالحقيقة. سيتوّجه بالسرّ. لقد دعاه للقدوم من متاهة الصحراء خصيصاً كي يبوح له. لكي يهمس له وحده. ما أجمل البحر! ما أجمل الحياة!

إنحنى القرص الذهبي نحو المغيب. تدلت الاسطوانة الكبيرة نحو الافق. انطفأت أشعتها النهارية القاسية. اصبحت الآن وديعة، رحيمة، حزينة وهي تختتم رحلتها اليومية الخالدة وتستعد كي تهجع وتستقبل نهاية المطاف في استسلام.

بدأت طقوس الغروب.

في الأفق لاحت سيارة بعيدة. السيارة الثالثة منذ انطلقوا من سوكنة. كانت السيارة الاولى حكومية. حيتهم بغمزات متتالية بالاضواء قبل أن تفسح لها الشاحنة المجال وتسمح لها بالاجتياز. السيارة الثانية «ملآكي». لاندروفر مكشوفة، تحمل مجموعة من الخراف. رآهم عياش من موقعه العالي يتلاصقون ويرتجفون في فزع محاولين ان يدفعوا الخطر بالالتحام. الغريزة توحي لهم بأنهم في الطريق الى المذبح. الغريزة عند الحيوان أقوى من الانسان. قدرته على الاحساس بالخطر أقوى من قدرة بني آدم. اقتربت السيارة الثالثة. من نوع لاندروفر أيضاً. لامس قرص الشمس الأحمر خط الافق خلفها فبدت كأنها تسبح في لجة من النَار. انحرف الطريق يميناً فلم تعد تحجب القرص الغارب. القرص غرق الى منتصفه. خففت اللاندروفر من سرعتها وسارت خلف الشاحنة مسافة طويلة، لا يبدو أن السائق على عجل والا لما صبر وسار وراء الشاحنة - السلحفاة كل هذه المسافة. ماتت شعاعات الشمس فتبين الرجل الذي يجلس بجوار السائق. هل هذا معقول؟ خيل له انه يرى صلّوح الداغني. الزنجي البدين بسحنته الكريهة. هل هذا معقول؟ لم يتح له صلوح الفرصة. اخرج رأسه من نافذة اللاندروفر وصوب نحوه فوهة بندقية. طوال الوقت كان عياش يعتقد أنه يحلم أو أن الداغني الملعون قرر أن يمزح مزحة ثقيلة عقاباً له على خروجه من الحدود. ولكن دوي الرصاصة طنّ بجوار اذنه. افاق من ذهوله فصرخ. طلب النجدة. ولكن محرك الشاحنة خنق كل الاصوات. صوت الرصاصة، وصوته هو، فاستمرت الشاحنة تنزلق في حركتها البطيئة كأنّ كل شيء يسير على أحسن ما يرام.

رأى في عيني الداغني نظرة شريرة فعرف أنه مصمم على تنفيذ التعليمات. قرر أن يقفز من السيارة. نهض على قدميه فانطلق الدوي مرة أخرى. أحس بالدم يسيل على كتفه الأيمن. قال في نفسه أيعقل هذا؟ هكذا كالخروف؟ كالشاة؟ انهار فوق أكياس التمر والبصل فانطلق دوي آخر. احس بالدوار. هل وشى به زيد؟ حتى انت يا زيد؟ يا ربي ما أبشع الحياة. ما أجمل الغروب! ما أجمل الموت! انطلق دوي طلقة اخرى فتكوم فوق البضائع وتشربت اكياس التمر والبصل الدم البشري.

استمرت الشاحنة في رحلتها ولفظت الشمس الغاربة الحزينة أنفاسها الاخيرة.

# 2 ـ الدّيدان

خرج غوما مبكراً. توجه نحو سفح الجبل الشرقي لزيارة آجّار. جلس آهر خارج الكوخ ليتمتع بالشمس. الدنيا ما زالت تتنفس ببرد الليل القارّس. بعد قليل أقبل الشيخ خليل. تعمّم بقناع اصفر مخطط بلون ذهبي رقيق. أول مرة يراه يرتدي قناعاً من هذا النوع. هذه العمامات أصبحت شائعة في السنوات الأخيرة. يستوردها تجار القوافل من وهران ويدفع فيها الرعاة أموالاً خيالية. الرعاة اول من نشر هذه البدعة. وبرغم ذلك فإنه يعترف بينه وبين نفسه ان هذا اللثام يليق بالشيخ خليل. يضفي على كآبته بهاء فشلت كل الأزياء الاحتفالية التقليدية أن تمنحها لهيئته البائسة.

تربّع على الرمل بجواره وافترش نعل «التمبا». عرّض وجهه لأشعة الشمس أيضاً. أثنى على عمامته الجديدة فتساءل خليل:

ـ أين بكّر شيخنا اليوم؟

ـ وأين يمكن أن يبكر؟ لم يعد يعرف في السنوات الأخيرة سوى قبلة واحدة: آجّار!

ـ إنه وحيد وغريب ولا يدفن همّه في مكان ما أو عند أحد ما. في مقر إقامتنا القديم بجوار بئر اطلانطس كان يلجأ الى الجبل، وفي آدرار الفانية في مغارة مهمدو. وهنا، في الوادي المخنوق بالجبل والرمل، لا يجد متنفساً سوى كوخ الدرويش آجّار، اعترف لك انه لطيف برغم انه درويش قليلاً. إنه يروق لي!

ابتسم آهر.

ـ ربما كـان الألم هو السـبب. الألم يخلق من الناس دراويش وبلهـاء بل ومجانين. اولئك الذين ينعتونه بالدروشة لم يعيشوا ألمه. لم تُحرق زوجاتهم أمام عيونهم ولم يفيقوا من الغيبوبة كي يقال لهم أنهم قتلوا أمهاتهم أيضاً!

ـ هذا فظيع!

حدجه آهر بنظرة لوم:

ـ كنت أحد هؤلاء الذين يروق لهم وصفه بالدرويش واستفزازه بنعوت لا تليق.

ابتسم خليل:

ـ كنت أمزح. لماذا لا يحق لنا ان نمزح في هذه القبيلة؟ قلت ذلك في سبيل الترفيه عن النفس. جدية قبيلتنا قاسية. أكثر القبائل جدية في الصحراء الكبرى.

وأعقب ذلك بضحكة عالية. ضحكة لا تتناسب مع الشحوب في وجنتيه البارزتين.

حدجه آهر بفضول. قال منكبّاً على تخطيط الرملة باصبعه:

ـ دعنا الآن من آجّار. الشيخ دوّخني بالحديث عن مرضك. سمعت منه أقسى عبارات اللوم.

وحدج خليل من وراء اللثام.

ـ حدست ذلك عقب زيارته في ذلك اليوم. جاء وجلس في ركن البيت دون ان ينطلق بكلمة. ضبطته يختلس نحوي نظرات خفية ثم استأذن وخرج. هل تدري ماذا فعل؟

برقت عينا آهر بالفضول فواصل خليل ضاحكاً:

ـ ظل يحوم حول البيت فعرفت أنه يتحين الفرصة لخروجي كي يعود الى البيت ويتحدث الى زوجتي. يريد أن يستنطقها ويعرف منها الحقيقة. مسكين الشيخ

غوما. الحق أني اشفقت عليه فخرجت لزيارة السواني. قالت لي بعدها أنه اسمعها كلاماً قاسياً. اتهمها بالاشتراك في جريمة السكوت على المرض وإخفاء الأمر.

اختفى المرح من عيني خليل ونطقت مقلتاه بالشقاء وهو يضيف:

- تألمت لألمه. لم اتصوّر ان يؤثر فيه الخبر إلى هذا الحد.

- تعرف كم هو عطوف.

- الحق ان مرضه يشغلني أكثر من مرضي. مرضي معروف وشفائي ميؤوس منه أما هو..

استنكر آهر:

- لا تيأسوا من رحمة الله. لا ييأس من رحمته إلا الكافر.

- هدّه الأرق ثم بدأ عدوان الذباب.

- مرضه لم يبدأ اليوم. اتذكر «حادثة المقهى»؟

استفهم خليل بنظرته فقال آهر:

- نعم. نعم. تلك كانت البداية. اعتقدتها في البداية مجرد نزوة من نزواته الطفولية ولكن تلك هي البداية الحقيقية.

نكس خليل رأسه:

- نعم. تلك كانت حماقة لا تليق بالشيخ غوما.

- في زيارتنا الاخيرة للجوهرة. عندما قرر التنازل عن المشيخة، اسمعني كلاماً أسوأ. اتهمني بالطمع في السلطة و.. بالغشامة!

- هئ - هئ - هئ...

- هل تضحك يا شيخ خليل؟ وهل تثير إساءة كهذه الضحك؟

رمقه بتحدّ.

ـ أم أنك توافقه في هذا الرأي؟ أرى انك لا تستنكر.

في النهاية كتم ضحكته:

ـ دعاباته قاسية. اغفر له!

ـدعابة؟

لم يفلح في كتم الضحكة فهاجمته نوبة السعال. بصق الدم وأهال عليه التراب. رأى آهر كومة الدم قبل أن يخفيها ويغمرها بالرمل. ازدادت وجنتاه شحوباً وغابت عيناه في محجريهما. قال محاولاً ان يستعيد عافيته:

ـ ما يقلقني في الأمر هو الذباب. ما قصة الذباب؟

ـ لا ادري. يتحاشى ان يتحدث في مثل هذه الاشياء. يفضّل ان يبوح لآجّار بأسراره: يقال ان هذه النوبات لم تعاوده منذ مدة. يهاجمه الذباب في أسراب لا يراها غيره. أوهام. أوهام العجز.

حدّق خليل في أشعة الشمس بعينين خاويتين. قال بحزن:

ـ ليست أوهاماً. خيال الأجل. هذا خيال الأجل.

تهكّم آهر:

ـ خيال الأجل؟

ـ نعم. الذباب يأتي من المقابر. ألا تعرف القصة؟ يزحف الدّود من القبور. تنبت له اجنحة خارج حدود القبر فيطير كي يأتي الى العالم الآخر بضحايا جديدة. ويبدو ان الاختيار قد وقع على شيخنا هذه المرة. ألا تعرف الأسطورة؟

استمع له آهر بدهشة. كان يمسك بعود طلح يحرث به الرمل. ظل ممسكاً بالعود في الهواء ملتفتاً نحو خليل. في النهاية انتزع نفسه كأنه يفيق من كابوس واحتج كالطفل:

ـ ماذا تقول؟ دود؟ قبور؟ أسطورة؟ لم اسمع بأسطورة بهذا المعنى.

ـ ولكنها موجودة و... معروفة.

ـ لا وجود لها الا في عشيرتكم. او في رأسك وحدك.

في لهجته نبرة عدوانية فلم يلحظ الخشونة في احتجاجه.

قال خليل ببرود:

ـ تستطيع ان تسأل. كل عجائز الصحراء تعرفها.

ثم ابتسم تحت اللثام.

ضبط آهر ابتسامته فازداد غضبه. ألقى بالعود بعيداً وحصّن وجهه بلثامه.

ولكن خليل عاد الى الاسطورة بإلحاح:

ـ طنين الذباب: نداء القبور!

لم يعلق آهر فنهض للانصراف. قال انه ينوي أن يقضي شغلاً في الحقول وتواعدا ان يلتقيا في الجامع بعد الظهر.

تابعه آهر حتى دخل أحراش سانية القطيعي. لم يكن من الصعب ان يلاحظ التغيير الذي طرأ على سلوك الشيخ خليل في الشهور الأخيرة، التي أعقبت انتشار خبر مرضه الباطني بين الأهالي. خرج من صمته وعزلته فجأة وانتابته روح لم يعهدها فيه أحد من قبل. روح الدعابة والمرح. دعاباته تجاوزت الحدود. كما اصبحت ضحكاته ترتفع عالياً بلا سبب. قهقهات لا تليق لا بوقاره ولا بسنّه ولا بمقامه. فهل يملك الداء سحراً يقلب سلوك المرضى الى هذا الحد؟ الشيخ غوما لا يصدّق أنه لم يعرف بأمر الداء الا متأخراً. يعتقد أنه كان اول العارفين وتعمد ان يخفي عنه الأمر. والحق انه لم يعرف إلا متأخراً. ولولا زوجته لما عرف أيضاً. امرأة خليل اخبرت امرأته. والشيخ غوما الذي أقلع منذ زمن بعيد عن الاحتفاظ بالمرأة في بيته نسي قدرة هذا المخلوق على التجسس. ما الزوجة في القبيلة سوى مخبر. ولولاهن لما أذيع نبأ ابداً. في البداية اعتقد ان خطورة الداء من مبالغات النساء ولم تتضح الحقيقة الا فيما بعد عندما اصبح خليل نفسه لا يخجل في ان يتقيأ الدم أمام الجميع. سمح لنفسه بالادلاء بآراء جريئة أمام غوما. تسامح الشيخ ولم يوجه له الملاحظات. ربما تسامحاً مع المرض وليس مجاملة له.

الناس تعودوا ان يعاملوا المريض كمعاملتهم للطفل. لم يجرّب ذلك في الماضي

ولكن لا يشك ابداً في ان هذه المعاملة تجلب للمرضى آلاماً قاسية.

مسكين خليل. يحاول ان يداري مصيبته بالمرح.

قطعت الشمس شوطاً بعيداً في رحلتها نحو عرشها في قلب السماء.

ارتدى نعليه وتوجه نحو السوق.

# 3 ـ القُربان

جاء آجّار الى كوخ مغري قبل صلاة العشاء. وقف خارج الكوخ وصرخ بالتحية: السلام عليكم. كررها ثلاث مرات قبل أن يسمع حفيف الثياب وترد عليه إمرأته وتخبره بأن مغري لم يعد بعد. لم ينصرف. قرر أن ينتظره فذهب يتمشى في العراء المكسو بالأحجار الخشنة السوداء التي تتميز بها تلك الرقعة من الأرض الملاصقة للسلسلة الجبلية. اعترض طريقه كلب شرس قبل أن يجتاز أكواخ القبيلة. ظل ينبح ويهاجمه في غارات استفزازية متتالية ولكنه استطاع أن يسيطر على نفسه. في النهاية تراجع الكلب عن مطاردته فواصل طريقه حتى أعتاب الجبل المهيب. هجم البرد وأطل قمر بائس. سار باتجاه الجنوب بمحاذاة الجبل. صراخه أربك عروس مغري الجديدة. أفزعها بصوته فترددت كثيراً قبل أن ترد بعبارتها المقتضبة. مغري طلق زوجته الأولى بعد نزول الوادي وتزوج فتاة تصغر زوجته الأولى بعشر سنوات. المارد. المزواج. الأهالي قالوا ان الفلوس التي يتقاضاها من الرومي طيرت عقله. إذا امتلأت جيوب أهل الصحراء بالمال نبت لهم الريش وأحسوا بضرورة تغيير الزوجات. المال يذهب بالعقل. ومغري يتقاضى أجراً كبيراً لقاء عمله في عصابة موري. لقاء سكوته على نهب كنوز الصحراء. المغفّل. لا يعتقد أن ما يتلقاه من هبة من يدي الطلياني هو مجرد هباء بالمقارنة مع ما يستولي عليه الداهية من أموال. وها هو مغري نفسه يشيع أن الجنّ تخلّوا عن الوادي نهائياً ودلّوا الرومي الجشع على مخبأ الذهب.

عند معسكر «الأعداء» تلامعت الأضواء وعلا هرج النصارى. آجّار يصرّ على تسميته «معسكر الأعداء». فشل حتى الشيخ غوما في إقناعه ان الطليان ليسوا

جميعاً الكابتن بورديللو كما يتخيل وأنه لا يعدم وجود «الطيبين» بينهم.

انحرف يميناً وتوجه صوب الحقول. لم يتوغل في الأحراش وإنما أصغى لغناء الجنادب وهو يلزم أطراف الغابة في طريق عودته إلى تجمع الأكواخ.

في شقوق أعواد النخيل رأى النار تومض في بيت مغري. لا شك أن الرومي أطلق سراح الأبله من أعماله الشاقة. يعمل ليل نهار كالحمار ويحفر بأظافر يديه بحثاً عن كنوزه كي يسلمها للأعداء. مقابل ماذا؟ مقابل ملاليم يتسلمها في نهاية كل شهر. وها هو يفرح بها كطفل حصل على قطعة حلوى ويجري ليشتري بها أول امرأة. ما كان موري يستطيع أن يصل إلى مكان الكنوز لو لم يساعده ابناء الوادي البلهاء أمثال مغري.

على يساره تزاحمت الأكواخ. تلاحمت في طابور يمتد شمالاً بامتداد الوادي، موازياً للسلسلة الجبلية. من زحمة هذه الأكواخ ارتفع صراخ الأطفال.

وقف خارج الكوخ وأطلق التحية. حاول أن يليّن من صوته حتى لا يرعب المرأة. رد مغري على الفور. كأنه توقع أن يعود فتربص. خرج وهو يعدّل من وضع اللثام الأسود على رأسه. غبار الحفريات يعلو اللثام الأسود. لم يجد صعوبة في ان يلاحظ ذلك على ضوء القمر الشاحب. حدّق في وجهه محاولاً أن يتبين الملامح. هتف:

ـ آجّار؟ زارتنا البركة. السيل سيأتي من الجهة المعاكسة هذا العام. هيا. لماذا. لا تتفضل؟ العشاء على النار. لماذا لا تتناول عندنا العشاء ولو مرة واحدة؟

ـ كثّر الله الخير. ولكنك تعرف أني لا أذوق غير حليب معزاتي.

سكت مغري فواصل آجّار:

ـ جئتك في شأن آخر.

عاد على عقبيه فمشى مغري بجواره. شبك يديه خلف ظهره. سأل دون أن يرفع رأسه:

ـ يقال ان الجن استسلم أخيراً وسلّم ثرواتنا للنصراني. هل هذا صحيح؟

ـ صحيح.

ـ كم قلّة؟

ـ لم أر أكثر من ثلاث. بعض العمال يؤكد أنها أكثر بكثير.

ـ سامح الله الجنّ. سلموا في ثروات تانس بسهولة.

ـ لم يعاملونا يوماً بالنيّة الحسنة.

ـ معك حق. تحالفوا مع الرملة وكتموا أنفاس الوادي بالتراب بعد أن كان يفيض بالمياه.

ـ موري يقول ان قيمة الذهب تاريخية ولا تقدّر بثمن.

ـ اللص ابن اللص. خبّر التبروري الأهبل بالله كي يعض بنان الندم!

ـ ذهب به الى الجوهرة ومن هناك طار به إلى طرابلس.

ـ ومنها إلى إيطاليا. يقال ان المحافظ شريكه. يتقاسمان الغنيمة.

ـ طبعاً شريكه. وهل تشك في هذا؟

ـ المجرم!

ـ دع الكلام بيني وبينك. إنهم يتكتّمون على الاكتشاف.

ـ ومن يستطيع أن يعترض طريقهم؟ أهل الوادي لا يصدقون بوجود الكنز ويعتبرونني معتوهاً لأني أدعو لحماية ثروات الصحراء من أيدي الأغراب. قل لهم الآن أن يستعيدوه من أيديهم. البلهاء!

نبح الكلب باتجاه الأكواخ الجنوبية فمال آجّار يميناً باتجاه الأحراش. قال:

ـ أنت أيضاً خنت الصحراء. ما كان ينبغي أن تساعدهم في الوصول الى الكنز!

ـ لديّ عيال والحياة لا ترحم.

ـ الحياة لا ترحم أم أنك نسيت نفسك وتعودت على اللّقمة السهلة.

ـ . . .

ـ تتشمّس أمام بيتك وتتربص لشركات النصارى. حتى إذا أقبلت كنت أول من يتلهف بعرض خدماته. تعمل دليلاً لغزو الصحراء ونهبها. فعلت ذلك في آدرار الفانية أيضاً.

ـ قوت العيش. . .

ـ قوت العيش أم الشراهة لجمع المال وشراء الزوجات؟

ـ أنت غاضب. أفهم موقفك وأقدّر آلامك ولكن هذا لا يعطيك الحق في التهجم على الأبرياء.

ـ لم أهاجم إنسياً واحداً بلا إثم. الله حسيبي.

تلامعت الأضواء في الأكواخ المجاورة لدغل الديس. تعالت صيحات الأولاد. استمرّ آجّار يتسلّى بدحرجة أحجار الطريق بنعله. سار بجوار مغري صامتاً منكس الرأس. وقف فجأة وواجه رفيقه. قال بنبرة كئيبة:

ـ هل تعلم؟ ليس بين الأنس قديس واحد. وأنا أيضاً آثم.

لم يفهم مغري فاستمر:

ـ كلنا مشتركون في الجريمة، كلّ ساهم بنصيبه وساعد في اغتصاب الصحراء. هل تدري؟ لقد بخلت وأحجمت عن نحر معزاتي قرباناً لتانس كي تنقذ الكنوز. غوما نبّهني إلى أن الآلهة لن تستجيب لدعائي إذا لم أضحّي بالنذور.

ـ غوما قال ذلك؟

ـ نعم. قلت له أنني لا أستطيع أن أعيش بدون معزاتي فأنا لا أتغذّى إلاّ بالحليب وحفنة من التمر فقال ان السرّ يكمن هنا. الآلهة لا تقبل القرابين إلاّ إذا توفر فيها شرط تعجيزي، شرط التضحية، كما هو الحال مع معزاتي. وعندما عارضت وحاولت أن أشرح سحب اقتراحه وادّعى أنه يمزح. ولكني رأيت في عينيه شيئاً آخر غير المزاح.

ـ الشيخ لا يمزح أبداً.

ـ قهرتني معدتي وانتصرت لها. خنقت في صدري نداء الواجب فماذا كانت العاقبة؟ وقع الكنز بين يدي موري وانتهك عرض الوادي. كلّنا آثمون كما ترى.

تمتم وهو يحيّي مغري وينصرف:

ـ كلنا آثمون. لم أقابل في حياتي إنساً واحداً بريئاً.

تابعه مغري في نور القمر وهو يتجه شمالاً بمحاذاة أشجار النخيل. تسكع بين الأحواض وأصغى لغناء الجنادب الملحاح ثم انحرف يميناً ودخل الأكواخ المطلة على الحقول. مشى بخطوات سريعة حتى وقف بين كوخين متجاورين: كوخ آهر والكوخ الفارغ الذي نصبه للشيخ غوما ولا يأوي إليه حتى في الشتاء. كوخ بائس، مهجور، مطفأ الموقد. في كوخ آخر ومضت النّار وانبعثت رائحة البصل المحروق في الزيت. تمشّى بين الكوخين ثم قرر أن يرفع صوته بالتحية: السلام عليكم! مضى وقت طويل قبل أن ترد المرأة على تحيته. ظلت معتصمة بالخباء فخرج آميس لاستقباله. أخبره أن الشيخين ذهبا للجامع فربت على كتف الصبي ومرّر يده على رأسه الذي تتدلى منه ضفيرة طويلة من الشعر. أخرج من جيبه قطعتين من الحلوى. قدمهما للصبي. لم يكن من الصعب على آجّار أن يرى الفرح في عيني الولد برغم ضوء القمر الباهت. قال:

ـ هذه أتعابك. الآن سأكلفك بعمل صغير. ستذهب الى كوخ جدّك غوما وستجد في أمتعته ذلك السوط. هل رأيت سوط جدّك غوما؟

هزّ الصبي رأسه بالإيجاب فواصل آجّار:

ـ ستبحث عنه وستأتيني به.

احتج الصبي:

ـ ولكن الدنيا ظلام.

فكر آجار ثم أخرج علبة كبريت. قدمها له:

ـ خذ. ولّع الكبريت. لا أعتقد أن الشيخ بحاجة كي يخفيه بعيداً. ربما وجدته

معلقاً في ركن من أركان الكوخ أو معلقاً في العمود. اذهب يا فالح.

غاب الصبي دقائق. عاد أخيراً وسأل وهو يقدّم له السوط:

ـ هل صحيح ما يقال ان سوط جدّي مفتول من نار؟

ابتسم آجار. داعب ضفيرته الطويلة وقال:

ـ هكذا تقول الأساطير.

قلّب السوط بين يديه وأضاف:

ـ دائماً ظمآن وجوعان. ظمآن للدم وجوعان لأكل لحم بني آدم!

ابتسم مرة أخرى قبل أن يدس السلاح في كمّه وينطلق إلى كوخه.

في الصباح التالي ارتفع الصياح في سانية التبروري، واستمرت الهرجة حتى كتمت ضجيج عمّال الحفريات في جانب السانية الغربي.

هرع النّاس. جاء العمّال وخبراء موري من الطليان. تحلّقوا حول المعركة. وقفوا يتفرجون. لم يتدخلوا لفض النزاع. وجوههم معفّرة بالتّراب. أسنانهم تبدو أكثر بياضاً في البشرة التي تعلوها طبقات الغبار. أمام كوخ التبروري ارتفعت نخلة عالية. تسلقها التبروري إلى منتصفها. ثيابه ملوثة بالدم ووجهه يعلوه التراب والفزع. يصرخ ويطلب النجدة في حين ربض له آجّار تحت النخلة، يفرقع بالسوط الشيطاني في الهواء، ويدور كالمجنون. في الكوخ ارتفع عويل المرأة وتطوعت إبنة التبروري الصبية ودخلت المعركة إلى جانب أبيها. كانت تملأ حجرها بالأحجار وتلقيها في وجه آجّار الهائج.

تقاطر الفضوليون. تجمع النّاس من كل أنحاء الوادي. حاول بعض الوجهاء أن يتدخلوا وينزعوا سلاح آجّار ولكنه كان يهاجمهم في كل مرة ويهدد بالسوط المخيف. غيّروا لغتهم ولجأوا إلى اسلوب التوسل. قال شيخ وقور تتدلى من ذقنه لحية بيضاء ويتوكأ على عكاز:

ـ إلعن الشيطان وعد إلى العقل!

قفز نحوه آجار وحذره بألاّ يتدخل. تراجع العجوز خائباً. تقدّم آهر فهاج

أكثر وهدده بالسوط. في عينيه يقفز الجنون. قال آهر:

ـ هذا جنون. إني أرى في عينيه جنون الوجد.

صرخ آجّار:

ـ هيّا تقدّم. لماذا لا تقترب؟ هل تعتقد أن سوط الشيخ غوما يمكن أن يستثنيك من العقاب؟ سوط الشيخ غوما لا يستثني أحداً حتى شيخ القبيلة. ها ـ ها ـ ها... كلكم تستحقون العقاب. كلكم آثمون. سأسلخ جلودكم واحداً واحداً!

ارتفع أكثر من صوت:

ـ لقد جنّ. اللهم ثبّت علينا عقولنا. يجب تقييده قبل أن يرتكب جريمة قتل.

في أعلى النخلة توسل التبروري:

ـ لم أعد أقوى على الصمود. إذا لم تفعلوا شيئاً فسوف أسقط من النخلة. أبعدوا المجنون!

صاح آجّار وهو يتقافز بين تجمع الأهالي وجذع السانية:

ـ ستقع بين يدي عاجلاً أم آجلاً. ستسقط وستنال نصيبك من العقاب. لن تبقى معلقاً هناك إلى الأبد. ها ـ ها...

ثم لوّح بالسوط في الهواء مهدداً جمهرة المتفجرين. أخيراً وصل الشيخ غوما.

ترنّح وهو يخترق جموع الأهالي. أفسح له المجتمعون الطريق وتقدّم نحو آجّار. تراجع على عقبيه بمجرد أن رأى الشيخ. احتجّ:

ـ لا تقترب يا شيخ غوما. لا تتدخّل. دعني أنفذ عقاب تانس في هذا الحيوان...

ولكن الشيخ لم يرضخ للوعيد. تقدّم بخطى واسعة حتى أمسك بطرف السوط. نزعه بقوة وقال بغضب:

ـ هل أنت مجنون؟ من الذي نصّبك قاضياً حتى تسمح لنفسك بتنفيذ

العقوبات؟

هدأت ثورة آجّار وتمتم بحزن:

ـ ما كان يجب أن تشفع له. لماذا بكّرت بالمجيء؟ لماذا لم تتأخر قليلاً حتى... سكت فجأة. كان يرتجف. في عينيه لمعت الدموع.

نزل التبروري.

استنصر بوجود الشيخ غوما فصرخ في وجه آجّار:

ـ هذا حقلي. أزرعة أو أحرقه أو أبيعه للشيطان! هذا شأني! هل أنت شريكي! هجم عليه آجار فأمسك به عدد من الشباب. أمر غوما:

ـ أبعدوا هذا الشيطان من هنا.. هيّا...

جرّه الشباب وهو يردد اللعنات. مسح التبروري الدّم بكم قميصه الممزق وصرخ في أثره:

ـ بورديللو على حق عندما سقاك لتراً من البول! أيها الدرويش!

نهره الشيخ بقسوة:

ـ ماذا أسمع؟ هل أنتم عيال أم رجال؟ تتنابزون بالألقاب كالرعاع! يكفي!

صمت التبروري واحتضن ابنته. أحاطها بذراعيه ورفع رأسه نحو غوما:

ـ يضربني بسوطك يا شيخ غوما! هل يرضيك هذا؟

وجه غوما سؤاله إلى آهر وهو يثني السوط في كرة صغيرة ويدسه في جيبه الداخلي:

ـ من أين لآجار بالسوط. ألا تقول لي؟

ـ أخذه من آميس البارحة بعد أن رشاه بقطعة حلوى.

تصاعد الغضب في عيني الشيخ. أضاف آهر:

ـ الولد أخبرني بذلك هذا الصباح.

قرر غوما:

ـ يجب أن تفكر له في عقوبة مناسبة. هذا واجبنا نحو أبيه. لقد وعدناه بأن يتلقى تربية حسنة.

تهيأ غوما للانصراف فقال التبروري ضاحكاً:

ـ لولا براعتي في تسلق النخيل لقتلني. حرفة القرود أنقذتني من الموت. ها ـ ها.. ما رأيك في مهنتنا الآن يا شيخ غوما؟ يروق للبدو أن يعيّروا الفلاحين بتسلق النخيل.. هه ـ هه...

التفاخر بمهارته في تسلق النخل أنسته الإساءة وآلام السوط.

تضاحكت الجمهرة وبدأت الزحمة تنفضّ.

# 4 ـ النّار والرماد

الأقاويل حول الثروة المكتشفة لم تتوقف. تسللت إلى الأكواخ وتهامست بها النساء وتناقلها حتى الأطفال.

اهتمام الأهالي بالذهب فاق حتى اهتمامهم بحادثة اختفاء مغري. في صفّ الدكاكين المواجهة للجامع وجد الشيخ خليل تجمعاً للشيوخ يحرثون الأرض بأصابعهم ويتسامرون بأخبار الذهب تحت شعاعات الشمس. بين الشيوخ رأى آهر. البارحة جاءه واشتكى له قائلاً: «الشيخ غوما نوى الشّر. يصرّ أن لاختفاء مغري علاقة باكتشاف الذهب. مغري أفشى السرّ في رأيه وليس من المستبعد أن يزيحه موري بالتعاون مع شريكه في نهب ثروات الوادي: المحافظ! أنا أعرفه. يمهد لأمر مّا. يريد فتح معركة مع المحافظ. لسنا في وضع يسمح لنا بتحدّي السلطات. هو عنيد كما تعرف ولن يستمع لأحد غيرك. تحدث إليه بالله بحكمتك وعقلك. لم أشأ أن أؤجج في صدره العناد أكثر فتسترت بالغشامة متعمداً هذه المرة. تجاهلت ما يرمي إليه حتى أتجنب استفزازه وعناده. حاول معه إنقاذاً للقبيلة وللأهالي من متاعب الصدام مع السلطة». لم يتحمس للمهمّة. ليس لأنه يعرف غوما الذي لا يتراجع في تنفيذ نواياه ولكنه لا ينوي الدخول في هذه المعركة الآن. لا ينوي التورط في المهمات الدنيوية لأنها لن تنتهي. لديه الآن أهم من كل المعارك الدنيوية. عليه أن يستعجل ويضع اللمسات الأخيرة في ترتيب ما أنفق وقتاً طويلاً للتحضير له: الترتيب للدخول الى المثوى الأبدي. العبور الى حافة الدنيا الى الناحية الأخرى. يريد أن يضع خطته التي احتفظ بها سرّاً كل هذه السنين، موضع التنفيذ. وإذا التقى بآهر الآن فإنه سيسأله - ولو بنظرة عابرة من

عينيه ـ عما فعل بوعده. وسيخجل وسيتفاوض مع غوما احتراماً لآهر وسيركب الشيخ رأسه. حتماً سيركب رأسه، وسيقدّم المبررات المقنعة أيضاً. وسيجد نفسه في الدوامة الدنيوية. وسيضطر أن يرجىء تنفيذ ما عزم عليه. يرجىء تنفيذ سرّه على حساب صحته. وسيستمر النزيف. نزيف الجسم ونزيف النفس. الآلام في الشهور الأخيرة لم تعد تطاق. حاول أن يخفيها حتى عن زوجته ولكنها أحسّت. عشرة العمر جعلتها تحس ففاتحته بموافقتها أخيراً.

لقاء آهر سيعيده الى متاهة الدنيا. متاعب البشر ستعرقل «مشروعه»، لم يصدّق أن ينتزع الموافقة. لم يصدّق أن تتنازل عن موقفها فقرر أن يستعجل وقوع ما ليس من وقوعه بدّ قبل أن يوسوس لها الجن وتتراجع. المرأة هوائية لا تثبت على حال. أخطأ منذ البداية عندما أخبرها بقراره. أيقن الآن بجسامة هذا الخطأ بعد أن عطلته كل هذه السنين ومنعته من تنفيذ «مشروعه». تذكر نصيحة الشيخ غوما عندما قال له مرة: «على الرجل الحكيم أن يخفي قراراته التي تتعلق بمسائل الحياة والموت حتى عن أقرب الناس إليه إذا أراد التوفيق». سأله يومها: «حتى عن زوجته؟» رمقه الشيخ باستنكار قبل أن يعلن غاضباً: «عن زوجته قبل أي أحد آخر». ضحك يومها في سرّه لهذا الرأي. ولكن التجربة أثبتت حكمته.

برغم كل شيء لا يستطيع أن ينكر صبرها وإخلاصها. ناضلت معه طويلاً حتى استطاعا قهر المكتوب وإنجاب الذرية. نضالهما دام ست سنوات. أنفق في السنوات الأولى كل ما يملك على تعاويذ الفقهاء. تنقل بها بين الواحات التي ذاع فيها صيت القادرين على مفاوضة الجن: غدامس. غات. أغاديس. مرزق. آدرار. وعندما تعب ويئس جاء الفرج على يدي عجوز زنجية هاجرت من «كانو» واستوطنت غات. مكثت معها في الخباء ليلة كاملة. في الصباح أعلنت أنها لن تشفى إلا بصدمة عنيفة. وبدأت في ترتيب التدابير التي ستنفذ بها «الفزعة» دون أن تنتظر رأيه.

في اليوم التالي دعت زوجته على وليمة وأغرقت الدنيا بالبخور ورطنت التعاويذ الغامضة بلغة الهوسا، ثم تركتها في رعاية طائفة من النساء. جاءته في خيمته. دلقت على رأسه جردلاً مليئاً بسائل متخثر أحمر كالدم. مددته على الفراش في الخباء. طلبت منه أن يكتم أنفاسه ولا يتحرّك عندما يشعر بخطوات الزوّار. لم يمض وقت طويل حتى تدافع الرجال والناس وتزاحموا داخل الخباء.

سمع الهمهمات والتمتمات ثم انطلقت صرخة عنيفة. أمرته العجوز الحكيمة بعدها أن ينهض من رقدته. وجد زوجته مغمى عليها عند قدميه وزحمة الرجال والنساء يحدقون فيه بذهول. قالوا له فيما بعد أن الزنجية لم تبح لأحد بنيتها، جاءت إلى ميعاد النساء وهي تشد شعرات رأسها وتضرب صدرها. قالت أن خليل تعرض لاعتداء من قبل عدو قديم ذبحه في خيمته عندما استلقى لقضاء القيلولة. تدافعوا نحو الخيمة ورأت امرأته الزواق الأحمر الذي يلوث ملابسه فخالته دماً. صرخت وسقطت مغمى عليها.

عاد بها الى الصحراء ولم يصدق أن هذه اللعبة الساذجة يمكن أن تفوق علم الفقهاء في جلب الشفاء. مضت ثلاث أشهر فقط فلاحظ شفتيها الملوثتين بالطين الأبيض. لم يصدّق أنها بدأت تتوحّم. في السنة السابعة أنجبت له الولد. وربما كانت خيبتهم فيه أخف لو لم ينتظروه هذا الزمن الطويل. ولو لم ينفقوا في سبيله كل هذا الجهد. ولو لم يكلفهم كل هذه المتاعب. كبر وشبّ مغموراً بالحنان والرحمة. وما لبث أن صدقت فيه نبوءة حكماء القبيلة الذين قالوا: «من رزق بولد وحيد مهدد دائماً بأن يفقده» هو لم يفقده بالموت وإنما خطفته منه إمرأة حسناء من تمبكتو في أول رحلة تجارية له. ذهب ولم يعد. في البداية عزّى لهفتهما بالمكاتيب وطمأنهما بالمراسلات والتوصيات الشفوية مع القادمين من الرحل والتجار. وتضاءلت هذه المراسلات. قلّت مع الوقت حتى انقطعت نهائياً. صبرا ثلاث سنوات. منعه الحياء أمام رجال القبيلة من أن يسافر الى تمبكتو كي يزوره ويقف على سبب القطيعة. ليرى بنفسه ما إذا كان حيّاً أم ميتاً. ولكن ماذا سيقول النّاس؟ إمرأة اختطفت منه الولد المدلّل فلحق به كي ينتزعه من أحضانها! لا. لن يذهب. ولكنها تحطّمت حزناً. فقدت الشهية وذبلت ونحلت حتى أصبحت جلداً على عظم. فلم يكن أمامه خيار. انضمّ إلى قافلة وسافر إلى تمبكتو. استقبله بكل حفاوة. رأى إمرأته الجميلة. لم يكن يتصوّرها بهذه اللطافة. عقله صوّرها غولة بشعة. طالما استطاعت أن تسحر الولد وتدبّر اختطافه فلا بد أن تكون غولة بشعة! لم يجد أمامه سوى حسناء كريمة ولطيفة فدهش أكثر. قضى في ضيافتهما قرابة الشهر والنصف. جاء ميعاد السفر فحمّلوه بالهدايا والعطايا ووعده الابن أن يعود إلى «آزجر» في نهاية الصيف مع تراجع الحر. ولم يستبعد احتمال أن يرحلوا نهائياً ويقيموا معهم في «آزجر» إلى الأبد. عاد إلى فزان على هذا الأمل. طمأن الأم وقص عليها الأساطير عن حياته هناك. نقل لها نيّته في أن يأتي قريباً

ويقيم معهما إلى الأبد. وقدّم لها هداياه فبكت وفرحت وجرى الدم في وجهها من جديد. ولكن السعادة لم تدم طويلاً. انتهى العام وبدأ الشتاء ولم يأت. انتظراه شهوراً أخرى وسنوات أخرى بلا أمل. في النهاية تبدّد الحلم وركنا لليأس. عادت لحزنها وقوقعتها واستسلمت لقدرها نهائياً. كان صعباً عليه أن يراها في هذه الحال ولكنه تعوّد مع الزمن أيضاً. لم يبق لهما إلا الصبر والانتظار. كتما ألمهما واعتبرا أن النّار خلّفت الرماد.

في ذلك الوقت كان داؤه الأول في المعدة قد قطع شوطاً طويلاً. الآلام تفاقمت وبدأ يعثر على الدم في الفضلات. كتم عليها الأمر ولكن النزيف فضح أمره. وجدت آثار الدماء في ملابسه المعدّة للغسيل. تكرر الأمر فاستنطقته. اعترف بعد مداورات لم تدم طويلاً. طافت على البيوت وأتت من الجارات والعطارات بأندر المراهم ومستحضرات الأعشاب. شعر بتحسن في البداية الى حد اختفاء آثار الدم في الفضلات. ولكن النزيف ما لبث أن عاد بعدها بغزارة. إذا ذهب لقضاء حاجته ترك هناك بركة صغيرة من الدم مع الفضلات. غزاه الشحوب والذبول. عادت الآلام في الليل تمزق المعدة. رأت العذاب في عينيه فغمرته بعنايتها وضاعفت من جهودها في الحصول على الدواء: جاءته بأندر الأعشاب. بل وحمّلت تجار القوافل بالوصايا كي يأتوها بالوصفات للأدوية النادرة فجاؤوا بالمستحضرات من كانو والسودان وآير. أكبر فيها هذا العناد.

أدرك أنها غمرته بحنان مضاعف. حنان الزوجة الرحيمة، وذلك الحنان الخفي الذي اختزنته لتخص به الابن الوحيد الضائع. حرمتها منه إمرأة أخرى فأنفقته على أقرب رجل: عليه هو. وقد وجدت في مرضه مبرراً كافياً لإنفاق هذا الفيض من الحب. ملأت به الفراغ القاسي الذي خلفه غياب الابن الوحيد. المرأة لم تتعلق برفيق حياتها أكثر عندما يغيب المولود من حياتهما. وأكبر دليل على ذلك آهر وزوجته. لم ينجبا أولاداً فعاشا أسعد زوجين. حياته معها أيضاً دليل على ذلك. يذكر أنها أصبحت عصبية، متوترة، تثور لأتفه الأسباب بمجرد أن حنّ الله عليها وحبلت بعد نجاح عملية العجوز الزنجية. أرجع الأمر في البداية لمزاج النساء في فترة الحمل، ولكن هذه الخشونة استمرت حتى بعد الانجاب. أصبحت عدوانية ميالة للعراك والاستفزاز. ولم تلتزم الهدوء إلا بعد أن كبر الابن وهاجر إلى تمبكتو وفقدته من جديد.

جهودها لم تفد في إيقاف النزيف.

فشلت الأدوية والمراهم والأعشاب واستفحل الداء. استعد لتحمل الآلام وهيأ نفسه لإيجاد لغة يتعايش بها مع المرض إلى حين يقرر الله الأمر المفعول. وبرغم أنه لم يفصح لها عن رغبته في إخفاء الأمر عن القبيلة إلا أنها حدست ذلك بغريزة النساء فنفّذت إتفاقاً بينهما غير معلن.

تفاقمت الآلام.

اتسعت بركة الدم في الفضلات وحاول المرض أن يتغلّب ويقهر.

زحف الغزاة على غات وبعث الشيخ غوما رسله الى القبائل لقيادة المقاومة فقال لنفسه أن الله جاءه بالفرج وسيشترك في الحرب ويضع حداً لآلامه. ولكن القدر خيّب آماله. قال الشيخ وهو يوزع الأدوار على المشائخ: «أنت ستمكث لحماية البيوت. زوّدناك بما يزيد عن مائة مسلّح». احتج يومها: «أمكث في البيوت كالنساء؟!» فاستنكر الشيخ: «ولكن حماية البيوت أيضاً واجب لا يقل أهمية عن الاشتراك في صد الغزاة!».

حدست، بتلك الموهبة الفريدة التي خصّ الله بها النساء، سبب إصراره على الاشتراك في المعارك، وتيقنت أكثر عندما رأت الخيبة والألم في عينيه بعد قرار غوما بإبقائه ليتولى حماية النجع. في الليل تجاسرت وكاشفته بمخاوفها.

انشغلت بتحضير شاي العشاء. انكبت فوق الوعاء وتظاهرت بالعناية بالأدوية المنتشرة أمامها في طبق النحاس قبل أن تقول وهي تحاول أن تخنق انفعالها:

ـ ما كان يجب أن تنفرد باتخاذ قرار كهذا. على الأقل رحمة به!

حدجها مستفهماً فواصلت دون أن ترفع رأسها:

ـ ستكون فجيعته مزدوجة: فجيعته فيك وفجيعة العقوق. لم ينل رضاك قبل غيابك. سيتعذب إلى الأبد.

تلهى بمد النّار بالحطب. قال بقسوة:

ـ إذا لم أفعل فلن يكون ذلك إكراماً له. هو آخر من سأفكر فيه.

ـ استغفر الله. لا تكن قاسياً بجاه النبي محمد . إذا فعلتها فإن ذلك سيكون عقاباً له لا يحتمل.

ـ أشك في ذلك. حسن نواياك لن يعفيه من الضلال، فلا تعوّلي بالله على شهامته.

عضت على شفتها السفلى فأضاف:

ـ دفاعك عنه لن يبرر جريمته. اعتبري اننا لم ننجب ولداً.

ـ استغفر الله. هو قطعة منّا شئنا أم أبينا، والرحمة تاج يضيء رأس كل مؤمن.

في لحظة أدرك أنها تستنكر أن يقدم على هذه الخطوة ليس رحمة بالابن الضال فقط ولكن رحمة بها أيضاً. الكبرياء يمنعها من التصريح.

قال بهدوء:

ـ إذا كابدت الألم وأرجأت فعل ذلك الآن فلن يكون قراري من قبيل الرحمة به أو الشفقة عليه!

ارتجف الكأس في يدها فاندلق الشاي. عرفت أنه ينوي أن يلعنه وإن أخفى عنها هذه النيّة. عجزت أن تسيطر على انفعالها وهي تمد له كأس الشاي فاندلق على الحواشي.

تذرع بالصبر واستمر يعارك الآلام.

تحاشى الزحام ومال الى العزلة والسكينة. اعتقد الكثيرون أن اللّين جزء من طبيعته ولم يدركوا أنه نتيجة للمرض الخبيث المدسوس. الشيخ غوما وحده أحس بأن أمره ليس على ما يرام فأحاطه باهتمام خاص. لم يفاتحه يوماً بشكوكه ولكن عينيه وتصرفاته قالت له أن الشيخ يعرف بإحساس الرجل الحكيم.

الشيخ فوجيء بأمر المرض الأخير: إصابة الرئة!

أحسّ بالآلام في الجنب الأيسر بعد الحريق بشهور. التأمت الجروح في الصدر والوجه وبدأ الألم يحرق رئته اليسرى مصحوباً بنوبات من السعال الحاد. قبل

الطوفان بقليل بصق الدم. لاحظت المصيبة الجديدة فتضاعفت الفجيعة في عينيها. أصبح الدم الآن ينزف من فمه ويصاحب لعابه أيضاً. فأي جريمة ارتكب حتى استحق هذا القصاص؟ تباطأ في تنفيذ ما عزم عليه منذ سنوات وصبر على الألم إكباراً لها وحدها فكافأه الله بعقاب جديد.

بعد نزول الوادي لاحظ التسليم في تصرفاتها وقرأ في عينيها التعايش مع المكتوب. رضخت أخيراً فقالت تغالب العذاب:

ـ لن أقف ضد قرارك بعد اليوم، ولكن بشرط...

ـ ما هو؟ خير إن شاء الله.

أخفت عينيها وراء لحافها وتمتمت:

ـ أن تأخذني معك أيضاً.

أخرسته الدهشة. لم يتصوّر أبداً أن يكون تعلقها به قد بلغ حدّاً تضحي فيه بالحياة في سبيل أن تصاحبه في رحلة المجهول. فكر في حياتها فتذكر أنها استطاعت خلال هذه السنوات أن تملأ به الفراغ الذي خلّفه ضياع الابن العاق. استغرب أن معاناته للمرض ألهته وأعمته عن ملاحظة ما يعنيه الآن بالنسبة لها. تصاعد في قلبه فيض الحنان والشفقة. قال:

ـ لا أرى ضرورة لذلك أبداً. لست في موقف يدعوك إلى اتخاذ هذه الخطوة. أمري يختلف.

لاحظ كيف عضت على شفتها السفلى.

صمتت في ذلك اليوم ولكن الاصرار ظلّ يتألق في عينيها.

نيتها ضاعفت عذابه.

لم يعلم الشيخ غوما وهو يهرع لإنقاذه من النار التي شبت في ملابسه أنه أنقذه من عذاب اللهب ليعيده إلى عذاب الأرض. ولم يكن أحد يعلم حتى اليوم أنه سلّم نفسه للنّار ـ في آدرار الفانية ـ طائعاً حتى إذا نشب اللهب والتهمت ألسنته أطراف الجسد قفز إلى الخلاء. منذ ذلك اليوم أدرك مدى ضعف عباد الله

وأصرّ أن يجرب من جديد. الموت بالنّار أبشع ميتة. هكذا يقال. والحديد لا يستوي إلا بالحديد. النّار في جوفه أقسى ولن يفلح شيء في علاجها سوى حرق الجسد بالنّار. احتقر نفسه يومها لأنه لم يصبر على الألم فتلقفه الشيخ غوما واحتواه في العراء ببرنوسه.

أحسّت أن الحريق من تدبيره ورأى ذلك في عينيها بمجرد أن عاد له الوعي.

دفع ثمن تلك المحاولة الأليمة الفاشلة. أصيب بنزيف جديد. ينزف الآن من الحلق ومن المصران الغليظ. بعد نزول الوادي احتدّ السعال وتفاقم النزيف. عرف الكثيرون. عرف آهر أيضاً. بل انه لم يحاول أن يخفي أمره الاصابة الأخيرة. ولا يعرف كيف ظل الشيخ غوما غافلاً.

خمّن مصيبته الأولى. جاء الى بيته بعد أن خرج ليترك له المجال متعمداً وهبّ في زوجته دون أن يتفضل بالقعود:

ـ منذ متى أصبحت آخر من يعلم في هذه القبيلة؟ كانت الشفاه تأتيني حتى بشائعات الزواج والطلاق فكيف سمحتم بأن تخفوا عني أمراً كهذا؟ أم أنكم لا تعترفون إلا بالمناصب ولا تبوحون بأسراركم إلا للمشائخ؟

ـ استغفر الله يا شيخنا. حاشا لله.

ـ ماذا تفسرين بأن أتلقى الخبر من آهر؟ هل لأنه احتل منصب شيخ القبيلة؟

ـ استغفر الله. ماذا تقول يا شيخنا؟ هذا لم يخطر ببال أحد. ربما عرف بالصدفة. خليل يتكتّم. ولم يحدث أن كاشف أحداً بمرضه قبل اليوم.

ـ يتعذّب كل هذه السنوات. ويصل الأمر إلى حد أن يتقيأ الدم أمامي وأنا لا أعلم.

بعدها استفسر منها على المرض وتحدث عن التطبيب بالأعشاب البرية وحيوانات الصحراء ووصف لها بعض الأدوية ولكنه لم يتحدث معه عن الدّاء أبداً. إذا التقيا في مجلس أو تقابلا في الطريق تبادل معه التحيّة التقليدية وإن ضبطه أكثر من مرة يسترق إليه نظرة فضولية من تحت اللثام. بالأمس، فجأة، أوصل له مع آهر عن رغبته في التحدث إليه على انفراد. مسكين الشيخ غوما. لا يكفي أن

يعاني مرضه وإنما كتب عليه أن يعاني آلامه هو أيضاً. هو يعرف محنة غوما. داؤه لا يكمن في الشيخوخة وعجز الكبر كما يرى الكثيرون وإنما في الحنين الى الصحراء. حياته في الواحات جعلته كطائر مكسور الجناحين. يحاول جاهداً أن يطير ويحلق بحرية كبقية الطيور ولكن الجناحين المكسورين يمنعانه من تحقيق الحلم.

الشيخ الآن طائر مكسور الجناحين منذ اضطر أن يهجر الصحراء.

ولذلك لا ينوي الآن أن ينفّذ رغبة آهر في التحدث الى غوما وتهدئته في المواجهة مع المحافظ، ولا ينوي أن يلبي دعوة الشيخ نفسه لمقابلته. هذه كلها الآن شؤون دنيوية سيحلّها الزمن دون مشاركته. مهمته الآن أن يستعجل. أن يعد موقد النّار ويصلح ما أفسده في المرة الأولى. عليه أن يثبت لنفسه رجولته. في آدرار غلبه الألم وهرب من الموت. غلبه ألم اللحظة الصغيرة ولجأ إلى عذاب المرض الطويل. إستجار من الرمضاء بالنّار الموقدة. رسب في امتحان الرجولة فكتم هزيمته عن الجميع. احتقر نفسه في ذلك اليوم. ولم يغفر لها ضعفها حتى هذه اللحظة. واليوم قرر أن يضع اللمسات الأخيرة في امتحان الرجولة. في الأيام الماضية كدّس الحطب بجوار البيت ثم تذكر موافقتها المشروطة بذلك الشرط القاسي: أن ترافقه في الرحلة!

ترك أكداس الحطب واختار موقعاً آخر. في ضاحية الوادي. عند الرملة. غرب سانية القطيعي، وراء تلة رملية تفصل جبال الرملة عن الحقل وتصنع مرتفعاً يصد موقده عن العيون.

دخل الأحراش متأبطاً غالوناً من البنزين. رائحته الحادة.. غزت أنفه وفاحت من ملابسه برغم أنه أحكم اغلاق السدادة. في الناحية الشمالية حيث تستمر الحفريات، ارتفع الغبار وعلا ضجيج العمال وهدير السيارات.

ارتفعت الشمس.

اجتاز الغابة وعبر آخر الجداول الملاصقة للرملة الواقعة تحت رحمة عدوّ الوادي. انعطف يساراً وسلك شعبة ضيقة محاصرة بين الكثبان الرملية العالية في ناحية الغرب والتلة المطلة على حقل القطيعي. هناك وجد أكوام الحطب التي خبأها لهذا اليوم. وضع غالون الماء وبدأ يزيح الرمل ويحفر في المنخفض الصغير.

انتصف النهار.

الفصل شتاء ولكن شمس الصحراء إذا تربعت على عرشها في قلب السماء فلا بد أن ينزّ العرق من الجبين حتى في أشد فصول الشتاء قساوة.

ولكن الشمس هذا اليوم ليست المسؤولة الوحيدة عن العرق الغزير الذي يغمره وينزّ من جسمه وجبينه.

قطع شوطاً طويلاً في الحفر.

فرش الحفرة بأعواد الحطب. حرص أن يفرش الرملة بطبقة رقيقة من الأعواد كي يسهل على النّار أن تتأجج وتسرع في الانتشار والتهام الأعواد الكبيرة في الطبقة العليا.

انتهى من توزيع الحطب وجلس يمسح العرق ويلتقط الأنفاس. بعد قليل سيخضع للامتحان الذي انتظره طويلاً. اليوم سيتقرر مصير المعركة وسيثبت عما إذا كان رجلاً جديراً بهذا الشرف أم أنه مجرد إمرأة جبانة تضع على رأسها عمامة وتتنكر في ثياب رجل! في المحاولة الماضية تخلّى عنه الصبر وقفز يجري في الخلاء كي يأخذه غوما في أحضانه. بحث في نفسه عن الأعذار وعزا التسرع إلى أنه لم يتهيأ لتنفيذ نيته كما ينبغي ولم يعط للقرار الخطير ما يتطلبه من التحضير. احتقر نفسه على هذا الضعف وتقبّل العقاب الجديد بروح راضية. وبرغم الحريق المتلظّي في بطنه إلا أنه رأى يومها كم من الصعب على الانسان أن يفارق الحياة. لم يدفعه الألم الناتج عن الحريق إلي القفز الى الخارج وإنما الخوف من شبح الموت الذي رأى خياله لحظتها. تلاشى الشعور بالعار وتبدد التشدّق بالكبرياء والرجولة في رمشة عين وقفز يجري سعياً إلى النجاة، فاراً من الموت.

أدرك يومها أن كل ما يقال عن البطولة واحتقار الموت هو من قبيل الخرافات. ولم تعد له شجاعته إلا بعد أن أحسّ بصدره يعلو ويهبط مليئاً بالأنفاس والحياة وعرف أن الخطر زال وهو على قيد الحياة. أحس بفرح غامض وقال في نفسه أن ليس ثمة سعادة تعادل الحياة. مجرد الحياة. مجرد أن يتنفس ويتحرك ويبصر ويعقل. هذه الحواس تكفي. الإحساس بالوجود أنفس هدية وهبها الله للانسان. ولا يعرف قيمتها إلا في تلك اللحظة الخاطفة التي يقف فيها أمام الموت وجهاً لوجه.

ولكن الانسان نمرود بطبعه.

ما أن سرت في أوصاله الحياة وأحس بالعافية حتى عاوده العناد. احتقر نفسه على جبنه وسعى إلى إثبات الرجولة من جديد. عاودته الفكرة وشرع يروّضها ويقلّبها ويعدّها على نار هادئة! تضاعفت الأوجاع في الليالي الأخيرة وأصبحت لا تطاق. أول البارحة قضى الليل يتلوّى ويتدحرج على الأرض. لا تهدأ أوجاع المعدة حتى تبدأ آلام الرئة. وقد استشرس هذا التناوب في الآونة الأخيرة.

هذا دفعه لأن يعجّل. الله يحذّر من هذا المصير ويدين عباده الذين يتجرأون ويلقوا بالنفس إلى التهلكة ولكن انتظار الفرج طال والآلام في تفاقم مستمر. فليغفر الغفور الرحيم.

عاد إلى الحقل. كان خالياً. في الجداول الجنوبية سمع أولاد القطيعي يتصايحون. سحب الماء من البئر وتوضأ وصلى.

عاد إلى موقده الهائل.

رش الحطب بسائل البنزين وتناول عود الثقاب. جلس في قلب الموقد ورفع رأسه نحو السماء. أشعة الشمس عمودية، قاسية، مسلطة على جبينه المبلل بالعرق. برغم قسوتها أحس بأنها رقيقة ناعمة تربّت عليه بلطف وحنان. في الغرب ارتفعت قمم الرمال. ذهبية، متكبّرة، غامضة و... بديعة. كم تبدو بديعة الآن. لم يرها أبداً بهذا الجمال. بل اكتشف أنه لم يرها قبل اليوم. الانسان حقّاً أعمى. أعمى حتى يواجه الموت. لا يرى الكائنات والمخلوقات إلا في لحظة الوداع الأبدي. التمتّع بجمال الكون متأخر الآن. لن يبصر في لحظة ما غفل عنه العمر كلّه.

أشعل الثقاب.

رقد على ظهره فوق بساط الحطب.

قرّب العود المشتعل إلى الحطب المرشوش بالبنزين. رائحة السائل الحادة تعبق في الخلاء.

تلقّف البنزين الشعلة وشبت النار في الحطب وشملت كل الفراش في لحظة.

تلقّفته ألسنة اللهب وتشبثت بملابسه الفضفاضة. اخترقتها إلى الجسد المنهك، المعذب بالدّاء الخبيث، المزمن. الشعور بالألم فاق كل شيء.

انطلقت صرخته:

ـ آ ـ آ ـ آ ـ ي ـ ي ـ ي...

ردّد الصدى في جبال الرملة فجيعته. رددتها القمم الحكيمة بجلال وغموض.

انتفض. قفز. جرى. شعلة من النّار تعدو نحو الحقل.

قفز في البئر.

تسابق الأهالي.

تنادى الفلاحون.

تجمهر الناس فوق البئر.

أخرجوه قطعة سوداء. بعض أجزاء الجسد محروقة كالفحم، وأجزاء أخرى رجراجة يسيل منها الدم وينز منها سائل شفاف. ملامح الوجه مشوّهة، برزت عظامها في أكثر من مكان.

غطاه الشيخ بجرده والتفت يبعد النساء. ارتطم بآهر فتبادلا نظرة طويلة غامضة.

جاءت امرأته فاعترض غوما طريقها. وقف في مواجهتها فعرفت أنها لن تستطيع الوصول إليه. لم ير الشيخ في عينيها دموعاً.

رأى ألماً عظيماً.

تقدمت خطوة نحو الجسد المسجّى بجوار البئر فرفع الشيخ يده محذراً.

تمتمت بصوت كالهمس:

ـ نظرة أخيرة. لا أريد من الدنيا سوى أن تسمح لي بالنظرة الأخيرة. هذا حقي!

قال الشيخ بشكل قاطع:

ـ ليس الآن. سأخبرك عندما يحين الوقت المناسب.

في الليلة التالية لدفن الجثمان وجد القطيعي في البئر جثة أخرى: أرملة خليل!

# 5 ـ لو كان الضّمير رجلاً

قال الشيخ:

ـ المحافظ مضى بعيداً في استهتاره. انقل له نصيحتي باللّه. لصبر الأهالي حدوداً. إنه يسيء التقدير عندما يستهين بالأهالي.

تساءل الحكمدار:

ـ هل هذا تهديد؟

ـ ليس تماماً. إنه تحذير. تستطيع أن تبلغه تحذيري. أرى أنه لم يرث غراماً واحداً من عقل الوالي. أن ترث العقل من السلف أجدى من أن ترث المنصب. قل له ذلك أيضاً!

ـ ربما كان الأفضل أن نتريث فيما يخص التحذيرات. لم يمض زمن طويل على اختفاء الرجل. ولا نستطيع أن نجزم بمسؤولية موري في القضاء على مغري.

استنكر غوما:

ـ لم يمض زمن طويل؟ أكثر من شهر. مضى أكثر من شهر. هل تطمع في ظهور انسان اختفى فجأة بعد كل هذا الزمن؟ لا الأرض بلعته ولا طار بجناحين إلى رحاب السماء. اختفاؤه من تدبير موري. أكاد لا أشك في ذلك. حيثما وجد الذهب حيكت الدسائس. ظهور الذهب في أي مكان يجلب الشؤم دائماً. حتى في الصحراء. إذا لمع هذا المعدن الملعون تحت الشمس فلا بد أن تنال لعنته أحداً ما

من المجتمعين حوله. الذهب يتقمّصه أبليس، لست أنا الذي يحثك على القيام بواجبك في تثبيت أقدام العدالة ومحاسبة الآثمين..

هتف الحكمدار:

ـ عفواً. أنت تخلط بين شيئين: النظام والعدالة. مهمتي صيانة الأمن وحفظ النظام. أما العدالة فلا تدخل في إختصاصي.

ـ سبحان الله! افترضنا أن ما تقوله صحيح. إذا كانت العدالة لا تدخل في اختصاصك الرسمي فإنها تدخل في اختصاص ضميرك. أليس ضميرك حسيبك مثلنا جميعاً؟

ـ الضمير.

نهض الحكمدار. تمشى في مكتبه المستطيل.

ـ آه، يا شيخ غوما. لو كان الضمير رجلاً لقتلته!

التفت نحو الشيخ الغارق في الكرسي الجلدي المجاور لمكتب الحكمدار، يفرك يديه الخاليتين بهدوء. لثامه تهدّل وكشف عن وجنتين شاحبتين ولحية بيضاء. لحية الشيخ الآن ناصعة. واصل الحكمدار:

ـ أتذكر حكمة علي بن أبي طالب عن الفقر؟ أنا أقول ذلك عن الضمير.

ـ عبثاً تحاول أن تتملّص وتتخلّص وتدفن ضميرك. ظلّ يقظاً حيّاً برغم محاولتك. أنا على يقين..

رمقه الحكمدار بفضول. عاد وجلس إلى مكتبه. قال وهو يقترب بوجهه من عمامة الشيخ:

ـ ولهذا اخترتني دون المحافظ كي تفاوضني أثناء الأحداث الماضية. اخترت ضحيّة! المحافظ لا يصلح! ضمير المحافظ ميّت! أليس كذلك؟.

ـ نعم. المحافظ لا يصلح، وضميره ميّت. وأنا لا أريد أن أضيّع وقتي في إحياء العظام الرميم!

تابع الحكمدار التحديق في وجه الشيخ وقد رفّت على شفتيه ابتسامة.

ردد غوما دون أن يرفع رأسه:

ـ أنت حاصرتني الى الجدار وليس أمامي إلا الاعتراف. وقع اختياري عليك منذ البداية. فكرت كثيراً قبل أن ألجأ إليك وقتها. «الجوهرة» تشتعل والدنيا مقلوبة. جئت من الوادي وأردت الذهاب الى المحافظ مباشرة. ولكن الله ألهمني هناك أن ألجأ إليك وأجس النبض أولاً. إذا اصطدمت بالمحافظ منذ أول يوم فقد انقطعت شعرة معاوية. اما إذا بدأت المفاوضات في الحكمدارية فثمة أمل في مواصلة التفاوض. يجب اختيار المدخل. اتقان التفاوض بالنسبة لرجل في موقعي مهم. وتجاربي مع القبائل الأخرى ومع مقاومة الغزاة علمتني بعض الأبجديات في هذا الخصوص. وقد تكشّف لي فيما بعد أنني لم أخطىء قط في لجوئي إليك وإنما أحسنت الاختيار أيضاً. تبدّى لي من خلال الحوار والعشرة أن ضميرك الذي تعتقد أنك قبرته من زمان ما زال على قيد الحياة. ولذلك تراني أمامك الآن في شأن اختفاء مغري. أنا لا أستطيع أن أتّهم أحداً، ولكن المحافظ سيحمي موري. هذا أكيد.

قال الحكمدار دون أن تفارق الابتسامة شفتيه:

ـ أشكرك على حسن ظنّك بي. وتقديراتك بشأن وقوف المحافظ إلى جانب موري أيضاً لم تخطىء. لا أخفي عليك. قطعا شوطاً بعيداً في بناء جسور صداقة وطيدة!

ـ جسور صداقة وطيدة أم مصالح مشتركة؟

ـ وربما مصالح مشتركة. لا أؤكد ولا أجزم بالنفي!

رفع غوما رأسه فالتقت نظراتهما. قال الشيخ:

ـ ثمة شيء واحد يقلقني وأريدك أن تجيبني عليه بصراحة..

ـ وهو؟

ـ ابن الدّوس!

استفهم الحكمدار بنظرة متسائلة فواصل غوما:

- هل يمكن لولد مثل ابن الدّوس أن يشكل خطراً يدعوكم لأن تقتلوه بهذه الطريقة البشعة؟ تطلقوا عليه النّار كشاة غزال؟

في عيني غوما لمع الاستنكار.

أجاب الحكمدار بهدوء:

- قضية ابن الدّوس لا تدخل في اختصاصي. وزارة الداخلية شكّلت فرقة خاصة لمقاومة الارهاب. تخضع لوزير الداخلية في العاصمة وتنسّق مع المحافظ. الحكمدارية بريئة من قضية ابن الدّوس.

لاحظ غوما أن أصابع المحافظ ارتجفت. دسها خلف الطاولة قبل أن يقول:

- إنني أبوح لك بالأسرار كما ترى. إنني أودعك أسرار الدولة يا شيخ غوما. وما دمت قد أطلعتك على سرّ فلا بأس أن أطلعك على أسرار. التعليمات الواردة إلينا من طرابلس صارمة. نصّت التعليمات على عدم السماح للمشاغبين بمغادرة حدود فزان بعد إطلاق سراحهم. بل ان الداخلية تبحث مشروعاً يقضي بإبعاد المشاغبين من طرابلس وبرقة إلى الدواخل. إلى واحات فزّان. وما زال المشروع قائماً. لا أعرف عما إذا كانت حادثة الدّوس يمكن أن تؤثر في تنفيذ المشروع. أعتقد أنها أرجأت تنفيذ الفكرة.

- يريدون أن يحولوا الواحات إلى منفى. كما كان يفعل السلطان في العهد العثماني.

- السلطات في العاصمة تولي اهتماماً كبيراً للعصاة، وتحاول أن تعمل جاهدة كي لا تتكرر مأساة يناير وفبراير..

- ...

- .. ومع ذلك كله لا ينبغي أن نبالغ في قساوة المحافظ!

- وليس لدي مبرر واحد يجعلني أثق به أيضاً.

- يبدو أن الخصام بينكما أبدي. أرى أن تحكّم العقل يا شيخ غوما.

ـ هو الذي قطع الشعرة بوحشيته في اغتيال ولد الدّوس.

ـ التريّث ميزة الحكماء.

ـ لا أدّعي الحكمة ولا أنوي أن أثق بنواياه. مسؤوليته في اختفاء مغري لا شك فيها.

نهض الحكمدار مرة أخرى. قال:

ـ أنت راهنت على ضميري في السابق وأحسنت الظّن بي. أنا أيضاً سأكافئك. أعدك بأن أتحدث معه في أمر مغري ولن أبخل بجهد في هذا السبيل. هل هذا يرضيك؟

ـ يرضيني. إني ما زلت أراهن على ضميرك.

ابتسم الحكمدار. نهض غوما.

خرج معه الحكمدار كي يودعه. ازداد شحوب الشيخ وغارت عيناه فلم يستطع الحكمدار أن يمنع نفسه من أن يلاحظ:

ـ يجب أن تهتم بصحتك يا شيخنا. صحتك تهمّنا.

ـ أشكرك. العجز يا سي الحكمدار. ماذا بوسع المرء أن يفعل مع العمر والكبر؟ كل شيء له دواء إلا الكبر..

ـ البركة فيك يا شيخ غوما.

ـ الأرق وفقدان الشهية من أعراض العجز والشيخوخة. اللّه غالب.

أجلسه في اللاندروفر وتمنى له رحلة موفقة.

عاد إلى مكتبه. جلس وطلب قهوة. فكّر في خطة مناسبة للتفاوض مع المحافظ. المحافظ غشيم حقاً. طلبه منذ أيام واستشاره في أن يعرض مرتباً على الشيخ غوما. لم يكن يعلم أن الوالي حاول قبله أن يستعمل هذا السلاح لاتقاء «شر» الشيخ. وجود الشرفاء دائماً يشكل خطراً على السلطة. هو نفسه لم يتوقع أن يرى الوالي في «رفيقه» القديم خصماً، وأرجع اهتمامه بالشيخ الى تلك

الرفقة المزعومة في معارك الجهاد واعتقد أن تقديره لغوما نابع من الاخلاص لدوره في النضال ضد غزاة الصحراء ولكنه اكتشف مع الوقت أن الوالي يخاف غوما. فحاول بتخصيص المرتب أن «يتّقي شرّه» و«يحمي» منصبه منه كما حمى الملك عرشه بتوزيع المناصب الوزارية على وجهاء القبائل في المملكة. ويقال ان الملك فعل ذلك عملاً بنصيحة الانكليز كي يضمن الاستقرار ويحافظ على نظام الحكم.

والفتور الذي ميّز علاقتهما في الفترة التي سبقت وفاة الوالي لا يرجع الى رفض غوما لعرضه المهين فقط ولكن إلى شائعة سابقة نقلها هواة الفتن ونسّاج الدسائس تشكّك في دور الوالي في الجهاد وتطعن في اشتراكه في معركة محروقة التي لا ينفك يتباهى بها وتشكل رصيده الوحيد في الجهاد. بل أن الفضل يرجع لها في نيله منصب الوالي. وقد ادّعى هواة الفتن أنهم نقلوا هذا التشكيك عن لسان الشيخ غوما. وإذا كان هذا صحيحاً فلا شك أن الشيخ فعل ذلك متعمداً كي يرد له الاهانة التي رآها في عرض الوالي بمنحه مرتّباً شهرياً. وها هو المحافظ الآن يرتكب نفس الحماقة ويحاول أن يرشو غوما بالمرتب وهو الذي رفض أن يتلقّى هذه الهبة من يدي الوالي فكيف بالمحافظ الذي لم يرَ في تصرفاته وقراراته سوى الغرور والحماقة منذ الأيام الأولى؟ يومها استطاع - بعد محاورة طويلة - أن يمنع هذا التهوّر ويقنع المحافظ بالتراجع عن العرض.

الوالي شفع له لدى صاحب الجلالة واشترى حياته الرخيصة مقابل السكوت والطاعة. ولكن المحافظ يمضي إلى أبعد في طريق سلفه، فيتعمّد إذلاله!

نظّم الفرقة السرّية الجديدة برئاسة الداغني دون أخذ رأيه. دبّر اغتيال عياش الدّوس دون استشارته أو علمه. تآمر مع شريكه موري وخطّط لاختطاف مغري وإخفائه. فعل المحافظ كل ذلك دون أن يخطر في باله أن ثمة حكمداراً مسؤولاً عن أمن المنطقة أمام وزارة الداخلية. لقد غضّ الطّرف عن تجاوزاته الكثيرة وكان الأجدر به أن يقدّر ذلك ويطلعه على نواياه ولو من باب المجاملة. لا يجهل تورطه مع موري في تهريب الذهب إلى إيطاليا مقابل مبالغ باهظة فكيف سمح لنفسه بأن يتجاهله ويقوم بمثل هذه المغامرة الخطيرة من وراء ظهره؟

غوما على حق. الرجل متهوّر ولا يقيم وزناً لا لقانون أرضي ولا لناموس سماوي. داس على قلبه وقتل أعصابه طوال التجاوزات الماضية. ولكنه لا يستطيع أن يسكت على اختفاء مغري. لن يسمح بأن يستمر العبث ويمضي المحافظ في

استهتاره بالأمن فيرتكب جرائمه ويمسحها في وجهه كحكمدار للمنطقة. إذا فاحت الجريمة ووصلت العاصمة فلا شك أنه سيكون أول من يتحمّل المسؤولية. والشيخ خصم عنيد ولن يكون سهلاً إيقافه أو استغفاله أو إرهابه.

غوما قدّم له فرصة كي يرضي ضميره الذي رفض أن يموت. حاول أن يدفنه مع ذكرى أخيه المغدور ولكن هيهات! لم يستطعم حياته الجديدة برغم أن الوالي لم يذكّره بوساطته أبداً. غفر له الملك ورشاه بالمنصب مقابل السكوت على جريمة التخلص من أخيه.

سكت هو ولم يسكت الضمير.

آه، لو كان الضمير رجلاً!

في اليوم التالي، مع الضحّى. توجّه إلى المحافظة.

من الباب الخارجي انتصب شاب محروق البشرة برتبة نائب عريف. قفز وأدّى التحية العسكرية في خشوع. في تلك اللحظة التقى بالداغني وجهاً لوجه. نزل من الطابق الثاني، جاحظ العينين، حاسر الرأس، يرتدي بزة عسكرية رمادية. يتأبط ملفّاً سميناً أزرق اللون. لم يؤدّ التحية العسكرية. ركبه الغرور منذ اختاره المحافظ في اللجنة السرية التي تتولى مقاومة الارهاب. يتصرّف كضابط كبير برغم أن رتبته ليست سوى رئيس عرفاء كافأه بها الفرنسيس نظير مهارته في طهو الطعام. الداغني كان طباخاً قبل إنسحاب الجيش الفرنسي من واحات فزّان. وتقرّبه من المحافظ طيّر عقله فانتزع لنفسه سلطات ليس جديراً بها علاوة على ما يشكله طمعه في التسلّط والمناصب من خطر على سيادة القانون. المحافظ يدعمه ويمنحه ثقة لا يستحقها. ولولا هذا الدعم لما تجرأ وأطلق النّار على الدّوس بمثل تلك الوحشية. وها هو الآن يتجوّل طليقاً، يأمر وينهى ويمارس سلطاته الجديدة كأنه لم يأتمر بأمره في يوم من الأيام. يحجم عن أداء التحية العسكرية ويمّد له يده الملوثة بالدماء كي يصافحه مصافحة الأصدقاء.

ـ عاش من شافك يا صلّوح. الأصحاب أصبحت معارف؟ أم أني على خطأ؟

ارتبك وسحب يده. انتفض في حركة تشنجيّة وانتصب مؤدياً «استعداد».

قال بوقاحة:

- لن تراني قبل أن أخلّص «الجوهرة» من المتمردين والعصاة. عاهدت نفسي أن أطهّر الواحات من دنسهم يا سيدي الحكمدار.

ابتسم بتهكّم. قرر أن ينهي الحوار:

- هذه مهمة عسيرة. أتمنى لك التوفيق.

- وفقنا اللّه جميعاً لخدمة الوطن تحت رعاية الملك المفدّى.

تركه وصعد السلالم المؤدية الى الطابق الثاني.

بجوار الباب وقف عسكري آخر برتبة عريف. تصلّب ورفع يده بطريقة تشنجيّة. ردّ على تحيته وفتح الباب.

وراء المكتب الطويل الفخم المجاور للنافذة العريضة جلس المحافظ يتسلّى بتلميع نظارته الأنيقة. نهض وتقوس على حاشية المكتب وهو يمد له يده مصافحاً. دعاه للجلوس مشيراً للكرسي الملاصق للمكتب. كرسي جلدي أنيق ولكن مشوّه بطبقة من الغبار.

دخل حاجب عجوز نحيل الجسم فطلب المحافظ قهوة. خرج الحاجب واستمرّ المحافظ في مسح النظّارة. في النهاية سأل:

- كيف حال الأمن؟

- مستتب والحمد للّه.

ارتدى نظارته واحتج بلهجة جافة:

- بالنسبة لك دائماً مستتب. حتى لو انقلبت «الجوهرة» رأساً على عقب فالأمن بالنسبة لك مستتب.

- أنا لا أهوّل ولا أصنع من الحبة قبّة. الأمن مستمد من طبيعة الأهالي. وهم ميّالون للسكينة والسلم.

- لا وجود لهذا السلم إلاّ في رأسك.

- أنت عدواني في الأيام الأخيرة.

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ لا أريد أن أقول شيئاً. بل أريد أن أقول شيء واحد: أن تدعني أمارس مهامي بهدوء.

ـ ومن الذي يمنعك؟

ـ أنت!

ـ أنا؟

ـ ولجنتك السرية، ورئيس المتحركة، وكل من لا علاقة له بالأمن.

ـ سبحان الله.

ـ أريد أن أمارس اختصاصاتي دون تدخل من أحد. لا أريد أن أكون دمية في يد أحد.

ـ أنت تريد المستحيل. كلنا دُمى في يد أحد مَا. أنت دُمية وأنا دُمية ووزير الداخلية دُمية. كلنا دُمى. ومن لم يكن دُمية في يد العبد كان دُمية في يد الخالق. أم أنك تريد أن تنكر هذه الحقيقة؟

ـ أي حقيقة؟

ـ أننا مسيّرون. الانسان مسيّر لا مخيَّر. لا مكان لأولئك الذين لا يريدون أن يعترفوا بهذه الحقيقة بين الناس. من يرفض أن يكون دُمية عليه أن يتحمل مسؤولية نفسه ويذهب للعيش في الصحراء كما يفعل شيخك المخرّف غوما. هناك يمكنه أن يعيش حياة الذئاب، لأن الحرية مرادف طبيعي للموت!

ـ غوما أشجع منك ومنّي. يعيش حياة يقتنع بها سواء كانت حياة ذئاب أم كلاب. إنه مقتنع بها ولا يحركه أحد كدُمية!

ـ لو خيّرت لما اخترت حياته أبداً.

ـ اختيار حياة كحياته يتطلب شجاعة افتقدها أنا وتفتقدها أنت.

ـ استمر.. استمر..

ـ أتممت.

سدد له نظرة عدوانية فواصل الحكمدار:

ـ اقترح أن نوقف لعبة القط والفأر ونكشف الأوراق!

ـ هات ما عندك.

ـ الحق أني جئت بخصوص الشيخ غوما. زارني بالأمس...

ـ أعرف..

ـ أعرف أنك تعرف. رجالك في الآونة الأخيرة يترصدونني أيضاً. المهم..

التقط نفساً وأضاف:

ـ أتعرف سبب زيارته؟ ما دمت تعرف بزيارته..

قاطعه المحافظ باشمئزاز:

ـ نعم. أعرف. تصوّر إنني أعرف ذلك أيضاً.

ـ وما رأيك؟

ـ لا رأي لي. عامل من عمال شركة حفر الآثار اختفى في وادي الآجال. ماذا في ذلك؟

ـ اختفى في ظروف غامضة.

ـ هذه ليست لغة الشيخ غوما. هذه لغة رجال الأمن والقانون. هذه لغتك أنت. وجوابي عليها هو: اختفى كما اختفى الكثيرون من أهل الصحراء قبله. هاجمه الحنين أو ذهب يتفقد جماله في الصحراء أو قرر أن يصطاد الغزلان. رحل إلى الخلاء ولم يعد. مات عطشاً كما مات الآلاف قبله. أو ضاع كما ضاع الآلاف قبله. هل في هذا ما يدهش؟

ـ هذا ممكن في حالة غياب مُتّهم. الأهالي يشيرون بإصبع الإتهام إلى موري ويتهمونه بتدبير الاختطاف.

ـ وما مصلحة موري في ذلك؟

ـ لا أدري. هم يقولون انه ثرثر كثيراً عن الذهب المكتشف فأثار ذلك بلبلة بين الأهالي. البعض طالب بحصّة والبعض الآخر استنكر استنزاف ثروات الوادي. ومنهم من ينظر إلى أبعد ويرى في المحافظ شريكاً للطلياني الذي تحوم حوله شبهات قديمة مفادها أنه كان جندياً في جيش الاحتلال الايطالي. ثمة من يؤكد ذلك بالبرهان والدليل. الدوشة كبيرة كما ترى وليس من السهل إخمادها بدفن الرأس في الرمال!

حدّق فيه المحافظ بفضول، حاول أن يخفي غضبه. جاء الحاجب العجوز ووضع القهوة على الطاولة. وضع فنجان المحافظ على المكتب. فاحت رائحة القهوة. انتظر المحافظ حتى خرج الحاجب وتساءل:

ـ هل حدّثك الشيخ بكل هذا أم أن القصة من تأليفك؟!

ـ أنا لا أؤلف قصصاً. ورجالك الذين تعتمد عليهم لم يبلغوك بما يثير غضبك.

ـ حسناً. ماذا تريد مني الآن؟

ـ لا شيء. أريدك أن تسمح لي باتخاذ الاجراءات القانونية التي يمليها ضميري ووظيفتي.

ـ وما هي هذه الاجراءات التي يمليها ضميرك؟

ـ عادية جدّاً، التحقيق مع المتّهم. هذا أبسط ما نصّ عليه قانون العقوبات.

انتفض المحافظ:

ـ ماذا تقصد؟ ماذا تريد أن تفعل؟

رشف الحكمدار من قهوته قبل أن يقول بهدوء:

ـ لقد أخبرتك. سأحقق مع موري.

هبّ المحافظ واقفاً. دار حول مكتبه المستطيل، الطويل، وسيطر على انفعاله قبل أن يجلس على الكرسي المواجه للحكمدار:

ـ هل أنت جادّ؟

ـ كل الجدّية.

ـ موري خبير إيطالي. أجنبي. استعرناه من الحكومة الايطالية بعد جهد جهيد. عالم آثار ذي سمعة عالمية. إذا مسسناه ألّبت علينا الرأي العام، وقلبت على رأسنا الدنيا. ستحتج الحكومة الايطالية وسيصل الأمر الى صاحب الجلالة. صاحب الجلالة لا يريد مشاكل من أي نوع مع الحكومات الأجنبية وخاصة الحكومة الايطالية. فكيف ستكون النتيجة؟ أنت تريد أن تحفر لنا حفرة. تريد أن تدفننا ونحن أحياء. إذا مللت الحياة فألقِ بنفسك وحدك إلى التهلكة. أما أنا شخصياً فما زلت متشبثاً بالحياة. أنا لم أعِشْ بعد!

ـ أنا لا ألقي بأحد إلى التهلكة. ولكنني أريد أن أبرىء ذمتي وألجأ إلى ساحة القانون قبل أن يتفاقم الأمر ويفوت الأوان. أنت لا تعرف مزاج الأهالي. إنهم مسالمون، ميالون إلى السكينة ولكن استفزازهم قد يؤدي إلى مأساة.

ـ هل تعلّمني طبع الأهالي؟

ـ أنا لا أعلّم أحداً. ولكني حذرتك. ولن أتراجع عن اتخاذ الخطوات القانونية.

ـ ها أنت تعود إلى الجنون. يبدو أن الشيخ المخرّف قد أكل عقلك حقّاً.

ـ لم يأكل عقلي سوى ضميري. هذا واجبي.

ـ لا تنس أنني السلطة العليا هنا. أنا ممثل صاحب الجلالة في هذه البقاع.

ـ ليس فيما يخص تثبيت أقدام الأمن. سأحقق مع موري.

ـ لن تمسّه!

ـ سوف نرى.

هب واقفاً. صرخ في وحشيّة:

ـ يبدو أنك جئت كي تمتحن صبري. يبدو أنك تريد أن تعض اليد التي أطعمتك من جوع وآمنتك من خوف.

ـ اليد التي أطعمتني من جوع وآمنتني من خوف ترقد بجوار ربّها. الوالي صاحب فضل عليّ ولكنه لم يستعبدني به كما تحاول أن تفعل أنت!

ـ هل تسمّي الحيلولة دون نشوب أزمة دولية استعبادا؟

ـ العلاقات الدولية لا تهمني. أنا عبد مأمور. أقبع في الصحراء حيث أوكلت لي مهمة تنفيذ القانون. تنفيذ القانون مهم كي تسود العدالة.

ـ هل جئت توجع رأسي بالخرافات؟ وكأنك لم تشارك في قمع الطلبة وتسفح الدماء!

ـ نفذت قرار الداخلية ولم أطلق رصاصة واحدة. كما لم آمر بإطلاق النار. فرقتك السريّة هي التي أطلقت النّار فلا تحاول أن تتملّص!

ـ تريد أن تغسل يديك وتتبرّأ من الجريمة!

ـ لا يضطر لغسل اليدين إلا الذي شارك في «الوليمة». أنا لم أشارك ولم ألوث يدي! يدي نظيفة كالحليب!

صرخ المحافظ بحقد:

ـ هكذا!

نهض الحكمدار. توجه إلى الباب بخطوات واسعة. أوقفه المحافظ:

ـ لن تمسّ موري. إيّاك أن تمس موري!

صفق الحكمدار الباب خلفه. ولكن الباب انفتح وصاح المحافظ في أثره عبر الممر المعتم:

ـ لا تتحدّاني! اللّي يعقدها بيديه يحلها بأسنانه! إني أحذّرك!

لم يلتفت.

# 6 ـ حساب الدنيا
# وحساب الآخرة

لم تمضِ شهور على إطلاق سراح موري حتى اختفى أيضاً.

قبل ذلك تداخلت الأحداث في الواحات وتلاحقت. أقدم الحكمدار على اعتقال الطلياني وأودعه التوقيف. وجه له تهمة المساهمة في القضاء على مرؤوسه مغري فقام المحافظ بقبول التحدّي. اعتبر اعتقال الخبير الطلياني استفزازاً موجهاً له شخصياً فسافر إلى طرابلس وعاد من وزير الداخلية بقرار إقصاء الحكمدار من منصبه كمسؤول على أمن المنطقة، بل وإلزامه بالبقاء في بيته تحت الاقامة الجبرية.

أطلق سراح موري وعاد إلى شركته في وادي الآجال منتصراً.

بل انه لم يخفِ شماتته بأعدائه فتسكّع بين الأكواخ والحقول في جرمة مزهواً. عاد إلى طريقته القديمة في استفزاز المناوئين لمهمته من الأهالي، يشيّعهم بنظرته الخبيثة ويتلكأ في مشيته وينزع قبعته وينحني انحناءة خفيفة إلى الأمام ويلحن تحيته التقليدية. متعمداً التركيز على الحروف المتحركة: BUO-O-NA-SE-E-RA. ويكرر التحية أكثر من مرة زيادة في الاستفزاز.

لاحظ الأهالي التغيير الذي طرأ على علاقاته بآجّار. فلم يتحاشَه أو يحاول أن يتجنّب دعاباته كما تعود أن يعامله في الماضي. بل أصبح يتودد إليه ويتبادل معه الأحاديث الجانبية حتى ظن الأهالي أن البدوي غفر لخصمه القديم ولم يعد يرى فيه ذلك العدو الذي اشترك في غزو البلاد في الماضي وأباد الليبيين في معسكرات الاعتقال. الكثيرون رأوا في هذا التودد نفاقاً يستحق الادانة ولا يليق برجل تعذّب كثيراً في سبيل مبادئه مثل آجّار.

الكثيرون أصبحوا يحدجون آجّار بنظرات الاستنكار والاشمئزاز وآخرون رأوه بعيون التوجس والشك! قالوا: «لماذا لم يغفر له عندما كان موري في موقع الدفاع؟ لماذا يتودد إليه الآن بعد أن خرج النصراني منتصراً في معركته مع التحالف الثنائي: غوما والحكمدار. الرومي يتباهى بانتصاره وآجّار يحقّر نفسه. يزحف على ركبتيه كي يرضي المجرم ويغفر له عداءه القديم. هذا لا يليق برجل ذي ماضٍ مجيد مثل آجّار. هو درويش وخفيف العقل ولكن هذا لن يبرر الذّل! لن يبرر السقوط! اللهم ثبت علينا عقولنا!».

ولكن العجب لم يدم طويلاً. فاختفى موري فجأة كما اختفى مغري.

تنقلت الأقاويل وانتشرت الشائعات وكثرت الاحتمالات وعمّ القلق. توقفت الحفريات وهرع أعوان موري إلى المحافظ. تنقلوا بين الوادي والجوهرة في حركة مستمرة.

واضح أن غياب موري الغامض قد أربك عملهم وأفسد خططهم.

المحافظ اضطر أن يتنازل عن كبريائه ويرسل بمبعوث الى غوما يطلب التدخل والمساعدة في الكشف على لغز اختفاء موري. ويقال ان المحافظ حاول كثيراً أن يلطف الجوّ. وجّه الدعوة للشيخ كي يشرّف عاصمة الواحات ويقوم بزيارة «الجوهرة» ولكن غوما رفض.

في زحمة السوق التي تبلغ ذروتها مع الضحّى تقابل غوما مع آجّار. مضى زمن طويل قبل أن يلتقيا ويتباحثا في الأحداث الأخيرة التي أقلقت الأهالي وكدرت الوادي.

بادر آجّار بالسؤال عن صحته:

ـ كيف الأرق؟

ـ الحمد لله.

ـ والشهية؟.

ـ مثل شهيتك. لا أعرف من الطعام سوى الحليب. آخذ منك المثال كما ترى. انعطفا يساراً واجتازا البيوت التي يتشمّس الشيوخ والأعيان تحت جدرانها في

مثل هذا الوقت، وواصلا طريقهما نحو سوق الخضار. في الساحة تزاحم الأهالي وعلا الضجيج.

اقترح آجّار:

ـ أرى أن نسلك طريق السواني. أريدك على انفراد.

رمقه الشيخ باستفهام فقال آجّار وهو يعقد يديه خلف ظهره ويستعد لقطع مسافة طويلة:

ـ الانباء من «الجوهرة» مزعجة!

ـ تعودت على الانباء المزعجة في الآونة الأخيرة. لم أسمع سوى الانباء المزعجة منذ زمن طويل.

رمقه آجّار من تحت لثامه الرمادي الباهت. فكّر في صيغة مناسبة للخبر. في عيني غوما بدا الهدوء. الوجنتان ازدادتا بروزاً والبشرة في الوجه شحبت وذبلت أكثر من أي وقت مضى. يبدو ثابتاً في خطواته ولكن يعاني بين الحين والآخر من التعثر في مشيته حتى يكاد يسقط. ازداد ضموراً ونحافة وأقلع عن الشكوى من الأرق إلى حد أن الكثيرين رأوا في ذلك علامة على الشفاء وليس يأساً أو تعايشاً مع الدّاء!

استبطأ الشيخ أمر الانباء المزعجة فتساءل بنفس الهدوء:

ـ خير إن شاء الله.

ـ الحكمدار!

ـ ...

ـ رحمه الله وغفر له!

توقف غوما والتفت نحو آجّار. لم يرفع آجّار رأسه. قال وقد لمع في عينيه الغموض تحت شعاعات الشمس:

ـ انتحر أمس!

سحب الشيخ لثامه عن وجنتيه الغائرتين. لاحظ آجّار كيف بذل جهداً عظيماً حتى يكتم انفعاله. عقد يديه وراء ظهره أيضاً كأنه يقلد حركة آجّار.

تمتم بصوت خافت:

- إنّا لله وإنا إليه راجعون.

صمت طويلاً فعرف أنه يقرأ القرآن في سرّه. صمت أيضاً. الطريق أفضى إلى الحقل.

توغلا في الأحراش. في النهاية نطق غوما:

- الرجل النّبيل لا يتحمل الهزيمة. حدسي فيه لم يخطىء!

من قمم النخيل انطلق هديل الحمام وارتفعت حناجر بعض الفلاحين بالغناء في الحقول الشمالية. قال غوما يخاطب نفسه:

- ساهمت بنصيب وافر في هذه الجريمة. يجدر بي أن أشعر بتبكيت الضمير!

استفهم آجّار ببصره فرأى الهمّ في عيني العجوز. أحسّ نحوه بالتعاطف.

رفرفت حمامة في أحراش النخيل وطارت على ارتفاع منخفض.

سأل الشيخ:

- هل من أخبار عن مصير موري؟

آجّار لم يتوقع السؤال. استنكر:

- ولماذا تسألني عن موري؟

الطريق خرق الغابة وأفضى إلى السفوح الرملية. سكت الشيخ.

رمق رفيقه بفضول.

بعد ثلاثة أيام قام بزيارته في المساء.

وجده يطرح البرسيم في مدخل الحظيرة ويطعم المعزاة.

الحظيرة تبعد مسافة لا تزيد عن عشر خطوات من الكوخ.

فَرحَ بمجيئه. لم يحاول أن يخفي سعادته فتقافز هنا وهناك ظاناً أنه يقوم بطقوس الضيافة. أخيراً خرج من الكوخ يجرّ كليماً قديماً تآكلت أطرافه وحواشيه وبهتت ألوانه وخطوطه. افترشه بجوار الموقد ولكن الشيخ كان قد سبقه وجلس على الأرض.. هرع الى كوم الحطب المكدس بجوار الحظيرة وعاد بحزمة ألقى بها في موقد النار وتهيّأ لتحضير الشاي. قال مدارياً حماسه:

- الدنيا برد. الشتاء هذا العام لا يريد أن يخلّصنا.

لم يعلق الشيخ. أحكم لثامه حول وجنتيه الغائرتين وانهمك يحرث الأرض بأصابعه النحيلة التي تشبه أعواد الحطب. رسم خطوطاً غامضة. حاول آجّار أن يخرجه من دنياه:

- ولكننا نعرف أن الشتاء إذا أرخى قبضته فسيفعل ذلك دفعة واحدة وسيطلق اللجام للشمس كي تنتقم مرة واحدة أيضاً. لا حلول وسط في الصحراء. إمّا الصقيع القارس أو النّار الموقدة.

حدج الشيخ بنظرة خفيّة ثم واصل:

- ما يقال عن الطبيعة يقال عن الحياة الدنيا. إلى متى يا ربّي نظل نعاني من فقدان التوازن وغياب الاعتدال؟ في كل شيء حتى في حالة الجو...

ولا يعرف الشيخ متى وكيف قفز آجّار من الاعتدال إلى العدالة والظلم. قال:

- إمّا أن نصلى في نار جهنّم أو نجمد من الصقيع. هذا ليس عدلاً!

نفخ النّار فغرق في سحابة من الدخان.

رفع رأسه واستمرَّ في الشكوى:

- لا نستطيع أن نتمتع بيوم واحد من الربيع كما في بقية البقاع.

- ...

- .. كما في الحمادة الحمراء مثلاً!

ـ هناك أيضاً الربيع قصير.

ـ ولكنه موجود. يوم واحد منه يكفي. نحن قوم قنوعون. يبدو أن اللعنة لم تحقّ إلا على الصحراء الجنوبية!

نفخ في النّار مرّة أخرى. ازداد تصاعد الدخان. في النهاية انبثقت الشعلة وتأجج اللهب. رفع رأسه. في عينيه تألقت الدموع التي أثارها الدخان. قال:

ـ لا أستطيع إلا أن أحسدك. تمتعت مراراً بالربيع في سهول الحمادة الحمراء. طبيعة الأرض في «مساك» تختلف. لا ينمو الترفاس ولا تتسكع قطعان الغزلان وتتحاشاها الطيور المهاجرة. هناك يندر هطول الامطار ولا يذكر الرحل متى شمّوا رائحة الأعشاب البرية الطازجة...

دخل الكوخ وعاد بطبق صففت عليه أوانٍ يعلوها الغبار.

ـ .. وبرغم ذلك فإن يوماً في «مساك» يعادل ألفاً في هذا الوادي المزحوم بالمتاعب والمخلوقات. لم أختر «مساك» مسقطاً للرأس ولكني التفت يميناً ويساراً فوجدت نفسي هناك...

انهمك يغسل أواني الشاي في جردل الماء. تنهّد.

ـ لم يخطر ببالي أن أشكل خطراً على ذبابة ولم أتخيل أن بإمكان مخلوق أن ينالني هناك. ولكن وجد من طمع حتى في هذا الخلاء المهجور وجاءني من «مساك» كي يجرني من عنقي كالشاة ويزج بي في الحبس...

ـ ...

ـ أفهم أن تقع ضحية الظلم وأنت تسير بين الناس وتزاول نشاطك وسط البشر. أمّا أن يسقط الظلم على رأسك من السماء، في «مساك ملتّ» فهذا ظلم لا أستطيع أن أفهمه.

ـ استغفر الله.

ـ ولماذا تستغفر الله؟ أليست هذه الواقعة مدعاة للحيرة باللّه؟ ليس لدي عداوة مع أحد. هربت من الدنيا واخترت آخر نقطة. هربت حتى من «تانزوفت»

عندما أرادوا أن يحبسوني هناك أكثر من أسبوع. أمّي رأت ذلك حماقة وكذلك المرحوم الوالد ولكني لم استطع أن أطيق الابتعاد عن «مساك». حتى مقابل عروسي الحسناء. مساك قدري. وكان مقدراً على ما يبدو أن أشهد فيها ذلك الامتحان القاسي الذي لم أستطيع أن أفهم له سبباً حتى الآن. فهل الظلم قدر الشرفاء؟

ـ ربما..

ـ لماذا؟

ـ الله أعلم.

ـ الله أعلم أم أنك تتهرّب من الإجابة؟ لماذا على صاحبك الحكمدار أن يتألّم؟ لماذا كتب الله على الأبرياء أن يتعذبوا وينالوا ما زرعته أيدي الآخرين الآثمة؟ لماذا يضطر أن يطلق على صدغه رصاصة كي يفرّك المفسدون أيديهم مبتهجين بالحدث؟

ـ الحكمدار مشكلة أخرى. رهن ضميره فيما مضى وعندما حاول أن يستعيده عجز...

قاطعه آجّار. انفعاله بدأ يتصاعد:

ـ أنت لم ترَ الحزن في عيون الحيوانات التي أطلق عليها أعوان بورديللو النّار. عيونها نطقت بالدهشة يا شيخ غوما. عيونها الوديعة سألتني قبل أن تخرّ: «لماذا؟» ثم رأيت نفس السؤال العاجز، الشقي في عيني أمّي وفي عيني تازايت. أنت لم ترَ الألم في عيني تازايت وهي تقفز في النّار هرباً من الهمج الذينجاء بهم بورديللو. فأين العدالة؟ في السماء؟ في اليوم الآخر؟ لا. أنا أريد أن أرى الظالمين يحرقون بالنار أمامي هنا، في الدنيا، على مرأى ومسمع من الجميع.

نهره الشيخ:

ـ إستغفر. ماذا دهاك؟

ضرب آجّار صدره بقبضة يده وصرخ:

ـ ولماذا أستغفر؟ لأني أطالب بحقي؟ لأني أريد القصاص من معشر الظالمين؟ من الذي سيضمن لي أن يلقوا الحساب هناك؟ هل تضمن لهم العقاب أنت في اليوم الآخر؟

هتف الشيخ :

ـ أنا لا أضمن شيئاً. الضمان الوحيد أمام مثل هذه البلاوي هو الصبر!

صرخ آجّار :

ـ صبرت أكثر من ثلاثين عاماً يا شيخ غوما ولكني فشلت في أن أجبر نفسي على النسيان. معك حق. أنت لم تقيد كالكلب ولم يشدّوك إلى سيارتهم لتشاهد بعينيك المصيبة التي تنفّذ في أمك وامرأتك وأنعامك! أنت لم تعش هذا الموقف! أنت لم تتألم يا شيخ غوما!

هبَّ واقفاً. اختفى الدّم من وجهه فازدادت ملامحه شحوباً. أطرافه ترتعد ومقلتاه تتألقان بوميض الجنون. انحسر لثامه عن فمه فبدا على أطرافها الزبد :

ـ أجبني على سؤال واحد يا شيخ غوما. لا تتهرّب! هل هناك حساب في الدنيا الآخرة أم لا؟

بذل الشيخ جهداً كي يخنق الانفعال. أحكم لثامه حول وجهه كي يتخذ المزيد من التدابير. أصابع يده ترتعد أيضاً. مرت لحظات قبل أن يجيب :

ـ لا أحد يستطيع أن يجيبك على هذا السؤال. أنا لم أعلم من «هناك». لا أحد ذهب وعاد من «هناك» كي يأتيك بالخبر اليقين.

ـ إذن من حقي ألا أراهن على حساب الآخرة. من حقي أن أنال حقي بيدي.

ـ ماذا تقصد؟

ـ أقصد أني لا أريد أن أخدع مرة أخرى. إذا كان لا يوجد في العالم الآخر سوى الظلام وغياب العدالة فإن هذا حساب يشمل الطرفين: الظالم والمظلوم. وإذا كانت عدالة البشر غائبة في الدنيا فليس أمامي سوى أن أتولّى الأمر بنفسي!

احتج الشيخ :

ـ هل تريد أن تفرض عدالتك بنفسك؟

ـ ولم لا؟

ـ هذه ستكون «عدالتك» أنت وليست عدالة جميع الناس.

ـ ومن هم هؤلاء جميع الناس؟ أليسوا هم أنفسهم الذين يعيثون في الأرض فساداً؟ إن أغلب من يدبّون على وجه الأرض هم من فصيلة المفسدين.

ـ هذه زندقة. هذا مرض.

ـ نعم. هذه زندقة ولكنها ليست مرضاً. ها ـ ها ـ ها... تستطيع أن تحشرني في خانة الزنادقة. أنت نفسك اعترفت منذ قليل أنك لا تستطيع أن تضمن سيادة العدالة في اليوم الآخر! هيء ـ هيء ـ هيء.. هذا اعتراف خطير. يضعك معي في نفس الخانة. لم أعرف أن بإمكاني أن أنتزع إعترافاً كهذا من شفتي الشيخ غوما. ها ـ ها.. إسمع إذن يا شيخنا. ما خفي دائماً أعظم. سأحدثك الآن بما خفي.. هيء ـهيء..

استلقى الى الوراء وهو يكتم ضحكته الغريبة. سحب لثامه على فمه وخطا نحو الشيخ. رجله اليمنى ارتطمت بطبق الشاي فانكفأت الأواني الفارغة.

مال نحو الشيخ وقال بصوت مبحوح:

ـ إعلم إذن أني قد نفّذت عدالتي. استدرجته وطعنته في صدره بهذه المدية التباوية...

كشف عن كمّه فرأى الشيخ المدية التباوية مشدودة بسيور الجلد الى ذراعه الأيسر. لاحظ أيضاً أن جبين آجّار ينز بجبات العرق. عاود حشرجته:

ـ .. قطعته وأطعمته لألسنة اللّهب. وجلست أتفرج على أطرافه في النار حتى استحالت إلى فحم. تذكرت ما فعلته ألسنة اللهب بجسد تازايت فعزّاني المشهد وهوّن على قلبي المحروق. هيء ـ هيء هيء...

تابعه الشيخ طوال الوقت دون أن يبدو أنه فهم. ثم قفز واقفاً فجأة وهتف:

ـ ماذا تقصد؟ ماذا تريد أن تقول؟ من الذي قطّعت أطرافه وحشوته في النار؟

انفجر آجّار في ضحكة عالية. أمسك بطرف لثامه وغطى به أنفه وقال:

ـ وما الذي يفزعك يا شيخنا؟ هل في تنفيذ القصاص ما يفزع؟ ومن تعتقد يكون هذا الشقي غير موري الذي ساقته الأقدار لينال القصاص على يدي كما ساقت الأقدار بورديللو قبله كي أنال العذاب على يديه؟

ـ موري؟!

ـ نعم. موري بلحمه ودمه.

ـ أنت؟

ـ أنا!

بدأ الشيخ ينتفض. لم يبد أنه صدّق. عاد يسأل بإلحاح:

ـ أنت؟!

أجاب آجّار وقد حلّ الحزن في عينيه محل الجنون:

ـ كان يجب أن تتوقّع ذلك. لم أنتقم لنفسي فقط ولكن لمغري ولكنوز الوادي المنهوبة. انتقمت لحكمدارك أيضاً. دماء الأبرياء لا ينبغي أن تسفح هدراً!

همهم الشيخ وهو يتحرك باحثاً عن نعليه:

ـ ومن الذي فوضّك بأن تنتقم لهم؟ من الذي يؤكد لك أن موري مذنب؟ وحتى لو كان مذنباً فكيف سمحت لنفسك بأن تعاقبه بهذه الطريقة البشعة؟ ألا ترى بأنك مجرم عادي؟ ألا ترى بأن يديك ملوثتان بالدماء كأي مجرم؟ لقد ضمنت لنفسك الجحيم في الدنيا والآخرة..

ـ ومن قال لك أنني أعيش في الجنة الآن؟ إني أعيش في الجحيم منذ أكثر من ثلاثين سنة كاملة.

ـ كنت تعيش في جحيم واحد، أما الآن فقد أضفت جحيماً جديداً. خسارة يا آجّار! خسارة! لم أتصوّر أن أفجع فيك بهذه الطريقة؟ قسا عليّ القدر دائماً وانتزع مني أخلص اصدقائي واحداً واحداً. ولكن عزائي فيهم دائماً أنهم ماتوا برجولة!

ماتوا بشرف وكبرياء! والآن، في آخر عمري، أفجع في صديقي مرتين: مرة لأني فقدته، ومرة لأنه لم يمت كالآخرين برجولة! خسارة! أنا وحيد الآن حقاً.

أخذ نعليه في يده وأسرع للانصراف حافياً. تكاثف الظلام.

لاحقه آجّار في الظلمة:

ـ حجّتك لن تقنعني. طالما لا تستطيع أن تضمن لي العدالة في اليوم الآخر فإن لديّ كل المبررات كي أنتزع حقي بيدي. تستطيع أن تتهمني بالزندقة. هذا شأنك. أما تنفيذ القصاص فحقي المشروع. لا تحاول أن تقنعني بأن عملي يدخل نطاق الجريمة! هل تسمعني يا شيخ غوما؟

ولكن الشيخ لم يرد على ندائه. ابتلعته الظلمة. مشى خلفه وصاح في عناد طفولي:

ـ إنتظر! لم ننه حوارنا بعد. يجب أن نتناقش. لماذا تهرب منّي؟ لماذا تغلق في وجهي الباب؟ هل هذا عدل باللّه؟ انتظر..

أسرع في خطوه يلاحق شبح الشيخ الذي أسرع في مشيته أيضاً.

استمرت المطاردة دقائق. اضطر آجّار أن يهرول كي يدرك الشيخ.

أدركه. وقف أمامه لاهثاً. أنفاسه تتلاحق. حاول الشيخ أن يتجنّبه فاعترض آجّار طريقه قال:

ـ أنت لا تستطيع أن تتقمّص شخصاً. لا تستطيع أن تعيش داخل جسمي. لو عشتني يوماً واحداً لوجدت لي ألف عذر. حاولت أن أنسى. فلم أستطع. حاولت مخلصاً. حاولت على مدى ثلاثين سنة فلم أستطع. ما حدث لي ما زال يحرق قلبي هنا. اللّه غالب.. حاولت...

قال غوما بقسوة:

ـ أنت خالفت بفعلتك أقوى مبدأ في القرآن. لا تزر وازرة وزر أخرى. أتذكر الآية العظيمة؟ لماذا على موري أن يدفع ثمن إثم اقترفه بورديللو منذ ثلاثين عاماً؟ من أعطاك الحق؟ هل أنت الخالق الأجلّ؟.

ـ لقد اتّفقنا. تستطيع أن تتهمني بالزندقة. طالما اعترفت بشكّي في حساب اليوم الآخر فمن حقّك أن تنعتني بالزندقة. ولكن الألم هنا.

ضرب صدره بقبضة يده وأضاف:

ـ لا أحد عاش ما عشته. لا أحد جرّب أن يحتفظ بجمرة في قلبه أكثر من ثلاثين عاماً.

ـ هذا الألم هو الذي احترمناه فيك. الألم هو الذي خلق منك معلّماً بدون علم ولكنك خنقت محبتنا وإجلالنا لألمك. ها أنت تدوسه بقدميك وتلجأ إلى الجريمة. ابتعد عن طريقي باللّه! ابتعد!

دفعه بيده فترنح آجّار وأفسح له الطريق.

توارى الشيخ في الظلام.

صرخ آجّار خلفه:

ـ لا تحاول أن تخدعني يا شيخ غوما. أنت تهوّن الأمر وتستهين بالبلوى. لن ألومنك لأنك لم تعشها معي. أنا الذي حرقت الجمرة قلبي طوال ثلاثين عاماً. لا أحد يتألم نيابة عن أحد. هل تسمعني يا شيخ غوما؟

أنصت لصوت الصمت ثم صرخ بأعلى صوته:

ـ لن تقنعني بحجتّك!

خيل له أن الجبل الشرقي ردّد صدى الصرخة.

اشتد البرد.

جسمه استمرّ ينز بخيوط باردة من العرق.

# 7 ـ السّر

قال القطيعي :

ـ هذه عاقبة من يبحث بين القبور عن الثروات!

بصق التّبغ الممضوغ وأضاف :

ـ اللّعنة نزلت على كليهما . البحث عن الذهب بين رفات الموتى ليس مزحة!

جاء آجّار ووقف بعيداً . ألقى التحية فردّ عليه القطيعي . مال القطيعي نحو الشيخ وقال بصوت هامس :

ـ كنت أعرف أن الأمور ستنتهي بما انتهت إليه . رفضت تأجير السانية لموري منذ البداية لأن قلبي حدّثني لما ستسير عليه الأمور . تحدّي الجن ليس أمراً هيناً . الجنّ لم يقل كلمته بعد في هذا الوادي . وكل المصائب السابقة واللاحقة جاءتنا من تحت رأس هذا المعدن اللعين! الجنّ وحده مسؤول عن مصير موري ومغري!

أطلق آجّار ضحكة عالية . سدد له غوما نظرة استنكار ثم نهض فجأة . صاح القطيعي :

ـ ولكن الشاي على النّار يا شيخنا!

ـ لا بد أن أمرّ على السوق . تواعدت هناك لإنجاز شغل هام . سأشرب الشاي في المرة القادمة .

مشى نحو السوق وهو يترنح بين الحين والآخر. اقتفى آجّار أثره، أسرع في مشيته حتى جاوره بلهجة خفيّة:

ـ لماذا لم تقل الحقيقة للقطيعي؟ لماذا لم تخبره أني قاتل؟ أنت تسمح له بترديد التهم ضد الجنّ وهو منها بريء. الجنّ هذه المرة لم يحرك ساكناً. أنا الجنّ هذه المرة! هيّا. قل لهم الحق. قل لهم أني مجرم. ها ـ ها ـ ها.. الجريمة يرتكبها الإنس ويعلّقها في رقبة الجنّ. الإنس هو أبشع أنواع الجنّ. ألا توافقني بالله؟ ها ـ ها ـ ها...

قبل أن يشيح الشيخ بوجهه ويحصن وجنتيه بزمالته رمقه باشمئزاز، ثم انحرف نحو الجامع. خرج منذ الصباح فالتقى بالقطيعي أمام باب بيته فدعاه لتناول فنجان شاي. جلسا إلى السدّة المواجهة للشمس أمام بيته فرآهما آجّار.

مشى خلف الشيخ وهو يخرق صفوف الأهالي في طريقه الى جدار السوق. صاح خلفه:

ـ حسناً. لقد أسأت بك الظّن. أنت لا تريد أن تشي بصديقك القديم الدرويش آجّار. ولكن إسمعني. أنا أيضاً سأرد لك الجميل. سأكتشف لك السّر. انتظرني بالله. لن استطيع أن أبوح بالسّر من هذه المسافة. إذا لم تنتظرني فلن يظل السّر سرّاً. ها ـ ها ـ ها...

أسرع الشيخ في مشيته. ترنّح عدة مرات وفقد توازنه قبل أن تبتلعه زحمة البائعين داخل جدران السوق. آجّار استمرّ يقتفي أثره. هزّ بعض المتجمعين المتزاحمين رؤوسهم. قال أحد الشيوخ:

ـ الرجل تدروش تماماً. من يصدّق أن هذا هو آجّار الذي عرفناه وصلّينا وراءه يوماً ما؟ لا حول ولا قوة إلا بالله. هذه لعنة الأم!

أيده بعض الوجهاء بهزّات من رؤوسهم. ولكن آجّار لم يعرهم اهتماماً. آجّار لم يعد يعير أي اهتمام لقواعد الواحات منذ زمن بعيد. ربما منذ أن هرب من جدران الجامع وتسلل الى بيت المطلّقة التباوية. وربما قبل ذلك بكثير. ربما ساهمت شكوكه في تحطيم تقاليد مجتمع الواحات. الشكوك التي عاشها في الجامع وهو يناقش محنته مع نفسه.

مضى يترقّب غوما ويتصيّده من بعيد. ومضى الشيخ يتجنّبه ويحاول أن يتخلّص من المطاردة الطفولية ويحتمي بالزحام.

يئس آجّار من متابعته بيين الناس فانتظره خارج جدران السور. خرج غوما قبل انتصاف النّهار فهرع إليه آجّار كالطفل. انعطف الشيخ نحو الحقول فتبعه.

قال بصوت عال كي يسمع غوما:

أنا حريص أن يظل السّر سراً وأنت لا تريد أن تتحدث معي وجهاً لوجه. سأضطر أن أخاطبك بلغة الرمز حتى لا يفهم المارّة. سألجأ لأسلوب العجائز في سرد الأساطير والعاقل يفهم.

أسرع الخو حتى ضيّق من المسافة التي تفصله عن غوما وعاد يقول مقلّداً أصوات العجائز وهي تقص الخرافات للصغار في ليالي الصيف المقمرة:

- .. وجاء طائر الكندش إلى أم الضرّة وهي تنهش اللحم الذي أرسلته لها تانس. قال الكندش الثرثار: لو أعطيتني قطعة من اللحم فسوف أخبرك بسرّ لن يسرّك. فصرخت فيه الأم الجشعة: إذهب من هنا. لن أعطيك من اللحم الذي أهدته لي الأميرة تانس. فعاد الكندش الملحاح يلح: أعطني قطعة صغيرة واحدة وسوف أبوح لك بسرّ سوف تشكرينني عليه. فنهرته أم الضرّة الشريرة وطردته شر الطرد فوقف الكندش على عرف الرتمة حتى انتهت الأم النهمة من وليمتها وقال شامتاً: الآن أكشف لك عن السرّ. لقد أكلت لحم ابنتك. تانس قتلت ابنتك المتآمرة وأرسلت لك بلحمها على أنه لحم غزال. لو منحتني قطعة منه منذ البداية لبحت لك ومنعتك من التهام اللحم الحرام أيتها المجرمة. ورفرف الكندش الثرثار بجناحيه الجميلين وطار بعيداً: ها ـ ها ـ ها: أتذكر هذا المقطع يا شيخ غوما؟(*) اسمعني بالله وكف عن هذه اللعبة الطفولية. سرّك لم يعد سراً. رائحة خطتك بدأت تفوح. الآذان التي ترى وتسمع وتنقل موجودة حتى في وادي الآجال. نصيحة من صديق تحاول أن تنكره. عجّل! عجّل! هه ـ هه... أنت لن تستطيع أن تخفي عنّي أي شيء!

(*) المقطع مقتطف من أسطورة الطوارق. «تانّس واطلانطس» (راجع الرواية الأولى)

دخل غوما الأحراش متجهاً نحو حقل التبروري فتوقّف آجّار عن المطاردة. رآه الشيخ يقف في العراء يعبث الريح القبلي بثوبه البائس فأحس نحوه بشفقة مفاجئة. سمعه يصرخ:

ـ الفقهاء أجمعوا أني ملعون في الدنيا والآخرة. قاتل الأم ملعون في الدارين، فكيف تستغرب فعلتي؟ ضمنّا لعنة الدنيا أما الآخرة فسوف نرى.

تابعه في وقفته البائسة. شعر غوما انه شقي أكثر من أي يوم وندم على لجوئه إلى سانية التبروري كي يتخلّص منه. لجأ إلى سانية التبروري كي ينجو من ملاحقاته. آجّار لن يطارده الى حقل التبروري بعد ما جرى بينهما. ولكن الشيخ انحرف يساراً قبل أن يصل الكوخ ودخل الجداول المزروعة بمحصول القمح والشعير. قامة النبات على الأرض لا تزيد عن الشبر. سلك مسرباً صغيراً يعبر الجداول إلى غابة النخيل المجاورة لشاطىء الرملة من الناحية الغربية.

استلقى تحت نخلة رشيقة، كثيفة الأغصان، عالية.

عبث القبلي بقمتها فارتجفت الأوراق في حفيف غامض حزين. تحت الأغصان برزت عراجين البلح الأخضر. الثمار ما زالت في طور التكوين الأول. احتكاك الأغصان بالعراجين، مع هبوب الريح، أجهض العراجين وأسقط بعض حبات الثمار النيئة على الأرض.

السكون يجعل الريح ينطق في حفيف الأشجار. لغة الحفيف، في سكون الصحراء، ساحرة، حفيف الريح في النخيل موحٍ. بماذا يوحي؟ بماذا يلمح؟ بماذا يهمس؟ ماذا يريد أن يقول بهذه التمتمات؟ إنها لغة الأزل التي تفشي سرّ الوجود فتحجم في آخر لحظة. هبوب القبلي يؤشر إلى تراجع البرد الصحراوي ويبشّر باقتراب موسم الحرّ.

فكر الشيخ في تصريحات آجّار. استولى عليه القلق منذ استمع الى تلميحاته عن «السّر». كيف عرف هذا الماكر بـ«سرّه»؟ من الذي أخبره؟ أم أنه يتخابث ويستفزه للكشف عن خطته التي خمّنها هذا الشقي بالحدس؟

إذا فاح الأمر فلا شك أن الكثيرين غيره علموا. وإذا علم الكثيرون فلن يستثنى آهر من بينهم. وإذا علم آهر فسوف يعمل المستحيل كي يعرقل مشروعه.

سيحاول أن يحرّض الأهالي ضد الفكرة وقد يبلّغ السلطات. سيقول ان القيام بعمل كهذا حماقة ستجر الهلاك على الوادي وعلى أهل الصحراء. سيتكلّم مع النّاس بلغة الحرص وضبط النفس وتحكيم العقل. الصبر والمرونة وترجيح كفة العقل أجدى مع الحكومة. هذا رأيه من زمان. ولا ينوي أن يتراجع عن هذا الذّل حتى يتجاسر المحافظ ويدوسه بالحذاء في عقر داره!

هذا سيحدث إذا استمر الأبله في ممارسة هذه السياسة. لم يهدأ منذ سمع بنيّته في تصعيد المواجهة مع الحكومة. لم يتحدّث معه ولم يكشف عن خفاياه ولكنه راح يجتمع بالشيوخ والأعيان محذراً من الأخذ برأي غوما في الخلاف، محرضاً على التريث والتزام الهدوء.

حاول أن يسخّر ضدّه حتى المرحوم خليل قبل أن يضع الأخير حدّاً لآلامه. هذا الغشيم آهر! لم يستطع أن يرى معاناة خليل في تلك الأيام وهو الذي عاشره عشرات السنين وحشره في معارك الدنيا طالباً منه أن يتدخل ويساعده في اقناع غوما قبل أن يرتكب حماقته! هذا الأحمق! هو الأحمق ولست أنا!

ولكن كيف علم الوادي وهو الذي حرص على اختيار الشباب المبعوثين. لقد حذرهم وانتزع منهم وعود الشرف بأن يكتموا الأمر حتى عن زوجاتهم فكيف تسرّب الخبر؟ إذا لم يخمّن آجّار الأمر فإنّ السرّ تسلل من المخدع. مخدع النساء أرجوحة نسجها إبليس كي ينتزع الأسرار من صدور الرجال البلهاء. فخ أعدّه لهم. هناك يسترخون ويضعفون ويكشفون عن خطّتهم. يسهل على إبليس بعدها أن يتعامل معهم ويخرّب مشاريعهم ويقضي عليهم. الاغبياء. ليس ثمة أغبى من رجل عاشق يرقد في مخدع إمرأة لعوب!

إذا لم يتصرف فالخطّة مهدّدة. آهر سيفسد، سيخرّب، سيؤلب عليه العقلاء. إذا لم يبادر فإنه سيدق الأسفين بينه وبين الشيوخ. آهر يشعر بالغيرة وسيجاهد كي يثبت انه جدير بلقب شيخ القبيلة. وإذا نجح في إقناع عقلاء الوادي وأرهبهم بالقمع الذي ينتظرهم على يدي المحافظ فإن الجبن سيتسلل الى قلوب ضعاف النفوس فيركنون إلى اليأس ويدخلون التردد والبلبلة حتى الى نفوس الذين أبدوا استعدادهم للمقاومة والاشتراك في الحملة.

مع المساء طاف على البيوت.

تعمّد أن يزور الشيوخ في بيوتهم ليتحدّث الى العقول المدبّرة كلاً على حدة. التحدث على انفراد أجدى. في الزحام يسيطر الدهماء ويعلو صوت الباطل على صوت العقل. إثارة الموضوع في الجامع قد يمكّن منه الرعاع وضعاف النفوس. الانفراد بالأعيان ومواجهتهم بعيداً عن غوغاء الزحام أفضل طريقة للتأثير وكسب الثقة.

مع المساء هدأ القبلي وسكن الريح. حلّ الظلام فتلألأت الأضواء في الأكواخ.

بدأ مشاوراته منذ ذلك اليوم.

المشاورات والاجتماعات استمرّت عدّة أيام.

في صباح أحد هذه الأيام فاجأه آهر:

ـ أظنك تنازلت عن المشيخة طائعاً. لم يجبرك أحد على هذا الزهد.

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ لا أريد شيئاً أبداً. أنت الذي تريد. من ناحيتي أريدك أن تتركني أمارس مهامي كشيخ للقبيلة. هل في هذا ما يعيب؟

ضحك غوما حتى استلقى الى الوراء. لم يضحك بهذه الطريقة منذ زمن بعيد. حتى أن الدهشة ومضت في عيني آهر. ولكن يد الشيخ ارتجفت وهو يعتدل في جلسته ويسارع بسحب اللثام على وجنتيه الشاحبتين. قال:

ـ هل صدقت أني تنازلت عن المشيخة؟ أعلم إذن أني لم أتنازل إلاّ عما يمكن التنازل عنه. عن اللّقب، عن المنصب، عن الاسم، أما المشيخة فهي كالنّبل، لا يمكن أن يرثها خلف عن سلف، ولا تعطى أيضاً لأنها ليست برنساً أنزعه أنا فتلبسه أنت.

ـ ها أنت تكرر اتهامك لي بالطمع في الجاه والسلطة. فعلت ذلك مرّة في خلاء الجوهرة. ظننت يومها أن حالة الوجد التي تلبستك هي السبب، ولكن يبدو أن رأيك فيّ لم يتبدّل.

ـ لا تغضب. ليس في رأيي ما يهين. أردت فقط أن انبّهك إلى خطأ التفكير

بأن بإمكان لقب «شيخ القبيلة» ان يمنحك الحكمة أو القوّة. يستطيع أن يهبك احترام الرعاع وضعاف النفوس ولكن لن يعطيك تقدير العقلاء. اقترح عليك أن تقلب الآية هنا إذا أردت التوفيق في مهمتك.

ـ ماذا تقصد؟

ـ أقصد أني ما زلت عند رأيي في الخلاء. أن أودّع. وأنت تصغرني كثيراً. بكم تصغرني؟ هل تذكر؟ بعشر سنين؟ ليس أقل. أمامك مهلة كافية كي تتجنّب اخطائي. أعطيك نصيحة بلا مقابل. أنت الذي يصنع لقب «شيخ القبيلة» وليس هو الذي يصنعك. حاول ألا تنسى هذا الاقتراح إذا أردت أن تفوز بتقدير العقلاء.

فرّك يديه النحيلتين وأضاف:

ـ العقلاء هم الذين سيتولون عنك إقناع عامة الناس كي يسيروا وراءك.

قفز آهر وبدأ يستعد للخروج:

ـ هذه نصيحة سابقة لأوانها يا شيخنا. ربنا يطوّل عمرك. أنا لا أطلب الآن إلا شيئاً واحداً: توقف عن التدخل في شؤون المشيخة وأعطني الفرصة كي أمارس عملي. هل في هذا ما يعيب؟

كانا قد انتهيا من شاي الصباح. الموقد أمام الشيخ ما زال يومض بالجمر. حرّك الجمر بعود بلح في حين أعلن آهر:

ـ كف عن تحريض الأهالي ضد السلطات. هذا لن يعود على الوادي بخير. هل تريدهم أن يبيدونا؟ إذا جدّ الجدّ فكيف سنواجههم؟ كف عن استفزاز السلطات يا شيخ غوما!

مدّ يديه فوق الجمر المتوهج يتدفأ. تابع آهر وهو يعدّل من وضع عمامته فوق رأسه استعداداً للخروج. فكر غوما ان آهر ليس مطلعاً على تفاصيل خطته. الحمد لله. آجّار يتخابث. يخمّن.. يبالغ في الظنون. الحمد لله.

قال غوما بلهجة كئيبة:

ـ حاول الكثيرون أن يفعلوا ذلك في الماضي. أقصد الإبادة التي تتحدث عنها.

حاول الطليان. ولكننا صمدنا. أعتقد أنه ما زال فينا بقية من كبرياء كي نصمد في وجه المحافظ أيضاً. اللهم إلا إذا أردت أن تخنق فينا ما تبقى من هذه الكبرياء يا «شيخ القبيلة»!

ـ محاربة الغزاة غير مواجهة السلطات المحليّة. إنهم ليسوا أغراباً جاءوا من وراء البحار مثل الطليان!

هتف الشيخ:

ـ هذا يعطينا مبرراً أكبر. طبيعي أن نُقتل على أيدي الغزاة. أما أن نهان ونختطف ونقتل وتُنهب ثرواتنا وينكّل بنا من قبل أولئك الذين يدّعون أنهم منّا وإلينا فهذا أسوأ! هذا مهين! إني أحس بغصّة هنا، في الحلق!

خرج آهر من الكوخ. خرج الشيخ أيضاً. تدفقت شعاعات الشمس من وراء قمة الجبل الشرقي كفيض من ألسنة نارية.

توقفا خارج الكوخ. قال آهر:

ـ أنت تهوّل. يا ربي متى تكف عن التهويل؟

لم يعلّق الشيخ فانقّض آهر:

ـ صدّعت رأس الشيوخ. لا يجدون مفراً من تحريضاتك. اشتكوا لي، بعضهم شكّك في قواك العقلية. أنت تقسو عليهم. تطلب منهم أكثر مما يستطيعون. إنهم لم يتعودوا. مضى عليهم زمن طويل وهم يعيشون في الوادي على هذا الحال. المواجهة ليست من شيمهم. حتى الطليان قاوموهم بطريقتهم. بسلبيتهم.

التقط أنفاسه المتلاحقة قبل أن يواصل هجومه:

ـ لقد أرعبتهم!

قالها بوحشية وسكت. حاول أن يجسّ النبضّ ويرى تأثير إتهامه على الشيخ فرأى في عينيه ابتسامة غريبة. ظلاّ متواجهين لحظات. انسحب غوما أولاً. مضى باتجاه الحقول. تابعه آهر حتى توارى في دغل الدّيس.

# 8 ــ نداء الوقواق

في هدوء الغابة العميق انطلق صياح الوقواق العنيد :

- قو - قوو - قو - وو - قووو...

غناء بعيد ملحاح وغامض. غناء الوقواق يزيد صمت الغابة غموضاً وسحراً. استجابت قمم النخيل لمداعبات الريح فتحركت الأغصان في حفيف رقيق. تساقطت حبّات البلح الأخضر إثر احتكاك العراجين الكثيفة بعناقيد الثمار. موسم التمور سيكون وافراً هذا العام. هذا علامة على موسم حافل بالمصادمات والحروب في رأي العرّافين. عراجين البلح المثقلة بالثمار زاد المحاربين في العرف القديم.

غرب الشريط الأخضر امتدّ عراء الرملة الذي تغزوه التجاعيد والغضون حتى يلتحم بالسفوح. ترتفع فوق القمم الرملية المتفاوتة القامة زوبعة عابرة بين الحين والآخر فتبدو من هذه المسافة البعيدة مثل عمامات أهل الصحراء.

في الجانب الشمالي، ناحية سانية التبروري، علا صوت فلاحة تردّد موّالاً حزيناً.

صوت الفلاحة، في سكون الغابة العميق، بدا قريباً جداً.

في الغابة الآن خرس هدير السيارات وماتت صيحات الحفّارين. بعد توقّف الحفريات عاد الوادي الى رتابته وهدوئه القديم. أصبح من النادر مشاهدة أعوان موري في خنادق المدينة القديمة. ولكن أدوات الحفر ما زالت تتناثر في قاع الخنادق المحفورة وبين أشجار النخيل المطلّة على السراديب الموحشة.

هجع تحت النخلة وتابع يد الريح وهي تجدّ في رسم لوحة التموّجات على سفح الرملة. موّال الفلاحة الكئيب يبتعد ويقترب حسب موجات الريح، أما نداء الوقواق فقد حل محله هديل الحمام الرتيب.

الشيخ الآن يشعر بالحنين الى الذباب.

أحس بفراغ غامض منذ توقفت مشاكسات هذه الحشرة الطائرة. افتقد رحلاته الغامضة التي تأتي بها النّوبة.

النّوبة لم تعد منذ قتل تلك الذبابة الزرقاء المتشبثة بسقف الغرفة في فندق «الجوهرة». ما زال يرى الذبابة القتيلة مقلوبة على ظهرها تفترش جناحيها الشفافين.

مقتل الذبابة أغضب الجنّ فتوقفوا عن إرسال بعثات الذباب التي تأخذه الى المجهول. ومع توقّف الذّباب عن شن غزواته اختفى النمّل أيضاً. ولكن الشيخ خليل رحمه الله أفسد كل شيء، قبل غيابه، فأشاع في الوادي خرافة تقول ان هجمات الذّباب هي أشباح يرسلها ملك الموت للاستكشاف وتفقد ضحايا المستقبل. آجّار أخبره بالخرافة قبل غياب خليل بفترة قصيرة وقال ضاحكاً أن الرّسل يخرجون من القبور في طوابير طويلة، يتقمصون شكل الديدان. ثم يجنّحون ويطيرون في أسراب كالذّباب ليحوموا حول ضحيتهم.

بدأت هذه الأسراب تهاجمه منذ زمن بعيد فماذا تنتظر هذه المدة كلها كي تخلّصه وتأتي بالموت؟ ولكن الغيبوبة اللذيذة التي تعقب هذا الهجوم لا تشبه الموت. اللهم إلا إذا كان الموت لذيذاً وممتعاً أيضاً. من يدري ماذا ينتظرنا هناك؟ آجّار اتخذ قراره بهذا الخصوص وأعلن أن غياب الحواس والاحساس مبرر كاف كي يأخذ حقه ويقيم عدالته في الدنيا فحرق موري بالنار وهو مرتاح الضمير. يا إلهي ما أقساه وما أشقاه! عاشره طويلاً ولكن أين كان يخبىء كل هذه القسوة؟ هل يمكن للألم أن يفجّر في الإنسان مثل هذه الوحشية؟ هو يقول: «لا يستطيع أحد أن يتألم نيابة عن أحد». لا شك أن القدر أخضعه لامتحان فظيع في شبابه ولكن أين أخفى هذا الحقد طوال هذه السنوات؟ الانسان مخلوق مجهول، غامض، لا يمكن إكتشافه إلى النهاية. آجّار أكبر مثال على ذلك.

ما أشقاك يا آجّار. أين ستهرب من ضميرك يا آجّار؟ الحكمدار فشل في هذا

الامتحان وقام بمحاولة بطولية ضد المحافظ فماذا كانت النتيجة؟ هل هزم الحكمدار في معركته؟ كلا. لم يهزم. مجرد المجاهرة بالحق انتصار. الحكمدار لم يفهم ذلك واعتقد أنه هزم. فانتحر. الله يرحمه.

أما بالنسبة له فالموت رحمة. الموت رحمة لكل الذين فقدوا أصدقاءهم وبقوا يعانون العجز، يفترسهم الأرق ويترنحون في مشيهم. إذا فقدت اصدقاءك فقدت ذكرياتك. وكل من فقد ذكرياته عاش غريباً، وحيداً، بين الناس.

وها هو سرب الذباب يهجره أيضاً.

هوالآن وحيد. وحيد حقاً. اليوم الآخر مكافأة الآن حتى لو صحّ ما يقوله آجّار عن هذا العالم من غياب الإحساس والحواس.

أخرج من جيبه القوقعة. قلّبها بين يديه وتمتع بمظهرها الجميل وحواشيها المرصّعة التي أبدعت أنامل الطبيعة في تزيينها والعناية بها.

القوقعة الفريدة وجدها منذ أسابيع شمال الوادي، في الخلوة الملاصقة للرملة. وهي تختلف عن القواقع الأخرى المنتشرة في أودية الصحراء سواء من حيث الشكل أو الحجم. لاحظ جزءها العلوي المطل من تحت عشبة باهتة يومض بعناد تحت أشعة الشمس، وعندما التقطها تدفق منها الرمل. حجمها أكبر من القوقعة المتوسطة. يملأ قبضة اليد، وحواشيها محاطة بحزام مغطى بحبيبات ناصعة كالملح. كاللؤلؤ. أزاح عنها التراب فازدادت الحبيبات المدهشة في الحواشي لمعاناً وبريقاً. وضع فوهتها على أذنه وأنصت لخرير المياه وهي تتدفق في الوادي. خرير مجهول لا يختلف عن خرير الماء في أعالي الوادي، تحت الأرض، عند المنابع القريبة من «العوينات».

يروق له في رحلاته أن يقضي لياليه في تلك البقاع ويتوسد الأرض في الليل وينصت للمياه الجوفية وهي تتدفق من المنابع الخفية إلى المصبات الخفية المجهولة.

يا ترى من أين تنبع الأنهار الجوفية؟ وإلى أين تسير؟

سمع يومها نفس الضجيج الغامض في القوقعة النادرة.

ابتسم وهو يتذكر كيف فكّر مراراً بأن حياة الانسان كلها لا تعدو أن تكون

شقاً يمر بين قوقعتين: قوقعة الأم وقوقعة القبر!

تفحصها طويلاً وسلّط على حواشيها المتلألئة أشعة الشمس فعكست الشعاع وبرقت بفيض من الألق.

عاد يسمع النهر الجوفي في فتحتها قبل أن يدسّها في جيب ثوبه.

أصبح يخرجها. يتمتع بإطارها البراق. يستمع الى رقرقة الماء الجوفي كلما خلا الى نفسه وهاجمته الوحشة.

بعد خطاب آهر اضطجع الشيخ وتمتع بالإصغاء إلى شوشرة المياه الجوفية في الأحجار.

هكذا همست القوقعة الفريدة في أذنه. يومها سحره غناء الوقواق الغامض وهديل الحمام الرتيب.

الوقواق يريد أن يبوح له بسرّ. صياحه الملحاح يخبيء سرّاً. ترى ماذا يريد أن يقول الوقواق بأغنيته الغامضة؟

الشيخ غفا تحت النخلة.

لم يصدّق عندما صحا. اختلّ توازن النهار وتزحزحت الشمس نحو الغروب. لم يفز باغفاءة كهذه منذ زمان. الأرق جعله يلجأ إلى فراشه كمن يذهب الى حبل المشنقة حتى في الليل، أما في النهار فلم يعد يطمع في الفوز بالنوم منذ زمن بعيد. لا يذكر آخر مرة فاز فيها بإغفاءة ممتعة كهذه. النوم أعظم متعة في الدنيا. ولا يعلم هذه الحقيقة سوى الذين ذاقوا عذاب الأرق. أشياء كثيرة تبدو عادية، ولا يعرف المرء قيمتها إلا عندما يفقدها. لا شك أن سلطان النوم يأتي على رأسها.

من جبينه تفصدت حبات عرق. آجّار على حق. الشتاء كان قاسياً والصيف سيكون قاسياً أيضاً. قيلولة هذا النهار تشير إلى ذلك.

سكن الريح وهدأت قمم الأشجار.

عاد الوقواق يتغنى ببشارته الخفيّة:

ـ قو ـ قوو.. قو ـ قووو.. قو ـ قووو....

ترى ما هي البشارة التي يخفيها هذا الطائر المدهش في أغنيته الجميلة الملحاحة؟ سارّة أم ضارّة؟

العرافون أمهر من يقرأ لغة هذا الطائر. يفسّرون تلميحاته الغامضة كأنهم يقرأون في كتاب. وتحتل العجائز الساحرات الصف الثاني في القدرة على فك هذه الرموز. قراءة لغة الطيور مثل تعاطي السحر موهبة لم يهبها الله لكل العباد:

- قو - قوو.. قو - قوو.. قو - قووو...

لم يطل انتظار البشارة.

في اليوم التالي تزاحم الناس بحذاء الجبل الشرقي الموحش وانتشر الخبر قبل الشروق بقليل.

في تلك الليلة، بعد فرحته بإغفاءة النهار، انتقم منه الأرق وأجبره مزاج النوم المتقلب أن يسهر حتى ساعات الفجر الأولى. أغفى قليلاً مع الفجر حتى أيقظه آهر. سمعه يقرأ آية الكرسي ويقول ساخطاً:

- بلوى وراء بلوى. لم نر سوى المصائب منذ نزلنا هذا الوادي.

ثم قال لنفسه بصوت خافت كأنه يسحب احتجاجه ضد إرادة السماء:

- يا ربي اجعل العاقبة خيرا!

تناول الشيخ إناء الماء ومضمض فمه وشرب جرعتين، قال بنبرة غامضة:

- إذن نبوءة الوقواق ليست سارّة!

رمقه آهر مستفهماً فسكت. كان يقف فوق رأسه ويلحّ عليه بأن يسرع. في النهاية نهض غوما أيضاً.

انطلقا الى الجبل.

ما أدهش آهر هو أن الشيخ لم يسأله عما حدث قط. مشى بجواره صامتاً، شاحباً، واجماً، وصعدا السفح. غوما استعان بيديه في الصعود. حاول أن يساعده فأبعده بحركة قاطعة. جمهرة الأهالي تزاحمت على مساحة صغيرة فوق مرتفع

مغطى بالصخور الشرسة ملحق بالجزء السفلي من الصخرة العمودية الملساء الممتدة حتى قمة الجبل المسطحة.

من هذه الصخرة الصارمة سقط الجسد وتدحرج عبر السفح حتى تلقفته صخور الساحة الصغيرة. أسنان الصخور المتوحشة، الشرهة، نهشت الجسد فتناثرت عليها قطرات الدم وقطع صغيرة، رقيقة من الجلد. اللثام انفصل عن الرأس عند السقوط والتف حول الصخور المجاورة كثعبان خرافي. الأطراف البارزة من الجسد مغطاة بالكدمات والدماء. لا تبدو الجراح في الرأس الحاسر عنيفة باستثناء خيط الدم المنبثق من فتحة الأنف. في بعض الأجزاء تيبّس الدم مما يقطع بأن السقوط حدث في الساعات الأولى من الليل. على الجسد طنّ الذباب الأزرق وانهمك يلعق الدماء في تلك الأجزاء التي ما يزال فيها طازجاً.

انبثقت أشعة الشمس كالسهام النارية فبدا وجه آجّار الذابل النحيل بشعاً وذميماً. نظرته القاسية الموجهة الى السماء فارغة كبقية الموتى. إن تعبير الألم والتحدّي فيها واضح. هذا التعبير أدهش الشيخ كثيراً وتمنى أن يكون وحيداً الآن مع الجسد كي يتأمل هذه النظرة العجيبة.

لم يتمكن الشيخ من ارتداء عباءته عندما أيقظه آهر فافتقدها. تقدم من أحد الأعيان وطلب منه أن ينزع العباءة بحركة من يده. غطى الجسد بعناية وأبعد مجموعة من الشباب تدافعت نحو الجثة. عاد وكشف عن الرأس وتفرج على النظرة المعاندة العجيبة. أسبل له جفنيه فلاحظ آثاراً عميقة قديمة لكيٍّ بالنار في أماكن متفرقة من الرأس. صليب مرسوم بالنار في قمة الجمجمة وعدة وسمات قاسية خلف الأذنين. شاهد الشيخ الذي تبرّع بعباءته دهشة غوما فتطوع بالمعلومات:

ـ هذا كي ينسى. فعل ذلك كي ينسى.

سأل غوما في دهشة:

ـ ينسى؟ ينسى ماذا؟

هزّ العجوز منكبيه وقال باستنكار:

ـ وهل يعدم ما ينسى انسان قتل أمه بيديه وماتت زوجته أمامه محروقة

بالنار؟

ثم رفع يديه نحو الشمس وهتف:

ـ وها نحن نشاهد القصاص. لعنة الأم لا تمضي هباء!

جاءت مجموعة من الرجال يحملون محفّة مضفورة من سعف النخل، بدأوا يشيعون الجثة. واصل الشيخ اعترافه:

ـ لقد رأيته بنفسي يسلخ رأسه بالقضيب المشتعل عندما كان يقيم في الجامع. حدث هذا منذ أكثر من عشرين عاماً. قبل أن يتورط في علاقته بالمطلّقة التباوية ويهرب من رحاب الله إلى أحضان إبليس!

نهره غوما:

ـ يكفي! هل هذا وقت مناسب لقراءة المواعظ؟!

خرس الشيخ الوقور وتحرك الموكب ينزل السفح الوعر المسلَح بأحجار ذات أسنان كمخالب الوحوش.

# 9 ـ لعنة الأم

تطوّع عـدد من الرجـال الطامـعين في نيل الأجـر وغـسلوا الجسـد وكـفّنوه بالقماش الناصع ووضعوه على المحفة في الجامع.

تجمّع الأهالي لتأدية الصلاة على روح الميت. هنا فوجىء غوما بنفس الشيخ العنيد يدس أنفه في الجمهرة ويحرض الجماعة:

ـ الصلاة على المنتحر لا تجوز!

تدخل غوما:

ـ من قال؟

ـ هذه شريعة المسلمين.

ـ من قال انه انتحر؟

ـ وما عساه يفعل فوق قمة الجبل في آخر الليل؟

نشبت بينهما معركة. رفع غوما صوته:

ـ هذا شأنه هو؟ وما دخلك أنت؟ ربما كان يقضي حاجته، وربما ذهب لإنجاز شؤونه. هذا شأنه!

ـ في حياتي لم أر مخلوقاً يقضي حاجته هناك ولا سمعت بآخر ينجز أعمالاً في آخر الليل.

ـ هذا ليس مبرراً. هذا ليس دليلاً. لست ملزماً بأن تعرف ماذا يريد المرحوم في زيارته للمكان. هذا سرّ ذهب معه إلى دار الحق.

ـ كل الأهالي يعرفون ان آجّار كان سينتحر.

ثار الشيخ. وقف أمام الجمع وصرخ:

ـ من هم هؤلاء الأهالي؟ من هم هؤلاء العالمون بالغيب الذين تنبأوا بأنه سينتحر؟ إنّي أتحرق شوقاً لأن يعلنوا عن أنفسهم. تكلموا! من منكم سمح لنفسه وتجرأ وتدخل في مشيئة الخالق؟

لم ينبس أحد بكلمة. التفت غوما نحو الشيخ الحقود وصاح:

ـ لا أرى إنساً واحداً يؤيد كلامك. أنت تختلق الأكاذيب وتدّعي البهتان على الموتى. احترم الشيب في رأسك وهات الدليل على انتحاره إن كنت صادقاً؟

سكت الشيخ العنيد بوجه محتقن. تدافع الرجال لتأدية الصلاة.

الصلاة على جثمان خليل لم تثر هذه الضجة برغم أن الكل كان يعرف أن الشيخ مات منتحراً. جاءوا يومها بالجثة الى الجامع وغسّلوها وكفنوها وترددوا طويلاً قبل أن يؤدوا الصلاة. صمتوا طويلاً فأنقذهم غوما: «ماذا تنتظرون؟ الإسراع بالصلاة على الميت رحمة. ان كنتم تحجمون عن تأدية الصلاة لأن المرحوم مات منتحراً فانتم مخطئون. الشيخ مات غرقاً في البئر ولم يحترق في موقد النار». هذه الحجة أقنعتهم فهبوا يكبرون للصلاة.

أما الأمر مع آجار فاختلف. الأهالي لم يغفروا له تحديه لمشاعرهم عندما هجر الجامع ولجأ إلى المطلّقة التباوية. اعتبروا ذلك اهانة فبيّت الكثيرون له الحقد. بل ان الكثيرين أعلنوا عن هذه الكراهية عندما أوغل آجار في عناده وأقلع عن اداء الفرائض مثل الصلاة والزكاة والتضحية بالأنعام في العيد الكبير. بعضهم مضى وطعن حتى في صيامه.

ولكن العقلاء كانوا يرجعون هذا التمرد الى آلامه الماضية ويرددون: «هذه لعنة الأم. مصيبته ليست سهلة».

بعد انتهاء مراسم الدفن وجد غوما نفسه يتلقى التعازي في صديقه المرحوم.

عاد إلى الجامع ووقف في الساحة الخارجية فتقاطر عليه جمع المعزين. يصافحونه بحرارة ويتمتمون بعبارات المواساة. بعضهم يعانقه وفي عينيه تومض الدموع. الفلاحون كانوا أكثر المعزين حزناً وكآبة. يمسحون دموعهم بأطراف عماماتهم الباهتة ويسردون ذكرياتهم مع المتوفي. ذكريات عادية، أحداث يومية، ليست مميزة ولا ممتعة، ولكنها بدت في تلك اللحظة الجليلة، ساحرة وبهيجة. وقد زادها جلالاً الشعور بأن المتوفى رجل وحيد مقطوع من الخلاء طرده الألم والشر من «مساك ملّت» وألقى به في الوادي الذي عامله بقسوة. في تلك اللحظة أجمع الفلاحون ان السكّان لم يفهموا آجار فصدّوه وعاملوه بقساوة لا يستحقها. حتى التبروري أقبل وعانق الشيخ باكياً. قال وهو يمسح دموعه:

ـ رحمه الله. لم نر منه سوى الخير. اعترف لك انه كان محقاً في سوء التفاهم الذي وقع بيني وبينه. ما كان يجب أن أرهن أرضي للرومي. لم نر الخير منذ جاء هذا الطلياني الشيطان الى وادي الآجال.

عاد يعانق الشيخ ويقول:

ـ لقد فكرت يا سيدنا الشيخ أن أزوره في كوخه كي أطلب منه أن يسامحني. ولكنه سبقني ورحل إلى دار الحق. كأنه لا يريد أن يغفر. طول عمره مكابر وعنيد. الله يرحمه!

واساه الشيخ:

ـ لتصرفات الناس مبررات لا نعرفها. المسامح كريم!

تذكّر ملاحقاته في الأيام الأخيرة فأحس بالشّقاء. خالف القرآن ونهر يتيماً مسكيناً، شقياً، بائساً. قسى عليه القدر وقابله الناس بقسوة أخرى. لم يفهموا آلامه وعناده فعاملوه بخشونة لا يستحقها. فماذا فعل هو كي يخفّف عن صديقه المعذّب ويمسح دموع مأساته؟ ماذا فعل هو الذي عرفه عن قرب وشاركه الماء والملح وأطلعه على أصغر أسراره؟ كيف سمحت له نفسه أن يصدّه بهذه الخشونة وهو في قمة مأساته؟ كيف أعمته مشاغل الدنيا وألهته منازعاته مع السلطات عن رؤية عذاب آجار قبل وبعد اقترافه لجريمته؟ ولو كان «مجرماً عادياً» كما وصفه يومها هل كان يتشجّع ويكشف له عما اقترفت يداه بهذه الحرقة واللوعة؟

الآن أدرك أنه ساهم بنصيب وافر في إيذاء الفقيد فداهمه الأسى والندم وهو يتلقى تعازي المعزين.

في الصباح أيقظه آهر مرة أخرى.

قال:

ـ أحد ما عبث برفات المرحوم!

هرعا معاً نحو المقبرة. قال آهر:

ـ مجموعة من نساء القبيلة قمن بزيارة قبري المرحومين خليل وامرأته لرش الماء فوجدن القبر الأخير مفتوحاً والرفات مسجّى في كفنه خارج القبر!

لم يعلّق غوما.

المقبرة تمتد شمال معسكر موري، وتنتشر القبور في العراء، أسفل الجبل، حتى تلتحم بمقابر القدماء التي تتشبث بالسفح وتتسلق الجبل حتى القمة. وهي تختلف عن القبور الحديثة فتأخذ الوضع العمودي وتبدو على هيئة أكداس من الأحجار مما يدعم الأساطير القائلة أن قدماء الجرمنت كانوا يدفنون موتاهم وقوفاً.

وتمثل هذه المقابر مساحات شاسعة من سفوح الجبال مما يجعل الأهالي يقطعون بقسوة المعارك في الزمان القديم بين الإنس ـ أنصار الصحراء الجبلية ـ والجن ـ أنصار الصحراء الرملية الزاحفة. الأهالي يترددون على مقابر أهاليهم وأقاربهم ليسقوها بأغلى شيء في الصحراء: الماء! ولاحظ الشيخ كيف نبتت بعض الأعشاب البرية فوق بعض المقابر المحظوظة التي ثابرت القلوب المحبّة على رعايتها وريّ تربتها بالماء أما المقابر المهملة التي جف الحنان في قلوب أهل موتاها فتبدو شاحبة، كئيبة، و... وحيدة! يا ربي ما أقسى المثوى الأخير عندما يعاني العطش والإهمال!

حتى بين الموتى يوجد المحظوظون والتعساء. مدى سخاء أهل الميت في رش الماء يقرر حظ الرفات في التمتع بالرطوبة. وليس ثمة أبشع من قبر أغبر يغمره التراب في خلاء موحش مهجور!

وليس غريباً أن يقيس سكان الصحراء المحبة نحو الفقيد ليس بمدى الاهتمام به على فراش المرض أو غزارة الدموع التي تذرف عند الوفاة وانما بمدى مثابرة أهل

الفقيد على ري الضريح بالماء بعد موته.

عندما كانوا يقيمون بجوار بئر اطلانطس المجيد عرف امرأة مكابرة لم تذرف دمعة واحدة عند وفاة زوجها، وما أن أودع مثواه حتى ثابرت على سقي القبر بالماء السخي مرتين في اليوم الواحد. في الظهر وفي العشية. وحتى عندما جفت ينابيع البئر وهددت الصحراء نجعهم بالعطش واضطروا لتوزيع الماء بالقسطاس استمرت المرأة تقتسم نصيبها مع ضريح زوجها الميت.

رآها بنفسه وهي تنثر عليه بضع قطرات اقتطعتها من حصتها قبل رحيلهم بأيام قليلة.

القبور التي تتمتع بالرطوبة الآن قليلة جداً. بل لا يرى أثراً للنَدى على أي قبر باستثناء قبر الشيخ خليل وقبر زوجته لحداثة عهدهما.

ما أسرع ما ينسى الناس موتاهم! ما أسرع ما يخونون العهد بالإخلاص الأبدي ويحنثون بوعودهم تجاه أحبائهم الموتى، وإلا ماذا يكلف جردل الماء في واحة كوادي الآجال؟ وإذا عطش الموتى هنا، في الوادي، حيث أغدق الله على عباده بالمياه الوفيرة، فماذا يقال عن إخلاص أهل الصحراء لقبورهم في الفيافي المقطوعة التي أصابتها لعنة العطش الأبدي؟

اجتازا الأحجار المنصوبة على رؤوس الموتى وتجاوزا قبر خليل. في نهاية المقبرة، عند السفح، انتصب قبر آجّار. يحدّ المقبرة من الشرق. بعده تنتشر مقابر الأقدمين وتصعد الجبل في عناد. قبر آجّار يجاور حذاء الجبل ويضع الحدّ الفاصل بين المقبرتين: القديمة والجديدة.

وجدا القبر مفتوحاً. الجثة بارزة الى منتصفها والجزء الباقي مغمور داخل المثوى. الكفن يغطي أطراف الجسد ولا يكشف إلا عن الأذن اليسرى حيث تمزق القماش أو تفتق الرتق.

قال الشيخ:

ـ من يمكن أن يقترف هذا العمل البشع؟

ـ الله أعلم. لا يبدو أثر للكلاب.

ـ العبث برفات الموتى من أكبر الكبائر.

ـ ولا يبدو أثر للذئاب أيضاً. الذئاب لم تجرؤ على نزول الوادي منذ عام القحط الكبير قبل تسع سنين.

تقاطر الأهالي ووصل أول فوج من جيش الفضوليين. تزاحموا حول القبر وضيقوا الخناق حول الجثة. تقدّم آهر وحاول أن يبعدهم. قال:

ـ ابتعدوا. هذا ليس عرساً ولا وليمة. الفرجة على الجثة حرام. الكلاب عبثت بالجثة. هل في هذا ما يثير؟

في الزحمة صاح صوت وقح:

ـ هذا عقاب السماء، هذه لعنة الأم!

عنّفه آهر:

ـ ماذا تقول؟ ضرب الميت ليس من عاداتنا. ابلع لسانك. ألا تستحي؟

أجاب الصوت العنيد:

ـ ولماذا أبلع لساني؟ هاكم جواب الأرض على فعلته الشنيعة. الأرض ترفض المارقين!

اقترب غوما من الزحمة فعرف صاحب الصوت. هو نفسه الشيخ الذي تبرع بعباءته وغطى بها الجثة بالأمس.

تدخل غوما:

ـ ما هذا التخريف؟ من الذي نصبكم للإفتاء في شؤون الدنيا والآخرة؟ من الذي يجرؤ ويتّهم المرحوم بأنه أقدم على فعلته برغبته؟ ماذا ستقولون لو اختار الله أحدكم وأنزل على رأسه بلاء كالذي نزل عليه؟ ماذا ستفعلون لو كنتم مكانه؟ العنوا الشيطان وعودوا إلى بيوتكم.

تراجع بعضهم ولكن أغلبهم ظل يحوم حول المكان. جاءوا بالفؤوس وأعاد نفر من الرجال حفر القبر. أهالوا على الجثة التراب فلاحظ غوما:

ـ ألم تلاحظوا شيئاً؟

هتف آهر :

ـ نعم. الجثة. الجثة يا جماعة لم تتعفَن.

اقترب القطيعي من الشيخ وهز رأسه وهو يتمتم في وجد :

ـ سبحان الله!

رفع غوما صوته كي يسمعه أكبر عدد من الدهماء :

ـ هل رأيتم في حياتكم جثة كهذه؟ انها عطرة! انها كالمسك! لا أثر للعفونة. هذه مكافأة من السماء. الله لا يكافىء بهذه النعمة إلا الأولياء. من يجرؤ بعد هذا ويعلن للناس أن الأرض تحتج وتلفظ الجثة؟ من؟

التفت الى التجمع وبحث عن الشيخ اللعين. رآه يتهامس مع أحد الفتيان. أدهشه عناد الرجل وإصراره على تشويه سمعة المرحوم. اقترب من القطيعي الواقف الى جانب الحفارين وسأله :

ـ من هذا الشيخ الذي لا يملّ من تلطيخ سمعة الميت بالأوحال؟

التفت القطيعي الى الزحمة وأجال بصره بين الجمهرة قبل أن يصيح :

ـ آ. هذا الدرديري. يسكن في الأطراف العليا للوادي. نزل ضيفاً على صديق قديم. ألا تعرف سبب حملته على المرحوم؟

مال على الشيخ وقال بصوت مكتوم.

ـ إذا عرف السبب بطل العجب. الدرديري كان يتردد على المطلقة التباوية قبل أن يعرف آجّار الطريق الى بيتها. نشبت بينهما معركة فقامت المطلقة بطرد الدرديري عند قيامه بأول زيارة لها بعد العركة. الدرديري لم ينس للمرحوم هذه الواقعة وحمل له في قلبه الضغينة.

تمتم الشيخ :
ـ هذا طبيعي. المرأة. هذا المخلوق أصل كل بلاء!

انتهى عمل الحفارين فجاءوا بالماء. قام غوما بنفسه بدلق جردل كامل على رأس الميت. قرأوا الفاتحة وانسحبوا الى بيوتهم.

بقي في المقبرة نفر من الفتية والرجال يهيمون كالكلاب الضالة.

في الليل قرر الشيخ أن يدافع عن الضريح ويعاند الأرق في المقبرة.

هجع الأهالي وسلموا أمرهم لسلطان النوم فعمّ السكون في الوادي.

وقف غوما خارج سور الكوخ وأنصت لنباح الكلاب البعيد. أخفى البندقية تحت ثوبه الفضفاض وتوجه صوب الجبل المهيب. في الظلمة بدت قمته المقطوعة، المسطحة، أكثر غموضاً وجلالاً. تذكّر سيرة صراعه مع الرملة فأكبر فيه دفاعه عن الصحراء وأحس بفداحة الظلم الذي وقع على رأسه مقابل موقفه النبيل. الظلم قدر الشرفاء!

تفقّد القبر ووقف لحظات يصغي للسكون الخفي.

الآن خرست حتى الكلاب عن النباح ولم يعد يسمع صياح الجنادب في أحراش الغابة البعيدة. هذا الصمت ضاعف من قداسة المقبرة.

أسند رأسه الى حجر عند قدم الجبل فرقدت القبور في العتمة أمام عينيه. قبر آجار يبعد عشر خطوات أو ربما أقل.

هجم برد آخر الليل.

تدثر بالعباءة واستمر يتوسد الحجر ويراقب القبور المستسلمة لمثواها الأبدي. منذ أيام فقط كان يطارده ويلاحقه ويحاول أن يشفي غليله ويقنعه بعدالة جريمته. العذاب حرق قلبه فدفعه الى ارتكاب الاثم. ثم تململ ضميره فهرب منه ولاحقه بالمبررات. ما أشقاك يا آجار. شقيت مرتين: في الظلم الذي وقع عليك وفي الانتقام الذي ارتكبته. بالأمس أعلن احتجاجه على حساب الآخر فأين أنت الآن يا ترى؟ أنت تختفي في رحاب السماء أم في أعماق الأرض؟

لا يدري متى وقف فوق رأسه بوجهه المعذب الذابل ورأسه الحاسر الموسوم بالقضيب. قال وفي عينيه يقفز الشقاء:

ـ أنا هنا يا شيخ غوما! أنا هنا! أنا عطشان! فهلا رويتني بحليب معزاتي؟ أنا لا أشرب سوى حليب معزاتي. هات لي معزاتي. لا أريد شيئاً من الدنيا سوى معزاتي المسكينة.

انتفض الشيخ من غفوته فسمع صياح الديكة. رأى وجه المرحوم يطل من القبر بسحنة شاحبة ووجه ممتقع. تبين، من موقعه عبر ظلام الفجر، الأخاديد التي حفرها قضيب النار في رأسه. خيّل له ان الآثار الوحشية ازدادت عمقاً. زحف على ركبتيه واقترب من فوهة القبر ممسكاً بالبندقية بيده اليمنى. تفتّق الرتق في الكفن فأطل الوجه كاشفاً عن جزء كبير من الرأس. هل أغفى مدة طويلة وتمكّن الفاعل من نبش القبر؟ وإن كان الفاعل إنساً فماذا يريد أن يفعل بالجثة؟ لا يبدو أن الرأس تعرّض لأذى فما الهدف من اقتراف الخطيئة؟ أم أن هذا جواب الأرض على زندقة المرحوم كما يدّعي منافسه في حب التباوية اللعينة؟ أم أن السر في الحلم؟

زاره في المنام وطلب منه بلغة واضحة أن يأتي له بمعزاته. هذه تورية. هو يحب لغة المجاز والتورية.

في ذلك اليوم انطلق الشيخ الى كوخ المتوفي. قضى القيلولة هناك متعمداً أن يتباطأ في العودة نهاراً.

جاء بالمعزاة في آخر الليل. تسلل الى المقبرة. نحر المعزاة فوق القبر مباشرة. نثر الدم المسفوح على الضريح وأطعم اللحم لفقراء الوادي.

هدأ الجسد في مثواه وركن لرقاده الأبدي.

الشيخ هدّه التعب. ولكنه فاز بغفوة ممتعة على مدى قيلولتين متتاليتين.

# 10 ـ الحملة

أول فوج للمحاربين وصل من أبعد واحة: من غدامس!

الدنيا لم تسع فرحة غوما في ذلك اليوم.

عاد القطيعي من الواحات الجنوبية في أعالي الوادي فجاء الى الشيخ بالبشرى، قال ان القافلة لا تبعد عن جرمة كثيراً وستصل قبل حلول القيلولة.

عانقه غوما ووعده بمكافأة. طاف البيوت وطلب من النساء والصبايا أن يجهزن حناجرهن للزغاريد. ذهب الى كوخه وارتدى أفخر لباسه: زيّن عمامته البيضاء بتلك القطعة الزرقاء المستوردة من كانو. طوّق خصره النحيل بحزام الرصاص وعلّق السيف على منكبه الأيسر. أما البندقية فاتخذها عكازاً يتوكأ عليه في مشيته.

دخل الحقول. اتّفق مع الفلاحين أن يجهزوا الخراف وخبز التنور ويستعدوا لاستقبال الضيوف. لم ينس أن يتفق حتى مع قارعي الطبول وعازفي المزامير.

كان متحمّساً كالطفل.

آهر يقول ان الشيوخ عندما يعجّزون يعودون أطفالاً في تصرفاتهم أما هو فيقول أن روح الطفولة تتلبّس كل الرجال النبلاء. فأيهما أقرب إلى الحق؟ آهر يلمح دائماً وينعته بأنه طفل كبير من وراء ظهره. هو يعرف ذلك ويتعمد أن يتجاهل رأيه أيضاً.

توجّه إلى الجامع.

هناك اجتمع الشيوخ والأعيان. بينهم آهر أيضاً. استعدّ للعراك وهو يعلن الخبر. كما توقع كان آهر أول من هبّ في وجهه:

ـ ما كان ينبغي أن تنفرد بالرأي في قرار خطير كهذا. أنت لم تستشرنا.

قال متوكئاً على كعب البندقية:

ـ لأني لست على استعداد أن اقضي بقية عمري تحت رحمة المحافظ. وأنا أعرف انك ستعارض. ستحاول أن تخرّب علينا. لم يجرؤ أحد أن يركّعنا في الماضي.

ـ الماضي مضى ونحن أولاد اليوم. الحكومة منّا وإلينا ولا يجوز أن نرفع في وجهها السّلاح.

ـ لو كانت منّا وإلينا لما أطلقت النار على الفتيان الأبرياء واختطفت مغري وقتلت ولد الدّوس. والله وحده يعلم ما تبيّته ضدنا من شر. لا يا جماعة. أنا لا أريد أن أدفن رأسي في الرملة وانتظر أن يركلني عميل المحافظ بحذائه القبيح.

ـ سبحان الله، هذا يخالف الشريعة. القرآن يحذّر من إلقاء النفس إلى التهلكة.

ـ حاربنا غزاة كثيرين في الماضي فلماذا لم تسمِّ ذلك تهلكة؟

ـ الأمر يختلف. الطليان والفرنسيس شيء. والحكومة شيء آخر. منّا وإلينا.

ـ ليست منّا وليست إلينا. ليس منّا من يقف ضدّنا فما رأي الجماعة؟

سرت همهمة ودارت المشاورات الكثيفة.

ضحك غوما بصوت غريب. قال وهو يقف أمام الجمع في ظل العشيّة، يحرث الأرض بكعب البندقية:

ـ اعترف الآن أن آجّار على حق. إذا غابت عدالة السماء فلدى الانسان كل المبررات كي يتولى تغيير الأمر بنفسه. ما رأيكم، في هذا الرأي؟ هل ننتظر حتى

يداهمنا الداغني عميل المحافظ البشع ويلقي علينا الرصاص كالشياه كما فعل مع ولد الدّوس؟ هيّا. قرروا. الرجال الحقيقيون يطرقون أبوابنا. وسوف نرفع رؤوسنا شئتم أم أبيتم.

ثمّ توجّه إلى الخلاء لاستقبال المحاربين.

قال آهر وهو يتابعه:

ـ لم أكن أظن أن شيوخ القبائل سيهبون لمساعدته. هذا جنون الشيخوخة. شيخ غدامس أيضاً خرّف على ما يبدو.

في الأفق ارتفعت زوبعة الغبار وشاهد الأهالي الفرسان الزرق ذوي الطلعة المهيبة يجلسون على سروج المهاري الضامرة.

عمّ الفرح.

انطلقت زغاريد الصبايا أولاً. ثم تدافع الفنانون يدقون الطبول المعلقة على رقابهم وينفخون في المزامير المزدانة بحبات الخرز وخيوط الجلد الملوّن.

خرج الأهالي لاستقبال المقاتلين. تجمعت النساء خارج البيوت واندفع الأطفال في الخلاء. تبعهم الشيخ والأعيان والفتيان. بعد قليل تقاطر الفلاحون والفلاحات من الحقول.

شهد الوادي يومها حركة مثل يوم القيامة.

ترجّل الفارس المهيب عن جمله الأنيق وتقدّم من الشيخ غوما. الشيخ عرفه فوراً. ايدار! إنه إيدار. نفس الشاب الذي اتهمه أماستان منذ سنوات بالتهجم عليه في «زورزاتين». نفس الشاب النبيل الذي جاءه رسولاً من الفوغاس كي ينقل له خبر استشهاد صديقه العظيم أخوّاد!

فتح غوما ذراعيه وعانق إيدار بحرارة.

كان في غاية السعادة وهو يرى حوله الفرسان والمهاري والبنادق المنصوبة. الآن عرف كم كان ظمآناً لمثل هذا اليوم. الآن عرف مدى حنينه الى رفقة البنادق والفرسان والمهاري. الآن عرف سبب الأرق.

الاسترخاء في الواحات أشرس مرض. أكبر عدو لمن تعوّد على التنقل والرحيل في الخلاء الأبدي: حراً، طليقاً، مثل الغزلان البرية.

حيويته في ذلك اليوم ادهشت كل الأهالي.

قدّم له إيدّار عنان مهري أبلق مزدان بسرج أنيق. قال:

ـ هذه هدية شيخنا همّه. عربون الصداقة بين قبيلتينا. وصلته أنباء مزعجة عن تدهور صحتك ولكنه يبعث لك بتحياته ويقول لك أنه ليس قلقاً عليك ما دمت قادراً على مواصلة تقليدك القديم في الدفاع عن الصحراء.

ضحك إيدار ودار الشيخ حول الجمل الأرقط. قال دون أن يكتم سعادته بالهدية:

ـ هذه أجمل هدية. هذا مهري نادر. هذه فصيلة انقرضت منذ زمن بعيد في كل الصحراء. هذه هدية نفيسة حقاً. لا أصدق أن يأتي يوم أجلس فيه على مهري كهذا وسرج كهذا. هذه معجزة! أنا سعيد!

ضحك وهو يصافح جمع المقاتلين الذين ترجّلوا وبدأوا يصافحونه صامتين. وصل شباب القبيلة أيضاً واستلموا أعنة الجمال التي تحمل سروجاً فارغة. الشيخ همّه حرص أن يزودهم بقافلة من المهاري المجهزة كي يسدّ حاجة أبناء القبيلة تنفيذاً لطلب الشيخ غوما فأرسل قافلة كاملة من الجمال.

اقترب نافخو المزامير والطبالون وسمعت أصداء الزغاريد.

جموع المستقبلين بدأت تصل أولاً بأول.

قال الشيخ معلقاً على وصية همّه:

ـ ترهلنا وأكلنا الاسترخاء في الواحات. ولكن هذا المرض لا يمنعنا من القيام بالواجب. أنا لا أنوي أن أحني هامتي في آخر عمري. هذا كل ما هنالك!

ـ لا سمح الله. وما الذي يدعوك إلى ذلك؟

ـ حياة الاسترخاء جعلت روح الكثيرين تصدأ وتترهّل. ثمة من يدعو لمهادنة المحافظ.

ـ من الفلاحين؟

ـ يا ريت! موقف الفلاحين أشجع من موقف شيخ القبيلة.

ـ الشيخ آهر؟!

ـ هل تتصور ان يتهمني بالتهور ودعوة الناس للإلقاء بأنفسهم الى التهلكة؟ إنه يتحجج بالقرآن ويؤلب القوم ضدّي.

ـ يضربكم المحافظ بالرصاص ويختطف أبناءكم وتسكتون؟

اختتم بخيبة:

ـ هذا ما يسعى إليه كما يبدو. آهر يريد أن يعيش في سلام حتى لو دفع المهانة مقابل هذا السلام. أرأيت كيف تأكلنا حياة الاسترخاء؟

ثم التفت إلى المهري الأبلق وهتف بسعادة:

ـ ولكن هذا جمل نادر حقاً. من يملك مهرياً كهذا يحق له أن يصوم شهراً عن الطعام. هذه تحفة وليس جملاً!

قال إيدار:

ـ الشيخ همّه يفاخر بهديتك للمرحوم اخوّاد ويعتبرها هدية للقبيلة كلها. يعلقها في أبرز مكان في بيته ويقدمها فرجة للزوار وكبار الضيوف. تلك تحفة نادرة حقاً. اتذكر البندقية الفضية ذات الكعب الذهبي؟

ـ طبعاً أذكر. تلك رمز لتخليد حرب غات. رحم الله أخوّاد. لولاه لسحقنا الفرنسيس في تلك الهوّة التي تشبه الهاوية.

الآن الشيخ استنصر بالمقاتلين ولم يعد يخشى على خطته من آهر. لن يستطيع آهر بعد الآن أن يخنق خطته. ان يخرب نيته. لقد سكت وصبر وتريّث فأنقذ الخطة. ولكن ما معنى تلميح المرحوم آجّار؟ هل أدرك سرّه بالحدس أم أن أحد الرسل همس له بالأمر؟

بعد أيام تدفق الدعم من الواحات الأخرى وأقبلت الامدادات من غات

وجانت والعوينات ومرزق. تزاحم الوادي بالرجال والمهاري وفاض بالضجيج والفوضى.

نحرت الذبائح وأغارت على الأنوف رائحة الولائم.

في الأماسي قرعت الطبول وعلا صوت الموسيقى وارتفعت حناجر النساء بالغناء.

استمرت الأفراح والحفلات حتى اكتمل الموكب فحددت ساعة الانطلاق عند الفجر.

توقف الغناء وخيّم الصمت الكئيب.

انطلقت القافلة الطويلة تتقدمها المهاري المسرجة. في المؤخرة سار الفلاحون بعضهم يركب الحمير ويتسلح بالفؤوس والمعاول والمناجل والمدى التباوية الفظيعة. والبعض الآخر سار في آخر المؤخرة راجلاً. بل ان ثمة نفراً منهم لم يجدوا حرجاً في أن يسيروا خلف القافلة حفاة الأقدام مسلحين بالهراوات.

لم يجد آهر مفراً من مرافقتهم. أما التبروري فكان أول من تطوع في الحملة بين الفلاحين.

تدفق الوادي بسيل الرجال وشيعتهم النسوة بزغاريد حادة.

بعض الفلاحات سرن وراء الموكب المهيب مسافة طويلة وهن يرفعن أصواتهن بمواويل الفجيعة.

# 11 ـ القوقعة

في مساء ذلك اليوم عسكروا باكراً رحمة بالراجلين والحفاة. انطفأت الشمس واختفى القرص الملتهب الذي بشّر منذ الآن بصيف مبكر هذا العام.

انحازوا الى جانب الجبل. التزموا الطرف الصلب طوال المسيرة رأفة بالحمير من رخاوة الرملة. وما أن ركنوا الى الراحة في السهل حتى استعادت الجمال زادها المخزون وباشرت تجتّر بمهل وتتلهّى بالمضغ الكسول. في الطرف الغربي من الوادي بدت أحراش النخيل وهي تلتف حول نفسها وتتآزر تشفعاً من تهديد الرملة واتحاداً في وجه العدو المغير.

دوائر النخيل غرقت الآن في العتمة.

بعد قليل برز وجه قمر كئيب وكسول. القمر دائماً يبدو كئيباً وكسولاً عند الشروق. متعكر المزاج مثل نائم صحا من سبات طويل. فرح به المحاربون وخرجوا يتجولون في العراء في مجموعات صغيرة، يتبادلون الذكريات ويرددون القصص. فترتفع حناجرهم، بين الحين والآخر، بقهقهات عالية. لم تروعهم سحنته المتعبة. وربما لم يلحظوا هذا العبوس.

قال الشيخ:

ـ لم تحدثني عن أحوالكم هناك. عهدي بغدامس انها تمتاز بهدوء تحسده عليها بقية الواحات. الموقع هو الذي ضمن لها هذا الامان دائماً.

أجاب ايدار على مهل:

ـ هكذا يقال. هي بعيدة عن العاصمة. مهملة ومنسية. والبعد عن العاصمة هنا ميزة. وإذا لم يصلنا خير المدن ورضينا بالإهمال فإننا سنتقي شرَها أيضاً. هكذا يقول الشيخ همّه.

ـ هذا حق. خير المدن دائماً يتعقبه الشرّ، بل يخفي الشر في جوفه. شاء الفاعلون أم أبوا. عن حسن نية أم عن سوئها. بل كثيراً ما يقلبون على رأسك مصيبة وهم يقدّمون لك ما يرون أنه خير. خبز المدن دائماً مسموم!

ـ يا حفيظ!

ـ الشيخ همّه على حق. إذا أردت أن تتّقي شرّ المدن فهاجر إلى أبعد بقعة في صحراء الله الواسعة. ليس من السهل أن تصل الى هذه القناعة إذا لم يسبق لك أن تذوقت طعم هذا الخبز المرّ. يلقون لك بعظمة كالتي ترمى للكلاب الجائعة فإذا التقطتها انطلت عليك الحيلة ووقعت في فخ العبودية الأبدية.

ـ يا حفيظ!

ـ إياكم من عطايا المدن! هداياها بهيّة ولكن سمّها الزعاف لا دواء له!

ابتعدا عن المعسكر ولكن صيحات المتطوعين استمرت تسمع نائية. صمت غوما وأنصت لصوت ارتطام نعليه بالأرض. صمت رفيقه أيضاً. إيدار يبدو في ضوء القمر الشاحب، بلباسه الأزرق الفخيم، وبندقيته المشيعة على منكبه الأيمن، مثل شبح مهيب. غوما يكن له احتراماً خاصّاً منذ حرب غات ويرى فيه وريثاً نجيباً لمشيخة الفوغاس. ولعله ورث هذا الاحترام للشاب النبيل من صديقه العظيم المرحوم أخوّاد.

ولهذا لم يجد حرجاً في أن يتريث إزاء اتهام أماستان المغامر له بالاعتداء عليه. ميل الشاب لمرافقة الشيوخ ومخالطة العقلاء زاده في عين الشيخ إكباراً.

عاد الشيخ إلى الموضوع:

ـ إذا أردت ألا تحني هامتك إلى أحد فلا تتلقى هدايا من أحد. تحمّل المسؤولية بنفسك واجبر روحك كي تتولّى الأمر. مت عطشاً أو جوعاً، قاوم السيول أو صدّ الرياح. اقتل الأفعى قبل أن تتمكن منك، وتحمّل العبء وحيداً.

هذا عربون الحرية الوحيد .

ـ هذا يجعلك قاب قوسين من الموت دائماً.

ـ الحرية دائماً مرادف للموت. بل هذا يعطي لحياتك، لكل لحظة من حياتك، مذاقاً تحسد عليه. لو كنّا خالدين فيها أبداً لفقدت الحياة معناها وطعمها الشهي. ولكن شبح الموت المخيف هو الذي يعطيها معنى ويجعلنا نعيشها ونتمتع باللحظة الواحدة كأنفس هبة من الله.

ـ ولكن الحرية تقرّب الأجل وتقصّر من عمر الحياة.

ـ من قال هذه الخرافة؟ بالعكس. تطيل من عمر الحياة. ما دامت تطيل من عمر اللحظة وتجعل لها قيمة فإنها تزيد العمر الى الضعف على الأقل. تقصرها في نظر الهلوعين الوجلين الذين يرتجفون خوفاً من أن يفقدوا ما كسبوه من أوهام الدنيا. أما الأحرار الذين فضّلوا أن ينجوا بجلودهم في الصحراء فإن لحظة واحدة تكفيهم. الحرية تمدّ من عمر الحياة. صدّقني!

ـ هذا صعب. صعب يا سيدنا الشيخ.

ـ كنت أيضاً أحتج في شبابي على هذا المصير البائس: الموت. ولكني توصلت بعد كفاح طويل الى هدنة مع نفسي عزّتني قليلاً تقول: إذا لم تفسح الطريق لغيرك لما أفسحه لك الآخرون من قبل. لو لم تذهب من هذا العالم لما جئت إليه أصلاً. وطالما كان المجيء إلى الحياة مشروط بالخروج منها فإن الاحتجاج هنا طمع وجشع ومخالفة للشروط الربانية. ما رأيك في هذا؟

ـ ما زلت غشيماً كي أفهم هذه القواعد القاسية يا شيخنا. لا تنسَ أن تجربتي يافعة.

ـ ولكنك رافقت أخوّاد الحكيم. صدر أخوّاد مخبأ لأنفس الأسرار.

ضحك بحزن وتمتم: «الله يرحمه» ثم واصل:

ـ أنا أيضاً مررت بهذه المرحلة. كنت غرّاً وغبيّاً. لم تسعني الأرض ولم أجد لنفسي مكاناً. عاشرت النساء. هاجرت إلى النواحي الأربع. قطعت الصحراء وسكنت الواحات. قرأت الكتب والقرآن وتعلمت الوجد في دوائر الفرق الصوفية.

وكلما تململت أكثر كلما ازددت ضياعاً وبعداً عن نفسي. كنت أظن أني أبحث عن نفسي واكتشفت مع الوقت أني أهرب منها. يجب على الانسان أن يثبت قليلاً ويلزم الأرض إذا أراد أن يعرف نفسه. أليس الانسان أغبى مخلوق؟ إنه يجري طول عمره كي يصلح الآخرين بدل أن يلتفت الى روحه ويصلح نفسه. وإلا هل يستطيع في نظرك أن يصلح الناس من لم يعرف نفسه ناهيك عن إصلاحها؟

ـ حاشا وكلاّ. لن يستطيع.

ـ هذا يريك كم الانسان جسور ومكابر!

سحب نفساً عميقاً وأضاف بعد لحظة:

ـ ولكن دعنا نعود الى حياة الصحراء المطلة على الموت دائماً. كل شيء يهون إذا اتّفقنا أن الحياة التي يتهددها الموت هي التي لها طعم وجديرة بأن تعاش. أم أن لك رأياً آخر؟

ـ لن يستطيع كل الناس أن يسيروا وراءك حتى لو اقتنعوا بهذا الرأي. هذا مصير قاسٍ يا شيخنا.

ـ وهل الحرية رخيصة إلى حد أن تنالها وأنت تهجع فوق الكليم الفاخر وتتلقى الهبات والعطايا من حكام المدن؟ الويل لمن لم يسر في هذا الطريق منذ البداية لأن علاج الداء سيكون صعباً عندما يستأصل المرض في الجسد ذي الأعضاء المسترخية.

صمت لحظات ثم التفت نحو إيدار فجأة:

ـ يجب أن تجد لي العذر إذا أثقلت عليك بثرثرتي. والسبب أني لم أجد مع من أتصارح منذ زمان بعيد. منذ هجرنا الصحراء تقريبا.

أسرع الشاب النبيل يبرر ويتقبل الاعتذار:

ـ حاشا اللّه. هذا شرف لي أن أسمع الحكمة من فمك يا شيخنا. أنا ممتن لأنك اخترتني. شيوخنا عودونا أن يكتموا خبرتهم عن الفتية. ربما لأنهم يخشون أن يفشوا السرّ..

قاطعه غوما :

ـ بل لأنهم يخشون أن يستهينوا بالتجربة ويسفّهوا الخبرة. تسفيه الآلام رذيلة الفتية الطائشين دائماً. ونحن كثيراً ما نجد لهم العذر مع ذلك. إذ لا يجب أن ننتظر ممّن لم يعبر الحمادة الحمراء أن يقدّر العطش ويعرف قيمة قطرة الماء!

ـ ...

ـ ظروف كثيرة أجبرتني على الصمت. المرحوم خليل صموت بطبعه وقد زاده المرض فتقوقع داخل نفسه أكثر من ذي قبل وبقيت أتصارع أنا وآهر حتى تحالف ضدّي مع الشيخوخة في السنوات الأخيرة فغلبني، وطعن في قواي العقلية، وأشاع ذلك في كل الدنيا.

ـ لا أحد يصدّق ذلك. ولو شك أحد في قواك العقلية لما استجابت القبائل والواحات وهبّت لتلبي نداءك. الدليل أمامك.

ـ الدليل أمام آهر وليس أمامي. تنازلت له عن مشيخة القبيلة فاعتقد أن اللّقب المهيب سينزل عليه الوحي من السماء ويعطيه الحكمة المفقودة.

ـ هيهات!

ـ نسي أن الدبارة لا توهب مع المنصب.

زفر متأففاً واختتم خطابه:

ـ ماذا أقول لك؟ إنه غشيم. طول عمره غشيم.

لم يعلّق إيدار.

عادت النسمة الساخنة تهب من الشرق. من السهل انبعثت أصوات المحاربين. عمّ الصمت. عاد الشيخ:

ـ لا أنكر أن القدر رحمني ببعض الأصدقاء خلال السنوات الأخيرة. العرّاف مهمدو في آدرار الفانية. آجّار في الوادي. ولكن الله اختطفهم وتركني وحيدا وغريبا وعاجزا. إذا غاب أقرانك والأصدقاء من جيلك تغربت رغم أنفك... وأصبح من حق الدهماء أن يصفوك بالتخريف وخفة العقل أو بأي تهمة أخرى.

فكيف لا تفكر في الدنيا الآخرة بالله عليك؟ في هذه الحالة ترى أن في الموت يكمن الخلاص.

ـ أستغفر الله. ربنا يطوّل عمرك يا شيخنا. لست جديراً بأن أعزيك ولكن الاندفاع نحو اليوم الآخر ليس من شيم العقلاء وإنما هو من وساوس إبليس الرجيم عليه لعنة الله.

ـ هذا صحيح بالنسبة لمن ينوي أن يأتي بالكبائر ويفعلها في نفسه كما فعل المرحومان خليل وآجّار. وأنا لا أحدثك عن الغياب لأني أنوي الهروب من الحياة الدنيا ولكن لمجرد الشكوى من العزلة التي تتضاعف عندما يحيط بك من لا يفهمك مثل آهر.

ـ كان الله في عونك. الأمل ضعيف في أن يفهمك مرة من لم يفهمك في عشرة دامت عشرات السنين.

بعدها ساد بينهما صمت طويل. انحرفا يساراً في مسيرتهما الصامتة كي يعودا الى المعسكر من جهة الشمال. في الخلاء البعيد تلامعت أضواء النيران.

ارتفع القمر الشاحب وسكب الأضواء الفضية على الصحراء الساكنة.

هبت النسمة الشرقية الحارة فتكلّم غوما:

ـ أرجو أن تكونوا قد تزودتم بالماء الكافي. تجاوزنا آخر بئر والليل يعد بالقبلي.

توقع إيدار أن يتحدث الشيخ عن خطته في المعركة المتوقعة وفوجىء بالسؤال عن الماء. تولّى رجال آهر أمر التموين والماء ولا يدري عمّا إذا كانوا قد تزوّدوا بالكمية الكافية أم لا. لم يشرف بنفسه على الزاد فاعترف بخطئه ووبّخ نفسه على ذلك.

أنقذه الشيخ عندما استمرّ:

ـ على المقاتل في الصحراء أن يفكّر، قبل الالتحاق بركب الغزاة، بسلاح أهم من البارود هو الماء!

عبث بلثامه وأضاف:

ـ مهما تزودت من الماء فهو قليل في صحراء الله الواسعة.

ـ الحق أني أجهل طبيعة واحاتكم. قيل لي أن العيون في كل مكان.

قال الشيخ بنبرة مرحة:

ـ لا نشكو من نقص الماء حتى الآن والحمد لله. ولكن عيوننا لن تصمد في المقارنة بنبع «عين الفرس». قل لي بالله: هل يستمر تدفق ماؤها الحلو المدرار؟

ـ ما زالت والحمد لله.

ـ كل الصحراء تحسدكم على هذه النعمة.

ـ وهل يحسد أهل الصحراء في نعمة غير الماء؟

ـ وهم محقون في ذلك. أسألنا نحن الذين ابتلينا بجفاف بئرنا أطلانطس. ما زلنا نعاني من الهجرة بين الواحات ونقاسي أمراض الاستقرار. الماء خير كبير.

ـ ربنا يعوّض. ندرة الماء قدر الصحراء. إنه يتراجع يوماً عن يوم. مستواه نزل حتى في «عين الفرس». لا أخفي عليك.

ـ والسماء تستمر في الامتناع عن در الأمطار. يساعدها في ذلك العرّافون الأشقياء ونذور بعض الفلاحين الخائفين من أن تجرف السيول مزروعاتهم. الوادي لم يفض بالسيول منذ عشرات السنين.

كرر إيدار:

ـ العطش قدر الصحراء. لعنة الجفاف التي كتبت على جبين الصحراء منذ آلاف السنين هي التي تستمر اليوم. ربنا يستر.

عادا من دورتهما باتجاه المعسكر. السكون العميق تتخلله أصوات المحاربين البعيدة. أصواتهم الآن بدت للشيخ غامضة، خفية، كتمتمة الريح في قمم النخيل. لا. ليس كتمتمات الريح. بل تشبه محاورات الجن في جبل أكاكوس. يروق للجن الصياح بهذه الأصوات المبهمة في مغارات أكاكوس في الليالي التي يكتمل فيها

البدر.

توقف فجأة.

سمع الطنين الذي افتقده منذ شهور.

هاجمه السرب تقوده نفس الذبابة الزرقاء التي قتلها في فندق الجوهرة.

هل هذا معقول؟ من رأى ذباباً يطير في الليل، تحت ضوء القمر؟ إذن هي وهم؟

هل ان رحلاته السابقة الى الغيب من قبيل الوهم؟ إذا كانت وهماً فالمرحوم خليل على حق. هي رسول القبور جاءت تلبي نداء المجهول. أم أنها من تدبير الجن؟ أم هي رحمة من الملائكة اختارته من بين الأحياء؟ بدأ يرتجف. اقتعد الأرض.

تقدّم منه إيدار ووضع يده على جبينه. الجبين ملتهب. درجة الحرارة عالية جداً. وقف لحظات وقد احتار فيما يفعل. أسرع الى المعسكر راكضاً وعاد بالرجال. كان الشيخ يتكوم في الخلاء، بلحافه الأزرق، فيبدو كشبح في فيض الأنوار الفضية. حملوه في عباءة إلى المعسكر. التفوا حوله وحضّروا الأعشاب البرية. سهروا فوق رأسه حتى اقترب الفجر. تراجعت الحمّى وشعر المريض بتحسن. تحسس إيدار جبينه وأعقبه آهر. قال آهر:

ـ يجدر بك أن تنام قليلاً. لقد أغفى.

أغفى الشيخ آهر متكئاً على ذراعه ولكن إيدار زوّد النار بأعواد الحطب وأصغى لتنفس غوما المنتظم. وجهه تحت وميض النار ازداد شحوباً وذبولاً ونحافة. خيّل له أن عظمتي الوجنتين برزتا أكثر من ذي قبل. ملامحه ـ التي انحسر عنها اللثام ـ وديعة الآن وتنافس وجوه الأطفال في سكونها وبراءتها. سهر إيدار حتى انبثقت بهرة الفجر.

لم يتحرّك نسيم القبلي ولكن الصباح خانق منذ ساعاته الأولى.

دبت الحركة في المعسكر.

فتح الشيخ عينيه ولكنه ظل ساكناً لحظات، ممدداً على الرمل. لثامه مبلل بالعرق وأطرافه واهنة. اكتشف وجود إيدار فرفع رأسه واتكأ مستعيناً بمرفقه. قال معتذراً:

ـ أرجو المعذرة. يبدو أني فزت بغفوة. بل بنومة طويلة.

إيدار تربع في مواجهة النار الخابية يصنع الشاي. عيناه حمراوان ولكن ملامحه لا تدل على التعب برغم السهر. ابتسم. قال مهنئاً:

ـ الحمد لله على السلامة. الحمّى كانت قاسية. هل تألمت كثيراً؟

تجاهل الشيخ سؤاله:

ـ الحمّى نعمة طالما قهرت الأرق ووهبتني النوم. إني أشعر بحيوية.

وكي يقدّم الدليل جلس وانهمك يصلح من وضع العمامة على رأسه.

جاء الشيخ آهر. قال دون أن يلقي بالتحية:

ـ أرى أن الشيخ في حال أفضل. هذا لا يمنع من أن نتريث ونرجىء السفر.

تبادل غوما مع إيدار نظرة خاطفة. قال الشيخ يخاطب إيدار:

ـ الشيخ آهر لا يدع فرصة إلا ويدعونا إلى التريث والاحتكام الى المرونة. هل تدري يا إيدّار أنه يتغنى بالمرونة والعودة إلى العقل ليل نهار؟ من يسمعه وهو يروّج لدعوته يجزم أن لا خلاص إلا في المرونة.

تذوّق إيدار الشاي كي يختبر نسبة السكر. لاحظ غوما ابتسامة في عينيه وهو يقول:

ـ هذا يعتمد على معدن الطرف المقابل. إذا كان نبيلاً حكيماً أعطاك قدرك وإذا كان وضيعاً سفيهاً اعتبرها ضعفاً من جانبك فيتمادى ويسقيك المرّ!

فرح غوما بمساندة إيدار فقرر أن يمضي في استفزاز آهر:

ـ أحسنت يا إيدار. ألا يعيبك أن تسمع الحكمة من أبنائك الشباب يا آهر؟ لو كنت مكانك لبلعتني الأرض. ها ـ ها.. إذن إسمع يا إيدار: معدن الطرف الآخر

من صنف السفهاء. منحته فرصا كثيرة ولكنه اضطرني ان أعاديه. واضح أنه لم يرث من الوالي سوى المنصب ولو لم يكن سفيهاً طائشاً لما حاصر الحكمدار الى الحائط فاضطر الأخير أن يفعل بنفسه ما فعل. فكيف أهادن مخلوقاً مثله بالله؟

التقط أنفاسه وواصل شن هجومه على آهر:

- هل يجرؤ آهر بعد هذا أن يدعو الى المرونة وينتهز فرصة مرضي كي يعاود حيلته ويروّج للتريث؟ هه؟

قالها بحماس وبذلك الأسلوب السافر الذي يتقنه. أسلوب لا يعرف معه المتلقي عمّا إذا كان الشيخ جاداً أم هازلاً.

حيوية الشيخ أدهشت آهر أيضاً. هل يعقل أن يكون هو نفسه غوما الذي طهته نار الحمّى البارحة حتى شكّ في أن يتماثل للشفاء في الوقت القريب؟ جسده احترق باللهيب. لم يلامس جسداً بهذه الحرارة. تحسسه بباطن يده فطبعت راحة الكف بحرارة كحريق الجمرة وظلت تحتفظ بالحرارة مدة طويلة. مزاجه المتقلّب يميل الى الاستفزاز الذي يصرّ أن يسميه «مزاحاً» و«دعابات». فماذا في جعبته يا ترى؟

قفز العجوز ونهض واقفاً. تعثّر في مشيته وهو يسرع نحو المهاري الجاثمة. وكي يقدّم الدليل على عافيته وحيويته حاول أن يحمل السّرج بين يديه ليضعه على ظهر المهري. اضطر أن يجرّه لاهثاً. من جبينه تفصّد العرق. طرف اللثام العلوي مبلول. سدد آهر نحو إيدار نظرة عتاب فاضطر الشاب أن يخفي ضيقه بخلط الدور الأول من الشاي.

انبثق أول شعاع من فوق القمة الشرقية المسطحة.

واصلت القافلة مسيرتها بعد الشروق بقليل.

تسكّع السّراب منذ الصباح وتنفست الأجساد بالصهد والبخار. اختلطت رائحة العرق البشري برائحة عرق الجمال المجهدة. اشتعلت الرمضاء في الرمل فاضطر بعض الفلاحين الحفاة أن يواجهوا قرص النار المعلّق برؤوس حاسرة ويضحوا بالعمامات التي لفّوا بها أرجلهم المشوية بالرمضاء. بعضهم تخلّف عن الركب وفقد الحياء فاقتعد الرمال الملتهبة يحاول أن يلعق قدميه الحافيتين بلسانه

كي يخفف اللهب ويطفىء فيهما النار. فريق آخر فضّل الزحف على ركبتيه بدل المشي حتى ليظنّ من يراهم على هذه الحال أن الشيخ يستعين بجيش من المقعدين لغزو عاصمة الواحات.

اضطر غوما أن يستغل المهاري فيجلس كل فارس فلاحاً خلف السرج ولكن الفلاحين من الكثرة بحيث فاضوا على عدد الجمال. التحق بالموكب فلاحون من مختلف القرى والواحات المنتشرة عبر الوادي فلم يلحظ أحد كيف تعاظم وتضاعف عددهم. حاول أن يستعين بالحمير ولكن سيقان هذه الدواب لا تستطيع أن تحمل أكثر من شخص واحد في الرمال الناعمة.

بدأ الوادي يفضي الى السهل الكبير.

السلسلة الجبلية ذات القمم المسطحة انحرفت شرقاً ومضت تبتعد حتى ابتلعها الأفق النهم اللانهائي. السلسلة الرملية المتمردة انعطفت يساراً نحو الغرب ترتفع وتنخفض في تموجات متناسقة، على قممها يرقص السراب.

طبيعة الأرض في السهل انقسمت الى شطرين: الجزء الشرقي الموالي للصحراء الجبلية صلب، مكسو بطبقة رقيقة من الحصى ويناسب الدواب. أما الجزء الموالي للصحراء الرملية فناعم يغري ويغوي ويتنفس الصّهد. يزفر الرمضاء والبخار والسراب.

التزم الشيخ في رحلته بالجانب الأيمن واستنجد بالصحراء الجبلية الرحيمة حليفة الأنس منذ بدء الخلق. حلّ المساء.

عسكروا على مسافة لا تبعد كثيراً عن الجوهرة.

لم ينم الشيخ طوال الليل. ويبدو أن الأرق قرر أن ينتقم ويسترد ما منحته له الحمّى البارحة من نوم.

في الصباح كان يرتعد ويحس بالوهن. أجبر نفسه على الصمود فوق المهري محاولاً أن يخفي رعشته عن مرافقيه.

تحركوا مع الشروق.

قطعوا مسافة قصيرة فلاحت في الأفق قمة القلعة العثمانية العتيقة. يشرفون

الآن على الجوهرة.

النسيم الشمالي المشبوب برطوبة البحر البعيد كسر شوكة الحرّ ولطّف النهار.

كان الشيخ ساهراً البارحة عندما هبت تلك النسمة الربانية الرحيمة في آخر الليل مبشرة بقهر موجة الحرّ. في مقدمة القافلة سار مهري الشيخ الضامر، الرشيق، المزركش بخيوط الجلد الملون التي اجتهدت حسان الفوغاس وأبدعت في تطريزها.

لم يحس الشيخ بما يشير لعودة النوبة عندما سمع الطنين الذي يشبه العزف على وتر كسول. خيل له أنه رأى خيال الذبابة.

انهار فجأة فانزلق السرج وسقط بجواره على الأرض. الوهن لم يسمح له في الصباح أن يحكم تثبيت السرج فوق ظهر المهري فانزلق الآن وتبعه الى الأرض. توقف المهري المدرّب الصبور. ظلّ يلتفت يميناً ويساراً في قلق متسائلاً عن سبب سقوط فارسه المفاجىء، باحثاً عن النجدة.

المهري كان من النوع الذكي أيضاً.

ترجل الرجال وهرعوا نحو الشيخ. تجمعوا حوله دون أن يجرؤ أحد على الاقتراب. لم يكن آهر من بينهم ولا إيدار. آهر في قلب القافلة وإيدار يتفقد الصفوف الخلفية. أخيراً تشجع القطيعي وتناول يد الشيخ لجس النبض.. جحظت عيناه وقفز منهما الفزع. صاح دون أن يصدّق نفسه:

- مش معقول. الشيخ سبقنا الى دار الحق يا جماعة!

لم يصدقه أحد.

في تلك اللحظة وصل إيدار على مهر يعدو. قفز من المهري عند الجمهرة قبل أن يتوقف جمله عن العدو. شق آهر طريقه في زحمة الوسط ودس رأسه في الجمع. أفسحوا له الطريق فانهمك يفحص المريض مع إيدار. رفع آهر رأسه فالتقت نظرته بإيدار. تبادلا نظرة طويلة رأى فيها المجتمعون ما يؤكد كلام القطيعي.

قام إيدار يغطي جسد الشيخ بلحافه في حين تولّى آهر مهمة إزاحة جموع

الفضوليين وتفريق التظاهرة. ترك المجال للشيوخ والعقلاء فقط.

ساد سكون حزين.

في الصفوف الخلفية ارتفعت همهمة الفضوليين وضعاف النفوس. أما الشيوخ والعقلاء فقد تحلقوا في دائرة كبيرة وطفقوا يقرأون القرآن.

وقف إيدار خارج الدائرة يتفقد الأفق. اقترب منه آهر فقال دون أن يلتفت إليه:

ـ لا ينبغي أن نبالغ في الحزن. الله خصّه بوفاة لا يفوز بها إلا الأخيار. هذه ميتة جميلة!

قال آهر بصوت مخنوق:

ـ نعم. هذه ميتة جميلة. لم يتعذَّب أبداً.

ـ كلنا نحلم بميتة كهذه. ولكن هيهات! لا يفوز بمثلها إلا الأولياء!

ارتفعت تراتيل المقرئين وبدأت العدوى تسري في كل الجيش. كل السهل يردد الآيات في خشوع.

عاد آهر وإيدار الى المتوفي ومددوه داخل عباءة. لم ينتبه أحد إلى سيارات اللاندروفر الثلاث التي اقتربت ولم يسمعوا هدير المحركات بعد أن ابتلعت التراتيل الربانية أي صوت دنيوي.

توقفت السيارات على بعد خطوات. ترجّل عدد من الرجال الذين يرتدون البدل الأوروبية الأنيقة. من بينهم ضبّاط يلبسون البزّات العسكرية تتوج أكتافهم نجوم كثيرة مما يقطع بأن رتبهم عالية. وقفوا في مواجهتهم في صف جليل صامتين. بعض المدنيين يرتدون الطرابيش العثمانية المهيبة ويضمون أيديهم حول صدورهم في خشوع واستسلام.

مرت دقائق.

لم يلتفت لهم أحد ولم تتوقف الشفاه عن ترتيل القرآن.

تهامس الوفد وجاء أحد الضباط بآلة كالبوق. قرّبها من فمه وقال يخاطب الجمع:

ـ بيننا مبعوث صاحب الجلالة. يريد أن يتحدث إلى الشيخ غوما!

برغم أن مكبر الصوت نفخ في صوت المتحدث وضخمه إلاّ أن ضوضاء التراتيل ابتلعت النداء فلم يسمعه أحد.

عاد الضّابط يكرر في بوقه:

ـ نفيدكم أن مرسوماً قد صدر من صاحب الجلالة يقضي بعزل وزير الداخلية ومحافظ «الجوهرة» وهما الآن رهن التوقيف بانتظار الاستجواب. رسول الملك يريد أن يتحدث الى الشيخ غوما! أين الشيخ غوما؟ أرجو من جناب الشيخ أن يتقدم للتحدث الى مبعوث صاحب الجلالة!

تبادل آهر مع إيدار نظرة ذات معنى. هدأت التراتيل. دبّت حركة في الجيش العرمرم. تراجعت التراتيل وخفت صوت المقرئين.

تقدّم آهر وإيدار من الوفد يحملون جثمان الشيخ في الرداء.

غابت التراتيل وساد السكون.

وضعا الجسد الممدد في العباءة أمام وفد الحكومة.

لم يلحظ أحد كيف سقطت القوقعة من جيب الشيخ وتدحرجت على الأرض. داسها إيدار بنعله فغاصت في الرمل ولكن جزءها العلوي الموشّي بالطوق اللؤلؤي ظل يتلألأ ويتألق تحت شعاعات الشمس.

في السهل عمّ السكون.

**بيرن ـ موسكو ـ طوكيو**
**اغسطس ـ ديسمبر ١٩٨٨م**

نداء "الوقواق" خاتمة رباعية الخسوف، فيها تتجمع عواطف الأحداث وبؤرها بعد توزعها في أوان موشور واسع. تتضح الأسرار وتتبلور معاني الرحلة العظيمة للإنسان. هل تعبر المصائر التراجيدية التي يقود الروائي شخصياته إليها عن اتجاه فلسفي أم هي خط بياني لانقراض الحقيقة وغرق البشرية في هدير قادم أشد سوادا من الموت بمعناه الحسي؟

إشارات الرواية الفكرية تبقى مفتوحة وعرضها لفترة كبيرة من تاريخ الصحراء يحتفظ بأهميته على الصعيد الاجتماعي-الثقافي، ومثل مايسترو لأوركسترا ضخمة ينهي إبراهيم الكوني رباعيته بزخم نفسي هائل ومشاهد لا تنسى.

**تاسيلي للنشر والإعلام** **دار التنوير للطباعة والنشر**

**علي مولا**